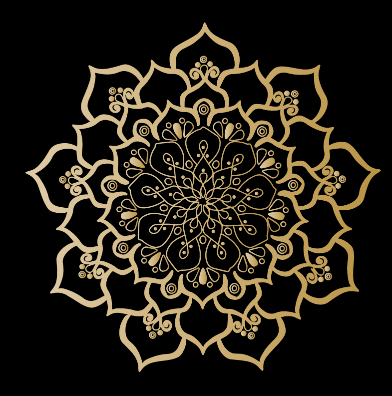
الموسوعة القرآنية

القصة في القرآن الكريم



تأليف

عصام الدين عبد الحميد الهنامي



بيانات النشرة

عنوان الكتاب: القصة في القرآن الكريم.

المؤلف: عصام الدين عبد الحميد الهنامي.

تاريخ النشرة: ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

الإخراج الفني: مركز فائق للخدمات العلمية.



فهرس المحتويات

أولًا قصص الأنبياء

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

ثانيًا قصص غير الأنبياء

الموضوع	الصفحة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

[يوسف: ٣]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

القرآن، كتاب الله الخالد، ومعجزته لرسوله محمد ﷺ التي تحدى بها جميع البشر، بل الإنس والجن، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولا بأقصر سورة منه.

وهو المعجزة الباقية على مر العصور، كل جيل يأتي يجد فيه منهاجًا لحياته، ويكشف جديدًا من معجزاته، وفي عصرنا هذا، عصر العلم والتقدم والكشف العلمي الذي لا يتوقف لحظة يقف القرآن شامخًا متحديًا بما فيه من إشارات علمية تواكب العصر، وقيم أخلاقية تصلح لكل زمان ومكان.

ولقد كان من فضل الله عليّ أن صحبت القرآن الكريم طوال عمري تقريبًا، صحبته طفلًا وشابًا وكهلًا وشيخًا، وكلما قرأته ازداد يقيني بأنه كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وازددت إعجابًا بسمو أسلوبه، وعلو منطقه، وظهور حجته في كل أمر يتناوله.

وإذا كان القرآن الكريم يهدف إلى غاية واحدة: هي الدعوة إلى عبادة الله

وحده، والإيمان بربوبيته وقدرته على كل شـيء، وإحاطـة علمـه بكـل مـا في الكون، ونفاذ إرادته في كل أمر، فإنه استخدم لهـذا الغـرض وسـائل متنوعـة منها: القصة، والجدل المنطقي، وعرض مظاهر قدرة الله في الكـون بوسـائل واضحة ملموسة إلى غير ذلك من وسائل الإقناع.

والقرآن بعد ذلك يهـدف إلى إقامـة مجتمـع مـؤمن يعبـد أفـراده الله حـق عبادته، ويتعاونون عـلى تحقيـق الحيـاة الفاضـلة، فوضـع لهـم أسـس هـذا المجتمع بما اشتمل عليه من عبادات تطهر النفوس، وتنقـي الأفئـدة في أهـم قضايا المجتمع، ومن أوامر ونواهٍ تضع أسس بنيان أخلاقي متين، قـادر عـلى صد كل غوايات الشيطان والوصول بسفينة المجتمع إلى بر الأمان المتمثل في الفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

وهكذا تعددت موضوعات القرآن الكريم، فمن عرض لقصص الأنبياء أو لشخصيات وأحداث ترمز إلى معان ذات قيمة في توجيه المجتمع على تفصيل لأركان العقيدة، ودعائم الإيمان إلى حـث عـلى أداء العبـادات، وبيـان لأهـم شعائرها، أو تشريع لأهم المعاملات التي يحتاج إليهـا المجتمـع، أو حـض على مكارم الأخلاق ونهي عن رذائلها.

ولطالما راودتني فكرة أن أتناول هذه الموضوعات كلا على حـدة، وأفـرد له كتابًا مستقلًا، أتتبع فيه جميع آياته الواردة في سـور القـرآن الكـريم، عـلى أن أبدأ بالسور مرتبة على حسب نزولها على رسول الله ﷺ، وأشرح هذه الآيـات

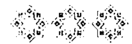
شرحًا موجزًا يوضح معانيها، ويبين مراميها.

وكنت أخشى أن يقصر جهدي عن الوفاء بهذا الأمر حتى شاء الله لي أن أبدأ فبدأت.

وقد بدأت بالقصص لأني وجدت فيه تجسيدًا لمعظم موضوعات القرآن الكريم، ففيه عرض لجوانب العقيدة بطرق متنوعة، وأساليب مشوقة، وفيه حث على الفضائل، ونهي عن الرذائل، وفيه تأريخ لمجتمعات بائدة لم نكن نعرف عنها شيئًا، وبيان لأن الكفر كله ملة واحدة قديمًا وحديثًا.

وأرجو أن أكون قد وفقت في عرض هذا الموضوع، فإن يكن كذلك فهو من فضل ربي، وإلا فهو جهد المُقِلّ.

وأسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يعينني لتناول سائر الموضوعات، وهو الموفق والمستعان، ونعم المولى ونعم النصير.



تمهيد

أهداف القصة في القرآن الكريم:

يقول الله تعالى في مفتتح سورة يوسف:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣).

فهذه الآية تبين أن القصص القرآني هو أحسن القصص، وذلك لصدقه، ولما اشتمل عليه من دروس وعبر؛ فالله سبحانه لم يَسُقْ هذا القصص لهوًا ولعبًا تزجية لوقت الفراغ، بل جعل له أهدافًا، فأشار إليها في بعض الآيات؛ منها:

١ ـ تثبيت قلب النبي ﷺ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠).

٢ ـ تأييد رسالة الرسول ﷺ، أن ما أتى به من وحي السماء لا سبيل للكذب إليه: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢)

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(هود:٤٩) .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(القصص:٤٤)

٣- العبرة والعظمة لمن وهبه الله عقلًا يتفكر ويتدبر:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(يوسف:١١١) .

٤- تصديق الكتب السابقة، وبيان أنها من عند الله، وتفصيل ما أجمل فيها:

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(يوسف:١١١)

موضوعات القصص القرآني:

معظم القصص القرآني يدور حول الرسل وجهادهم في دعوة قومهم وتكذيب قومهم لهم، ثم بيان عاقبة هؤلاء المكذبين، ولكن إلى جانب ذلك يتناول قصصًا أخرى بعضها لرجال صالحين مثل: (ذي القرنين، وأهل الكهف)، وبعضها يأتي في مجال ضرب الأمثال مثل: (أصحاب القرية، وأصحاب الجنة، وصاحب الجنتين).

ليس لكل رسول قصة:

ورد بالقرآن حديث عن خمسة وعشرين نبيًا مرسلًا كان لبعضهم قصة مستفيضة، تناولها القرآن في أكثر من موضع، وهؤلاء هم: آدم، ونوح، وهود،

وصالح، وإبراهيم، ولوط، ويوسف، وشعيب، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، وأيوب، وإلياس، وزكريا، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبعضهم كان مشتركًا في أحداث قصة نبيٍ آخر، مثل: إسماعيل مع أبيه إبراهيم، وهارون مع أخيه موسى، ويحيى مع أبيه زكريا، ويعقوب مع ابنه يوسف، وإسحاق في تبشير أبيه به.

وبعضهم أشاد القرآن به دون ذكر لقصته مثل: إدريس الذي قال الله عنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٦، ٥٧).

وبعضهم لم يذكر القرآن عنه أكثر من اسمه مثل: اليسع، وذي الكفل.

سر تكرار القصص القرآني:

تكررت قصص الأنبياء في عدة سور، فما سر هذا التكرار؟

وقبل أن أحاول الإجابة عن هذا السؤال أود أن أقرر أن القصة الواحدة لم تتكرر أبدًا في سورة، وإنما تكررت في سور مختلفة، وجاءت مناسبة لسياق السورة، وغالبًا ما تذكر قصص مجموعة من الأنبياء معًا في السورة الواحدة كما في سورة الأعراف، والشعراء، والأنبياء وغيرها.

وأول ما يخطر بالبال إجابة عن السؤال السابق هو تثبيت قلب النبي ﷺ أمام الحوادث المتجددة، وتسليته عما يعانيه من إيذاء المشركين واستهزائهم

به وبدعوته، ولذلك نجد هذه القصص تأتي بعد الحديث عن تكذيب المشركين ومكابرتهم وتحديهم للرسول ﷺ.

ولما كانت مواقفهم المضايقة للرسول ﷺ متكررة تكرر سرد قصص أمثالهم من الكفار، ولعل هذا يفسر تكرار قصص الأنبياء دون غيرهم، كما يفسر تركز قصص الأنبياء في السور المكية، ولم يذكر في السور المدنية إلا قصص عن موسى وعيسى عليهما السلام في أثناء الحجاج الذي كان يدور بين الرسول ﷺ وبين أهل الكتاب، حيث كانوا موجودين بالمدينة.

وقد نذكر أيضًا أن القرآن لم يكن يذكر القصة كاملة في سورة واحدة، بل يذكر منها الأجزاء التي تناسب السياق، وتخدم المعنى المراد، ثم يستوفيها في سورة أخرى يحتاج الموقف فيها إلى هذا الاستيفاء، أو تكمن العبرة فيه وهكذا نجد أن كل فصل من القصة ملائم لموضعه تمامًا في السورة.

وأمر ثالث أستطيع أن أسميه الاستعراض البلاغي، فكل قصة تعرض بأسلوب مختلف مناسب لبناء السورة البلاغي، ومختلف عنه في السورة الأخرى التي عرضت فيها القصة بأسلوب مناسب لنسقها التعبيري، وكأن الله يريد أن يقول لأساطين البلاغة من العرب: الموضوع واحد ولكنه يعرض في كل مرة عرضًا جذابًا مشوقًا، فهل منكم من يقدر على مثل هذا؟

منهج البحث في هذا الموضوع:

سيكون جل اعتمادي في سرد هذه القصص على القران الكريم أفصل ما

فصله، وأجمل ما أجمله، وإذا احتاج الأمر لتوضيح بعض الغموض في قصة ما فسأستعين بالأحاديث الشريفة، أو آراء المفسرين.

وسأبدأ بذكر قصص الأنبياء بادئًا بالأقدم زمنًا، ثم الذي يليه حتى تنتهي قصصهم، فأنتقل إلى قصص غير الأنبياء.

وسيكون تناولي لكل قصة بتقديم موجز لآيات السورة يشرح معناها، وقد تكون العبارة مركزة فأوضح ما تتضمنه من معان قد لا تكون مذكورة صراحة في الآية، ثم أذكر بعد ذلك نص الآيات التي قدمت لها، وإذا كانت الآيات طويلة أُجزئها وأتناولها بنفس الطريقة السابقة، ثم أعلق في ختام كل نص بما يهديني الله إليه من خواطر تتصل بهذه الآيات، وإذا تكررت القصة في أكثر من سورة أبدأ بأول سورة فيها على حسب ترتيب نزولها، لا على ترتيبها في المصحف، وقد آثرت هذا الترتيب لعلي أهتدي منه إلى تطور الخطاب القرآني في تناول الموضوع، وأحب أن أنبه إلى أن الأرقام الموضوعة أمام كل سورة تشير إلى ترتيب السورة من حيث النزول.

وأود أن أذكر بهذه المناسبة أن ترتيب السور على حسب النزول ليس متفقًا عليه، ولعلماء القرآن آراء مختلفة في الترتيب، وإن كان الخلاف بينهم يسيرًا، وقد اخترت أرجح الآراء في الترتيب.

على أن معظم السور لم تنزل السورة منها دفعة واحدة، بل كانت تنزل آية أو عدة آيات فيأمر جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ بوضعها بعد آية كذا في سورة

كذا، ومعنى هذا أنه ربما نزلت آيات متأخرة فوضعت في سورة متقدمة لمناسبتها لموضوع السورة وعلى أية حال فليس لهذا تأثير في القصة.



أولًا: قصص الأنبياء

١- آدم عليه السلام

ذكرت هذه القصة في عدة سور هي وفق ترتيب النزول: سورة ص، والأعراف، وطه، والإسراء، والحجر، والكهف، والبقرة، وكلها مكية ماعدا البقرة فهي مدنية.

وسأعرض ما جاء في السورة الأولى: «ص» ثم أبين ما أضيف أو حُذِف من هيكل القصة في السور الأخرى.

في سورة «ص» (٣٨):

تبدأ القصة في هذه السورة بإخبار الله ملائكته أنه سيخلق إنسانًا من طين- ولم يسم الله هذا المخلوق في هذه السورة، بل اكتفى بأنه بشر- ولم يكن الله بحاجة إلى هذا الإخبار فهو- سبحانه- لا يسأل عما يفعل، ولكنه أراد من وراء ذلك تكريم آدم، وبيان فضله على الملائكة، فقد أمرهم بالسجود له بلفظ كله إيحاء ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فلم يقل «اسجدوا» أو «كونوا من الساجدين» بل قال ﴿فَقَعُواْ﴾ الذي يفيد السرعة، ومنتهى الخشوع، وقد بينت الآية أن السجود مطلوب بعد أن يسوي الله شكل المادة الطينية، فتصير

بشرًا، ثم ينفخ فيه من روحه، فيهب له الحياة والعقل، ولعل الدعوة للسجود لآدم كانت بسبب هذه النفخة التي حولت هذا المخلوق الطيني إلى إنسان فيه قبس من روح الله.

استجاب الملائكة أجمعون فسجدوا، إلا إبليس فقد رفض استكبارًا وتحديًا؛ لأنه نظر إلى الأمر من زاوية ضيقة، فقارن بين المادة التي صنع منها آدم وهي الطين، والمادة التي خُلِق هو منها وهي النار، ونسي أهم شيء وهو أن هذه المادة الطينية الحقيرة في رأيه قد سرى فيها شيء لم يلتفت إليه، وهو النفخة الإلهية، لقد أصبح فيها عنصر إلهي وهو الذي أستوجب التكريم والتفضيل.

ويرد إبليس على الله عندما يسأله: ما الذي منعه أن يسجد للمخلوق الذي خلقه الله بيديه، أهو استكبار أم استعلاء؟ يرد قائلًا: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، فيصدر حكم الله بطرده من حضرته، ومن رحمته، وأن يلتصق به هذا الوصف «الرجيم» أي المطرود من رحمة الله، وأن تحل عليه اللعنة الأبدية إلى يوم القيامة.

يقول الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ (ص: ٧١-٧٨).

لا يرتاح إبليس من هذا الحكم الإلهي، ولا يظهر عليه الندم، أو يطلب المغفرة، بل يعلن التحدي، ويطلب- متبجحًا- من الله سبحانه أن يبقيه إلى يوم القيامة، فيستجيب الله طلبه، فيزداد بجاحة ويعلن أنه سيغوى أفراد هذا الجنس الذي فضله الله، وأسجد ملائكته لأبيهم، وذلك ليثبت صحة رأيه في عدم السجود لآدم لأنه وذريته لا يستحقون ذلك، وسوف يكفرون نعمة الله عليهم.

ولكنه تدارك، وكفكف من غروره، فاستثنى من غوايته مجموعة اعترف بأنه غير قادر على إغوائهم، وهم عباد الله الذين اصطفاهم لعبادته، وصنعهم على عينه، فيعلن الله له: إنه ومن أغواه من ذرية آدم سيقذف بهم جميعًا في النار، وهذا قول الله الحق، فالله لا يقول إلا الحق.

يقول الله تعالي: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الآيات ٧٩-٨٥).

في سورة الأعراف: (٣٩):

تضيف هذه السورة فصلًا جديدًا في القصة وهو إسكان آدم وزوجه في الجنة- كما سنرى.

تبدأ الآيات بتناول نفس المضمون الذي ورد في سورة «ص» مع اختلاف

يسير في التعبير، فقد وردت الآيات في سياق ذكر مظاهر نعم الله على بني آدم من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الآية: ١٠).

ومثل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ (الآية: ٢٦).

في ثنايا هذه المظاهر يمتن عليهم بخلق أبيهم آدم الذي كان سببًا في وجودهم، فكان خلقه خلقًا لهم، ولهذا وجَّه إليهم الخطاب بأنه خلقهم ثم صورهم، تنم تذكر الآيات أن الله طلب من الملائكة السجود لآدم، فسجدوا إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، فسأله الله مستنكرًا: ما الذي منعك من السجود وقد أمرتك، فذكر نفس التبرير الوارد في سورة «ص» وهو أن الله خلق إبليس من نار وخلق آدم من طين، والنار خير من الطين في رأيه، فأمره الله بالخروج من ملكوته مطرودًا، فما كان لمثله أن يتكبر في حضرة العلي الجبار، فليخرج محكومًا عليه بالذل والصَّغار.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الآيات ١١ –١٣).

تختلف طبيعة الطرد هنا عنها في سورة «ص»، ففي سورة «ص» يقول الله:

«فاخرج» وهنا يقول له «فاهبط» مشفوعًا ببيان السبب وهو تكبُّر إبليس وهو أمر لا يكون في دائرة السموات العُلَى إلا لله وحده، فجزاؤه يكون عكس قصده: يريد الاستعلاء فيؤمر بالهبوط، يريد التكبر فيحكم عليه بالذل والصَّغار.

وقد أضافت الآيات جديدًا، فقد ذكرت اسم البشر الذي ورد في سورة «ص» غفلًا من الاسم وهو آدم.

ثم يطلب إبليس من الله أن يؤخر أجله إلى يوم البعث، فيجيب الله طلبه، فيعلن التحدي وهو أنه سيذل كل وسعه لإغواء البشر بسبب إغواء الله إياه، فسيقعد لهم بالمرصاد ليصرفهم عن طريق الله المستقيم طريق العبادة والطاعة، ولن يترك حيلة إلا اتخذها لتحقيق هذا الهدف، وسيؤدي ذلك إلى قلة الشاكرين فيهم، فيأمر الله بطرده ذليلًا مهانًا مهددًا إياه ومن اتبعه بأن جهنم ستمتلئ منهم أجمعين.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الآيات ١٤-١٨).

ولكن كيف أغوى الله إبليس على حسب زعمه؟ لعله يرى أن خلق مخلوق أفضل منه فيه إغواء له؛ لأن ذلك سيدفعه إلى التمرد والعصيان لما في طبيعته من الكبر.

ثم يدعو الله آدم وزوجه إلى سكنى الجنة، وقد ترك الله لهما حرية الاستمتاع بالجنة والأكل من كل شجرها إلا شجرة واحدة نهاهما الله عن الأكل منها، ثم بين لهما أن عاقبة الاقتراب منها سيدمغهما بالظلم.

ولكن الشيطان يبدأ إغواءه منذ اللحظة الأولى، فوسوس لهما مزينًا الأكل من الشجرة وقد بين الله غرضه من هذه الوسوسة وهو أنه يريد أن يفضحهما بإظهار عورتيهما اللتين لم يكونا يدريان عنها شيئًا حتى هذه اللحظة، وذكر لهما أن الله لم يمنعهما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الآكل منها يتحول إلى ملاك أو يكتب له الخلود، والله لا يريد لهما هذا ولا ذاك.

وأقسم لهما على ذلك، وأنه ناصح لهما، فانخدعا له وأكلا من الشجرة، فظهرت عوراتهما أمامهما مكشوفتين، ولم يكونا يدريان حقيقتها أو وظيفتها، فارتاعا حينما حدث لهما ذلك، وأخذا يستران عورتيهما بورق من أشجار الجنة يلصقانه عليها.

ناداهما الله سبحانه معاتبًا: ألم أنهكما عن الأكل من تلك الشجرة، وأحذركما من عداوة الشيطان البينة الظاهرة، اعترفا بذنبهما، وطلبا غفرانه كي لا يحل بهما الخسار.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ

ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الآيات ١٩-٢٣).

وتثير هذه الآيات بعض الخواطر:

١- فهي تتحدث عن زوج لآدم لم تذكر في سورة «ص» فهل كانت موجودة منذ خلق آدم، وهل شهدت سجود الملائكة له؟ أو وجدت بعد ذلك؟ الأرجح والله أعلم أنها وجدت بعد ذلك.

ومن آية مادة خلقت؟ هل خلقت من طين كآدم؟ أو خلقت من آدم؟ لم تشر الآيات إلى شيء من ذلك، وإن كان ورد في آيات أخرى- كالآية الأولى من سورة النساء- أنها خلقت من آدم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ولكن كيف؟ لم تذكر أية آية في القرآن كيفية خلقها، وماذا كان اسمها؟ لم يسمها القرآن في آية سورة من سوره.

٢- يعجب المرء أن ينخدع آدم لإغراء إبليس له بالأكل من الشجرة زاعمًا أنهما سيصيران ملكين أو يكتب لهما الخلود، ذلك أن آدم أفضل من الملك؛ فقد أسجد الله ملائكته له، وأما الخلود فهو من نصيبه وزوجه إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، ولكن هذه طبيعة النفس البشرية كما خلقها الله تضعف أمام المغريات الوقتية مهما كانت ضئيلة، ومهما كانت تعرف عن المغري وأهدافه الخبيثة.

٣ـ لم يذكر القرآن نوع الشجرة، هل هي شجرة حنطة، أو شجرة تفاح أو غير ذلك؟ لم يحدد القرآن نوعها؛ لأن الهدف كان تقرير عصيان آدم أمر ربه، والاستسلام لإغواء إبليس، على أن هناك رأيًا يقول: إن الشجرة رمز للمعرفة الجنسية التي أراد الله أن يخفيها عن آدم وحواء طالما هما في الجنة، وقد يشجع على عدم استبعاد هذا الرأي أن الله يذكر دائمًا أنه عقب الأكل من الشجرة انكشفت لهما سوآتهما التي لم يكونا يدريان عنها شيئًا من قبل، فلما ظهرت أمامهما وعرفا وظيفتها شعرا بالخجل منها، فأخذا يحاولان سترها، وأيًا ما كان نوع الشجرة، أو المراد منها، فالهدف القرآني من ذكر ذلك هو التحذير من الشيطان الذي يتعرض لإغواء الإنسان، ويدخل إليه من المداخل التي يحبها والتي تحقق له اللذة والسعادة الوقتية، ولكن العاقبة وبال على من يتبعه.

٤ ـ نلاحظ التعبير القرآني: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾فنحس بالسماحة في التعبير، والرفق بآدم وزوجه فلم يقل: وناداهما الله، وإنما قال (ربهما) باستخدام لفظ الرب الذي يدل على السيادة المقرونة بالتربية، ثم يضيفه إلى ضميرهما ليستشعرا نوعًا من الراحة النفسية، وأن العقاب لن يكون شديدًا إذا قورن بعقاب إبليس؛ لأن الذي سيعاقبهما هو ربهما.

ثم تستمر الآيات التالية في إكمال هذا الموقف، فالله سبحانه وتعالى يأمرهم جميعًا: آدم وزوجه وإبليس، بالهبوط من الجنة إلى الدنيا، وأن العداوة

بينهما جميعًا لن تزول، وأن بقاءهم في الأرض مؤقت، واستمتاعهم فيها زائل، ثم يعود الجميع لربهم يوم يقوم الناس لرب العالمين لحسابهم على ما اقترفوا من أعمال، وستصبح الأرض فيها حياتهم، وفيها موتهم، ثم منها خروجهم للبعث.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾.

(الآيات ٢٤-٢٥)

ونود أن نقارن هنا بين عصيان إبليس، وعصيان آدم وزوجه، وعاقبة كُل عصيان منهما.

إبليس عصى استكبارًا واستعلاء، وحسدًا لآدم، ولم يخطر بباله أنه يتوب ويعلن الندم والاستغفار لما رأى غضب الله، بل استمر في استعلائه، وتحديه لهذا الجنس الذي كرمه الله وأعلن أنه سيغويهم جميعًا إلا القلة الذين اصطفاهم الله، وحصنهم ضد كيده، فكانت عاقبة هذا الاستكبار والتحدي أنه طرد نهائيًا من رحمة الله مذمومًا صاغرًا مهانًا، ثم مصيره بعد ذلك إلى جهنم هو ومن اتبعه.

وأما آدم وزوجه فكانت خطيئتهما عن جهل ونسيان، ثم سرعان ما لجآ إلى الله مستغفرين مسترحمين، فكانت النتيجة قبول توبتهما ورضا الله عنهما.

وهنا قد يثور سؤال: هل الجنة التي أُهبِط منها آدم وزوجه هي الجنة التي وعد الله بها المتقين في الآخرة؟

التعبير اللغوي يقتضي أن تكون هي نفسها الجنة الموعودة؛ لأن الكلمة معرفة «بأل» في قصة «آدم» وفي الحديث عن ثواب الآخرة، وإن لم تكن هي عينها فلاشك أنها مماثلة لها.

بقي أن نعرف شيئًا عن القصة في سياقها في هذه السورة، فهي جاءت في سياق الامتنان على بني آدم والنعم التي أغدقها الله عليهم كما أسلفنا، ثم يواصل الامتنان عليهم بعد ذكر ما أنعم به على أبويهما، وقبول توبتهما، فيمتن عليهم باللباس الذي هداهم إليه، ليسترا به عوراتهما، ثم ينتقل إلى الهدف الأساسي من ذكر القصة وهو تحذير بني آدم من أن يقعوا في شباك الشيطان كما حدث لأبيهم يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ (الآية ٢٧).

ولنتأمل التعبير القرآني: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ فإبليس لم ينزع عنهما لباسهما، ولكنه أغواهما بارتكاب فعل أدى إلى ذلك، فكأنه هو الذي فعله.

وفي سورة طه:

وهي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب النزول يقص الله لنا قصة آدم، وقد وردت القصة عقب الحديث عن الحشر، وما سيحدث فيه من أهوال ومواقف المجرمين، وخضوع الوجوه للحي القيوم، وبيان جزاء الصالحين والطالحين.

ثم تأتي قصة آدم عقب ذلك لتذكر المؤمنين بعداوة إبليس لهم، وأنه لا يسعى إلا في إهلاكهم، فيذكِّر الله نبيه بموقف إبليس من أبوينا آدم وحواء، فالله يقول للملائكة، اسجدوا لآدم فتسجد الملائكة إلا إبليس رفض السجود، لم تذكر الآيات سر رفضه كما ذكرت في السورتين السابقتين، كما لم تذكر دعوة الله لآدم لسكنى الجنة، بل نفهم أن آدم في الجنة فعلًا، فقد تركت الآيات التفاصيل وركزت على الهدف الأساسي وهو تحذير آدم وزوجه من اتباع إبليس، وإن كانت لم تذكر النهي عن اتباعه صراحة، بل نفهم ذلك ضمنًا، فالله يقول لآدم: إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة، وكيف سيخرجهما من الجنة إلا بتزيين عصيان الله لهما، فإذا اتبعاه ترتب على ذلك هبوطهما من الجنة، وهذا لون من ألوان البلاغة القرآنية التي تعمد كثيرًا إلى الإيجاز والوصول إلى الهدف من أقرب طريق، يبين الله بعد ذلك عاقبة الخروج من الجنة فسيحل بهما الشقاء، شقاء البحث عن تدبير وسائل العيش من طعام وشراب ولباس ومأوى، بينما- وهما في الجنة- قد كفل الله لهما كل ذلك- فقد ضمن لهما ألا يجوعا فيها ولا يتعريا، وألا يحسا بالظمأ أو حر الشمس.

بعد هذه النصائح الإلهية يتسلل الشيطان إليهما، فيوسوس إليهما قائلًا لآدم: هل أرشدك إلى شجرة لو أكلت منها تحقق لك الخلود والملك الذي لا يزول- استجابا لوسوسته- فأكلا منها فانكشفت لهما عوراتهما، فأخذا يلصقان عليها ورقًا من أشجار الجنة.

وهكذا عصى آدم ربه، وسار في طريق الغواية، ولكن الله اصطفاه بعد ذلك لما أحس بخطيئته وندم عليها فتاب إلى الله فقبل توبته وهداه.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

(الآيات ١١٦-١٢٢).

نلاحظ في هذه الآيات أن الله لم يذكر فيها النهي عن الأكل من الشجرة طلبًا للإيجاز واكتفاء بتفصيل ذلك في السورة السابقة، كذلك نلاحظ أن وسوسة الشيطان كانت في هذه السورة موجهة لآدم، بينما في سورة الأعراف كانت لهما معًا، ولا تعارض في ذلك؛ لأن الوسوسة لآدم ستنتقل منه إلى حواء إذا اقتنع بها.

لم تذكر الآيات هنا توبة آدم أو ندمه، كما في سورة الأعراف، وهذا من باب الإيجاز الذي يسميه البلاغيون إيجاز الحذف، وتقدير الكلام: فعصى آدم ربه فغوى، ثم أحس بخطيئته وندم عليها فتاب إلى الله فتاب عليه.

ثم يصدر الله حكمه على آدم وإبليس بالهبوط من الجنة، والعداوة الأبدية

بين آدم وذريته وبين إبليس، ثم يبين الله جزاء الذي يتبع هداه وهو حماية الله له من الضلال والشقاء، وأما المُعرض عن ذكر الله فجزاؤه المعيشة الضيقة في الدنيا، وسوء المصير في الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (الآيات ١٢٣-١٢٤).

واضح أن الآيات في سورة «طه» مركزة لا تهتم بالتفصيلات، بل تمضي في إيقاع يهدف إلى التذكير والتحذير، ويبين أن طريق الخلاص في إتباع هدى الله وطريق الهلاك في الإعراض عنه.

في سورة الإسراء: (٥٠):

تركز الآيات في هذه السورة على فصل واحد من فصول القصة وهو رفض إبليس السجود لآدم؛ فالله تعالى يدعو الملائكة فيستجيبون دعاءه إلا إبليس يأبى؛ لأنه يرى نفسه أعلى منه منزلة، فآدم مخلوق من طين، فهل يسجد لمن خلقه الله طينًا؟

ثم ينتقل إلى التحدي، فهو سوف يستأصل الإيمان في نفوس ذريته إلا القليل منهم كي يثبت أن تكريم الله لآدم لا يستحقه، فيرد الله عليه متوعدًا إياه ومن اتبعه بأن جهنم جزاؤهم جزاء تامًا لا ينقص منه شيء، فليبذل الشيطان كل ما يستطيع من جهد لإغواء من يريد من الناس وليستخدم كل وسائله

التي تستفزهم من الصوت المتمثل في الأحاديث الإباحية، والغناء الخليع، ومن كل ألوان القوة التي تخترق كل حصون المناعة الدينية لديهم، إلى المشاركة في الأموال والأولاد عن طريق الإغراء بالكسب الحرام، والافتتان بالأولاد، وارتكاب المعاصي من أجلهم، ولكن مهما بذل الشيطان من جهد، فهناك عباد الله المخلَصون الذين ينكسر الشيطان أمام صلابة عقيدتهم وصدق عبادتهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

(الآيات: ٦١-٦٥)

وقد جاءت هذه الآيات بعد تحذير الله سبحانه الناس من الشيطان ووسوسته في آيات سابقة، وبينت أنه عدو مبين لهم في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (الآية: ٥٣) فناسب أن تذكر الآيات بعد ذلك بداية هذه العداوة وسرها وإصرار إبليس على إغواء بني آدم.

في سورة الحجر: (٥٤):

ثم نجد ذكرًا للقصة أيضًا في سورة «الحجر» وهي السورة الرابعة والخمسين، ولقد جاءت القصة في سياق ذكر مظاهر قدرة الله، ومظاهر فضله على عباده من خلق السموات والأرض، وإنزال للمطر، ومن قدرته على الإحياء والإماتة وعلمه بالماضي والحاضر والمستقبل، وحشر الناس جميعًا لحسابهم.

بعد ذلك يتناول مظهرًا آخر من مظاهر قدرته وفضله وهو خلق الإنسان وخلق الجان.

أما الإنسان فقد خلقه من صلصال من حمأ مسنون [والصلصال هو الطين اليابس الذي يحدث صوتًا إذا احتك بشيء جامد، والحمأ هو الطين الأسود والمسنون هو المنتن المتغير]، وأما الجان فقد خلقه من نار السموم، والمراد بالسموم النار الشديدة الحرارة القاتلة.

وتسير هذه الآيات على نسق يشبه ما ورد في سورة «ص» مع اختلاف يسير كما سنبين؛ فالله يخبر الملائكة بخلق الإنسان من مادة الطين، ويطلب منهم السجود لهذا المخلوق، ويعصى الشيطان رافضًا السجود؛ لأنه في رأى نفسه هو الأفضل، لأن النار أفضل من الصلصال المصنوع من الحمأ المسنون، وينسى كما ذكرت قبلُ النفخة الإلهية التي حلت في روحه، ويسأله الله وهو العالم بمراده عن سر رفضه السجود وقد سجد الملائكة أجمعون فيتبجح ذاكرًا

أنه الأفضل؛ لأنه من نار وهذا المخلوق من صلصال من حمأ مسنون، فلا يمكن له أن يسجد لهذا المخلوق، فيأمره الله بالخروج من ملكوت السموات؛ لأنه قد طُرد من رحمة الله، وحقَّت عليه اللعنة الأبدية، فلا يندم ولا يعتذر، بل يطلب من الله إبقاءه إلى يوم البعث، وحينما يطمئن إلى إجابة طلبه يذكر سر ذلك، وهو أنه سيكرس كل وقته وجهده لإغواء البشر أجمعين إلا عباد الله المختارين ويبين سبب ذلك وهو أن الله أغواه فلابد أن يغوى الجنس المخلوق كله، وكيف أغواه الله؟ فلعل اعتقاده بإغواء الله له راجع على فهمه أنه مادام الله فضل آدم، وهو مخلوق من مادة أحقر من المادة التي خُلق هو منها، وكرمه أعظم تكريم بإسجاده الملائكة له، فقد مهد أمامه سبيل الغواية؛ لأنه يعلم أنه لا يمكن أن يقبل مثل هذا الوضع، ويعقب الله على تحديه هذا بأن سنته الأزلية قد اقتضت أن يكون المخلصون من عباده في حصن منيع من غواية إبليس لهم ثم يتوعده الله هو ومن اتبعه بأن مصيرهم جميعًا إلى جهنم التي لها سبعة أبواب سيكون لكل جزء من أتباعه باب خاص بهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ

مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (الآيات ٢٦-٤٤)

والزيادة التي جاءت في سورة الحجر هي وصف المادة التي خُلِق منها آدم وهي الطين، فقد بينت الآيات أن هذا الطين تحجر واسوَدَّ وأنتن.

كذلك ذكر أن لجهنم سبعة أبواب يختص كل باب منها بطائفة من العصاة.

وفي سورة الكهف: (٦٩):

إشارة موجزة على قصة خلق آدم تقتصر على رفض إبليس السجود له، وسر ذلك أنها جاءت للتحذير من اتباع إبليس، فقد ورد ذكر هذا الموقف بعد الحديث عن الحشر، ووقوف الإنسان بين يدي ربه مجردًا من كل شيء، ليس معه إلا عمله، ويفهم من هذا أن واجب الإنسان أن يطيع ربه ولا يعصى له أمرًا، ويقتضي هذا الابتعاد عن حبائل الشيطان فجاءت هذه الآية مذكرة ومحذرة:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ (الآية: ٥٠).

وقد صرحت هذه الآية بأن إبليس من الجن وليس من الملائكة، وإن كان قد فهم هذا من سورة الحجر حيث ذكرت خلق الإنسان من الصلصال والجان من نار وإبليس يتباهى بأنه مخلوق من النار، كما صرحت بأن لإبليس ذرية ستشترك معه في إغواء البشر﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي ﴾.

سورة البقرة: (٨٧):

وأخيرًا تأتي سورة البقرة وهي السورة المدنية الوحيدة التي ذُكِرت فيها قصة آدم، ونرى في هذه السورة إضافة جديدة إلى القصة التي لم يسبق ذكرها من قبل فقد حدد الله في هذه السورة الهدف الذي من أجله خُلِق آدم، وهو أن يكون خليفة الله في الأرض، وذلك في قوله تعالى في بداية القصة: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الآية: ٣٠)

ونلاحظ أن رد الملائكة جاء غريبًا على طبيعتهم التي ليس فيها إلا طاعة الله وعبادته، ولكنهم هنا يبدون رأيًا في الخبر الذي سمعوه: في بداية القصة: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ ففي ردهم ما يشبه الاعتراض وما هو باعتراض وحاشا لله أن يكون، ولكنه دهشة وتعجب، وهنا يرد إلى الذهن

سؤال: كيف عرف الملائكة أن ذرية آدم ستفسد في الأرض، وتسفك الدماء؟ هل سبقتهم مخلوقات أخرى أفسدت وسفكت الدماء، فأهلكهم الله وأبادهم؟ احتمال، أو أنهم فهموا أن طبيعة هذا الجنس، وما سيخلقه الله فيهم من غرائز ستدفعهم إلى الإفساد في الأرض وسفك الدماء؟ احتمال آخر.

ولا نستطيع أن نرجح أحد الاحتمالين على الآخر؛ لأن الله لم يذكر شيئًا من ذلك، واكتفى بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ثم أراد الله أن يقنعهم بطريقة عملية بأفضلية آدم عليهم، واستحقاقه خلافة الله في الأرض، فعلمه أسماء الأشياء كلها، ثم عرض هذه الأشياء على الملائكة، وطلب منهم أن يسموها إن كانوا صادقين في زعمهم أن خلافة آدم لا داعي لها، فعجزوا، وطلب من آدم أن يسميها فسماها، فأعلمهم أنه يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم سرهم وعلانيتهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾

(الآيات ٣١-٣٣).

فقد وضح من هذه الآية الفرق بين الملائكة والبشر؛ فالملائكة علمهم محدود بما علمهم الله: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ وتفكيرهم لا يجاوز التفكير

في الله وطاعته ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

(التحريم الآية:٦) .

وأما هذا الجنس الجديد فقد أودع الله فيه حب المعرفة، وركب فيه آلة التفكير والبحث عن كل خفي، وهو العقل؛ فهو لا يقف في تفكيره عند حد، بل يتطلع دائمًا إلى معرفة المجهول حتى لو جاوز حدود عقله، قد يصيب وقد يخطئ ولكنه لا يكف عن التفكير.

ثم تمضي الآيات بعد ذلك في الحديث عن طلب الله من الملائكة السجود لآدم، ورفض إبليس استكبارًا وكفرًا، ولكنها تذكر ذلك في اقتضاب وإيجاز يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة الآية: ٣٤).

فليس هناك ذكر للمادة التي خُلِق منها آدم، ولا للحوار الذي دار بين إبليس وبين الله سبحانه وتعالى.

ثم تذكر الآيات سكنى آدم وزوجه الجنة، وأمر الله إياهما أن يستمتعا بأكل ما يشاءان من أشجارها ما عدا شجرة واحدة، وتذكر إغواء إبليس لهما، وعقاب الله لهم جميعًا بالهبوط إلى الأرض التي سيحيون فيها إلى أجل محدود، وذلك في إيجاز أيضًا؛ فليس في الآيات تفصيل لوسوسة الشيطان، ولا لظهور سوءاتهما وخصفهما من ورق الجنة عليهما، بل اكتفت بالقول أخرجهما مما كانا فيه، كما لم يجر ذكر لعتاب الله لهما، وإنما ذكرت الآيات أن الله ألهم آدم كلمات قالها فتاب عليه، ما هذه الكلمات؟ فصلتها سورة

الأعراف في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الآية: ٢٢).

وكما في سورة «طه» يبين الله سبحانه في هذه السورة أنه سيرشد الناس جميعًا إلى طريق الهدى والخير، فمن تبع هذا الطريق فقد نجا وفاز، ومن كفر فمصيره إلى النار.

يقول الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٣٥-٣٩)

وبهذه الآيات تختتم قصة آدم في القرآن الكريم، فلا ترد بعد ذلك في سورة أخرى.

وخلاصة القول: إنها وردت في سبع سور، ست منها مكية وواحدة مدنية، وإن جميع المواضع التي وردت فيها ذكر طلب الله من الملائكة السجود لآدم، ورفض إبليس لذلك، وثلاث منها ذكر سكنى آدم وزوجه الجنة، وأكلهما من الشجرة، وهبوطهما إلى الأرض، وواحدة فقط ذكرت استخلاف الله آدم في الأرض، وتعليمه الأسماء كلها.

❁❁❁

٢- نوح عليه السلام

وردت قصة نوح مفصلة من السور التالية على حسب ترتيب نزولها: القمر، والأعراف، والشعراء، ويونس، وهود، والصافات، ونوح، والمؤمنون، والعنكبوت، وهي كلها سور مكية، كما ورد ذكر نوح وتكذيب قومه له بإيجاز في سور متعددة أخرى.

وتدور قصة نوح في مجملها حول دعوة نوح لقومه أن يعبدوا الله وحده، وجهاده في سبيل هذه الدعوة، وتكذيب قومه له، وعبادتهم الأصنام، ويأسه من إيمانهم ودعائه عليهم، ثم حدوث الطوفان وغرقهم، وإنجاء نوح والمؤمنين معه.

هذه العناصر تختلف من سورة إلى أخرى من حيث الإطناب والإيجاز كما سنرى.

في سورة القمر: (٣٧):

وهي أول سورة يرد ذكر القصة فيها، وعلى الرغم من قصر الآيات التي ذكرت القصة فإنها اشتملت على معظم عناصرها: فالقوم كذبوا نوحًا، واتهموه بالجنون وأقصوه عنهم، ونوح يدعو ربه طالبًا منه النصر؛ فقد غلبه

قومه، فيستجيب الله دعاءه، فيفتح أبواب السماء بالمطر الغزير، ويفجر الأرض عيونًا يتدفق منها الماء، فيلتقي الماءان بقدَر قدره الله، ويحدث الطوفان، وينجي الله نوحًا في سفينة مكونة من ألواح خشبية تشدها حبال من ليف، وقد حاطها الله برعايته وهي تجري في هذا الطوفان الهائل جزاءً لمن جحد من قومه رسالته، ولم يؤمنوا بها، ولقد ترك الله تلك الحادثة وهي الطوفان عبرة لمن يعتبر- فهل من معتبر بتلك الأحداث- ثم تختم القصة بختام يتكرر مع كل قصة وهو ختام يقوم على استفهام للتهويل والتعجب ليبين هول هذا العذاب الذي يلقاه من كذَّب بالرسل وبإنذاراتهم.

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[1]

(الآيات ٩-١٦).

وقد جاءت هذه القصة في سياق الحديث عن تكذيب المشركين للرسول ﷺ، ثم تبعتها قصص مكذبين آخرين لرسلهم، وسنلاحظ هذا في معظم السور التي تتناول قصص الأنبياء؛ لأن الهدف هو تسلية الرسول ﷺ قبله.

(١) ودُسُر: جمع دِسار وهو حبل من ليف.

في سورة الأعراف:

ثم تأتي قصته بعد ذلك في سورة الأعراف وهي السورة التاسعة والثلاثون فتخبرنا الآيات أن الله أرسل نوحًا إلى قومه فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وخوَّفهم العذاب العظيم الذي أعده الله لمن يكذب رسله، وينصرف عن عبادته، فيرد عليه أشراف قومه باتهامه بالضلال الواضح الظاهر دون إدلاء بحجة تثبت قولهم، فليس لديهم حجج، وإنما هو الاستكبار والاستعلاء.

ولكن نوحًا يصبر ويقرر أنه ليس في ضلال، بل هو رسول من رب العالمين إليهم، أرسله ليبلغهم رسالات ربهم التي تتمثل في عبادة الله وحده لا شريك له، ويخبرهم هو أنه مخلص لهم، يريد لهم الخير، وأنه يعلم من الله ما لم يصل إليه علمهم، ثم يسألهم عن سبب إنكارهم رسالته، أهو بسبب عجبهم واستنكارهم أن تكون الرسالة التي أرسلها الله يحملها رجل منهم ليبلغهم دعوته ويخوفهم عذابه، لعل في مواعظه لهم دافعًا لأن يتقوا الله فينالوا رحمته.

لا فائدة من قوله هذا؛ فقد كذبوه، ولا أمل في عودتهم إلى الحق والإيمان، فأنجاه الله والذين معه في السفينة، وأغرق الكفار المعاندين بسبب عمى قلوبهم عن الحق.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ (الآيات ٥٩-٦٤).

فهذه الآيات فصلت بعض التفصيل دعوة نوح قومه، وحواره معهم، ثم ذكرت في إيجاز إنجاء نوح ومن معه في السفينة، وإغراق الكافرين دون أن تشير إلى الطوفان.

في سورة الشعراء:

وهي السورة السابعة والأربعون ذِكر للقصة بإيجاز أيضًا، فقد بدأت الآيات بذكر تكذيب قوم نوح للمرسلين؛ لأنهم إذ كذبوا رسولهم- قد كذبوا جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة هي الدعوة إلى عبادة الله وحده، وأن تكذيب رسول منهم إنما هو تكذيب لكل المرسلين، ثم يصف الله نوحًا بأنه أخ لهم ويقدم نوح نفسه إليهم، على أنه رسول أمين، ويدعوهم إلى تقوى الله وطاعته، وأنه لا يبغي من وراء هذه الدعوة أجرًا؛ لأن أجره على الله رب العالمين، ويكرر دعوتهم إلى تقوى الله وطاعته؛ فقد يتغير رأيهم حينما يعرفون أنه لا يبغي من وراء دعوته مالًا ولا جاهًا.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الآيات ١٠٥-١٠٨).

فماذا كان ردهم على هذه الدعوة المخلصة التي ليس وراءها دافع إلا الاستجابة لأمر ربه، ونصحه لقومه؟ ذكروا سببًا غريبًا لرفضهم هذه الدعوة: فقد تبع نوحًا في دعوته الأرذلون، أي الفقراء والضعفاء والسفهاء في رأيهم، وكأنهم يلمحون بذلك إلى أن اتباع هؤلاء الناس ليس عن إيمان، وإنما هو طمع في جر منفعة لهم من وراء ذلك من مال أو جاه، ولذلك يجيء رد نوح مناسبًا لما فهمه من قصدهم، فيقول لهم: إني لا أعلم ما في ضمائرهم وأن المحاسب على الضمائر هو الله، وليس من حقي أن أطرد المؤمنين مهما كان رأيكم فيهم؛ فإن مهمتي الوحيدة هي تبليغ الرسالة.

يقول تعالى: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝١١٥ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾.

(الآيات ١١١-١١٥).

ولكنهم ردوا على هذا الكلام الواضح المتزن رد المستكبرين المُستَعلين بقوتهم، وهو تهديده بأن يرجموه بالحجارة، ويقتلوه إن لم يكف عن هذا الكلام، بعد هذا القول لم يعد أمام نوح إلا أن يلجأ إلى الله محتكمًا إليه طالبًا إنجاءه ومن معه من المؤمنين، ويستجيب الله دعاءه فينجيه ومن معه في السفينة المملوءة رجالًا ونساء وحيوانًا، ثم يغرق الكافرين.

يقول تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ (الآيات ١١٦-١٢٠).

ثم يختتم قصة نوح في هذه السورة بختام يتكرر في كل قصص الأنبياء الواردة في هذه السورة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الآيات ١٢١-١٢٢).

أي أن في كل قصة من هذه القصص عجيبة من عجائب الله تدل على قدرته، وأخذه المعاندين المتكبرين، ولكن مع ذلك لا يتعظ بها الكثير من الناس فيؤمنوا، ثم يصف الله نفسه بالعزة والغلبة للمعاندين وقهرهم والرحمة بالمؤمنين.

وقد رأينا تفصيل السورة للحوار الذي دار بين نوح وقومه، ثم إيجازه في ذكر العاقبة.

في سورة يونس: (٥١):

وفي سورة يونس لمحة عن موقف نوح من قومه، فالله سبحانه وتعالى يشير إلى ختام القصة، وعاقبة المكذبين.

وقد بدأت القصة بأمر الله محمدًا ﷺ أن يتلو على قومه طرفًا من قصة نوح عندما طال جهاده في قومه داعيًا إياهم إلى عبادة الله وحده دون فائدة، وأحس أنهم ضجروا منه، فأعلن لهم أنه إذا كان قد شق عليهم طول مقامه فيهم،

وتذكيرهم بدلائل وحدانية الله وقدرته، فليس أمامه إلا أن يكل أمره إلى الله طالبًا نصرته وحمايته له، فليُجمِعوا أمرهم، وليجمعوا شركاءهم وليدبروا ما شاءوا من مكايد له، فلن يخشى بأسهم فالله معه، وليكن أمرهم بشأنه مكشوفًا واضحًا لا التباس فيه، ثم لينفذوا حكمهم فيه، ولا يمهلوه لحظة فهو واثق من خيبتهم ونصر الله إياه.

ثم أخبرهم أنه إذا كانوا قد أعرضوا عن دعوته فحساب ذلك واقع عليهم فإنه ما طلب منهم أجرًا على إيمانهم، وإنما ينتظر الأجر من الله سبحانه، وقد أمره الله أن يكون من الذين يسلمون وجوههم إلى الله، ويؤمنون به.

يقول تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الآيتان ٧١-٧٢).

بعد هذا الخطاب الذي وُجهه إليهم استمروا على تكذيبه، فنجاه الله ومن في السفينة وجعلهم خلفاء في الأرض، فهم البقية الباقية من ذرية آدم، ثم تختم الآيات بذكر الهدف الذي من أجله سيقت القصة، وهو إنذار كفار قريش بالمصير الذي ينتظرهم إذا استمروا في تكذيبهم، فهو لن يختلف عن مصير قوم نوح وهو الهلاك فهذه سنة الله في مكذبي الرسل.

يقول تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (الآية: ٧٣).

وقد ركزت هذه الآيات على الإنذار الأخير من نوح إلى قومه وذكرت النتيجة موجزة مركزة.

في سورة هود: (٥٢):

وقد فصل الله في هذه السورة قصة نوح من البداية إلى النهاية، وتبدأ الآيات ببيان إرسال الله نوحًا إلى قومه، فأخبرهم أنه نذير مبين لهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وبينَ لهم أنه يخاف عليهم عذاب يوم القيامة إذا لم يستجيبوا لدعوته وهو عذاب أليم.

ولكن أشراف قومه رفضوا دعوته، وذكروا أسباب رفضهم التي تتمثل في أنه بشر لا يختلف عنهم في شيء، وأن متبعيه هم أراذل القوم أي فقراؤهم وضعفاؤهم، وأنه لا مزية لنوح أو متبعيه عليهم، فلم يدَّعون لهم فضلًا بهذه الدعوة؟ ثم ختموا تبريرهم الرفض بأنهم يعتقدون أن نوحًا وأتباعه كاذبون.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (الآيات ٢٥-٢٧).

إذا تأملنا في الأسباب التي ذكروها نجدها أسبابًا واهية، فهم ينكرون أن يكون الرسول بشرًا، فهل يريدونه ملكًا؟ وكيف يستطيع تبليغهم رسالة ربهم؟ هذه حجة واهية، وأوهى منها إنكارهم أن يكون أتباع الرسول هم

الفقراء والضعفاء، كأن صدق الدعوة يتوقف على نوعية متبعيها وعلو منزلتهم وهذا هراء، وقد قال كفار مكة قولًا قريبًا من هـذا قـالوا عـن دعـوة الرسـول واتباع الضعفاء له ما حكاه عـنهم القـرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ (الأحقاف:١١).

ثم ختموا هذه الأسباب بسبب يدل على عنادهم وإصرارهم على موقفهم، وذلك أنهم يظنون نوحًا ومن معه كاذبين، ولنتأمل التعبير بالظن هنا دون ذكر لفظ يدل على اليقين، فهو يدل على أنهم مهما عاندوا ففي قرارة أنفسهم شك في موقفهم، كما عبر الله عن ذلك في موقف فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ (النمل:١٤)

ونلاحظ أن المكذبين لنوح هم أشراف القوم وكبراؤهم- كما هم مع كل رسول، وهذا أمر طبيعي؛ لأنهم هم الذين ستزول مكـانتهم إن نجحـت هـذه الدعوة لأن مقاييس علو المكانـة سـتتغير، فلـن يكـون المـال أو الجـاه هـو المقياس وإنما سيكون المقياس هو تقوى الله.

ويرد نوح عـلى أسـبابهم الواهيـة بالحجـة الواضـحة، والمنطـق السـليم، فيخاطبهم في رفق، ويبدأ الخطاب بندائهم «يا قوم» الذي يعبر عن أنـه واحـد منهم يهمه أمرهم، ثم يسألهم: أخبروني إذا كان الله قد أكرمني فجعلنـي عـلى حجة واضحة منه وثقة بربوبيته ووحدانيته وأعطاني رحمة منه بأن جعلني نبيًا، وكان الأمر غامضًا عليكم ملتبسًا على أفهامكم، أفينبغـي لي أن أكـرهكم عـلى

اتباع ديني؟ لا لأن أفعل ذلك فلا إكراه في الدين، ولكنكم مسئولون عن انحرافكم وضلالكم، مستحقون لعقاب ربكم.

ويكرر مرة أخرى نداءهم بلفظ «يا قوم ويلفتهم إلى أمر يدل على صدقه في دعوته وهو أنه لا يطلب منهم مالًا في مقابل دعوته؛ لأنه لا ينتظر الأجر إلا من الله.

ثم يرد على سخريتهم من أتباعه، وازدرائهم لهم بأنه- أولًا: ليس من حقه أن يطرد المؤمنين به مهما كان رأيهم فيهم. وثانيًا: من يحميه من عقاب الله لو طردهم، إن قولهم هذا لا يدل إلا على جهلهم.

ثم ينفي نوح عن نفسه مزاعم قد ينسبها قومه إليه، ومن ثم يتهمونه بالخداع والكذب، فهو لا يدَّعي أن عنده خزائن الله ينفقها على من اتبعه ولا يدعي علم الغيب فيفيدهم بعلمه ولا يزعم لهم أنه مَلَكٌ فيتعالى عليهم وأخيرًا هو لا يستطيع أن يحجب رحمة الله وثوابه عن اتباعه الذين يحتقرونهم؛ لأن الله سيجزيهم على إيمانهم الذي يعلمه لأنه يعلم ما في نفوسهم من صدق ويقين.

يقول تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ

أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

(هود: ٢٨-٣١).

بعد هذا الحوار الهادئ المتزن يجيبه قومه بأنهم قد ملوا جداله، وإكثاره عليهم بمثل هذا الحوار، ولا يبالون أدنى مبالاة بتهديده إياهم، فهم يعتقدون كذبه ويتحدونه بالعذاب إن كان صادقًا.

يقول تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (هود: ٣٢).

وهذا منطق العاجز الذي لا يجد حجة يدحض بها حجة خصمه فيتحدى ويهدد.

فلا يقابل ردهم بإظهار السخط والتهديد، بل يبين لهم أن الذي يأتيهم بهذا العذاب هو الله، وهم- في قوتهم واستعلائهم- لن يعجزوا الله، وأن نصحه لهم- إذا أراده- لن ينفعهم بسبب كفرهم وغوايتهم وأن الله هو ربهم، وسيرجعون إليه فيعلمون ما كانوا يحاولون تجاهله.

يقول تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هود: ٣٣-٣٤).

ثم يلتفت سبحانه وتعالى إلى كفار مكة سائلًا: أيدَّعون أن محمدًا افترى القرآن واخترعه وأنه ليس من عند الله قل لهم يا محمد: إن هذا ليس من شأنكم فإن جرمه يقع عليَّ وحدي، وإنني بريء من جرمكم الأعظم وهو

الشرك بالله وهذا الاستطراد في محله؛ لأن هدف القصة – أية قصة – هو إقناع الكافرين بصدق محمد فيما أتاهم به.

يقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (الآية:٣٥).

تعود الآيات بعد هذا الاستطراد فتبين أن جهاد نوح الطويل لم يثمر، وأن كلمة العذاب قد حقت على الكافرين، لذلك أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومه أحد غير من سبق إيمانه، وأن عليه ألا يحزن لسوء فعلهم فقد دنت ساعة الحساب، ودعاه إلى أن يصنع السفينة وسيلة النجاة له وللمؤمنين بتوجيه الله ورعايته وطلب من نوح ألا يتشفع عند الله في إمهال الظالمين، أو رحمتهم؛ لأن أمر الله صدر بإغراقهم.

يقول تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (الآيتان: ٣٦-٣٧).

وبدأ نوح ينفذ ما أمره الله به، وأخذ يصنع السفينة، ويمر عليه أشراف قومه، وكلما مر عليه فوج منهم سخروا منه لصنعه السفينة في مكان لا بحر فيه، ولأنه ترك دعوته إياهم لعبادة الله، واشتغل نجارًا يصنع سفينة يدعى أنها ستنجيه وأتباعه، بينما يغرق الآخرون.

فيبادلهم سخرية بسخرية فهو يسخر منهم لجهلهم بالمصير البشع الذي

كتبه الله عليهم، ويتوعدهم بأنهم بعد قليل سيعلمون من سيأتيه العذاب المخزي المهين، ومن سيحل عليه العذاب المقيم.

يقول تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(الآيتان: ٣٨-٣٩).

فلما دنت اللحظة المقدرة، وفار التنور بالماء- أي تفجر الماء من الفرن الذي يخبز فيه ويمتلئ بالنيران- وهذا دليل على كثرة المياه، وشدة تدفقها حتى لقد أخذت تخرج من الأماكن التي لا يتوقع أحد ظهور الماء فيها، وهو التنور، لما حدث هذا صدر الأمر الإلهي لنوح بأن يحمل في السفينة من كل صنف من الحيوان ذكرًا وأنثى ليستمر النسل، وتعمر الأرض بعد هذا الطوفان، وكذلك يحمل أهله والمؤمنين به من أتباعه وما كانوا إلا قليلين.

يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (الآية: ٤٠)

ويبدأ فصل جديد في القصة يصور العاقبة لكل من المؤمنين والكافرين، فأما المؤمنون فقد ركبوا في السفينة التي أنجتهم من الغرق المدمر وأخذت تمخر بهم عباب هذ الطوفان الذي ليس له نظير، فأمواجه كالجبال المتحركة في جبروتها بعنف وقوة.

وأما الكافرون فقد سكتت الآية عنهم فأمرهم معروف، فماذا يغني عنهم مالهم أو جاههم أو جبروتهم أمام هذه الأمواج الهائلة، لقد غرقوا جميعًا هم ودورهم وحيواناتهم، ولكن الآية ذكرت فردًا واحدًا منهم؛ لأن فيه عبرة وعظة، فهو ابن نوح - ولنتخيل ما يمثله الابن لكل أب - ولذلك فنوح حينما يراه في مكان منعزل يحيط به الموج من كل مكان - يدعوه ليركب معهم، والابن يأبى، فهو يعرف أجر الركوب، إنه الإيمان بالله وحده، وهو لا يريد ذلك، ويقول لأبيه- وكأنه يطمئنه أو يتحداه- سأصعد أحد الجبال فيحميني من الماء، ولكن أباه يعرف الحقيقة، فيخبره أنه لا شيء يحمي أحدًا من عذاب الله إلا من رحمه الله لإيمانه به وهم ركاب السفينة، وانتهى الأمر بغرق الابن الذي التهمه الموج فغرق مع من غرقوا.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾

(الآيات: ٤١-٤٣).

طويت صفحة الكافرين، وحل بهم وعيد الله، فأغرقوا أجمعين، ولم يبق إلا أن تعود الحياة سلامًا وأمنًا، فصدر الأمر الإلهي إلى الأرض أن تبلع ماءها وإلى السماء أن تكف عن سيولها، ونفذ الأمر، وانحسر الماء، وأسدل الستار

واستوت السفينة على جبل الجودي بمن فيها من المؤمنين سالمين آمنين، وحقت اللعنة على الظالمين الذين قاوموا نوحًا وسخروا منه.

يقول تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الآية: ٤٤).

عبارات بليغة موجزة، وأوامر تصدر حاسمة، وختام مناسب لإيمان المؤمنين وكفر الكافرين.

بعد أن ينتهي الأمر تجيش عاطفة الأبوة في صدر نوح، فيتطلع إلى السماء مناديًا ربه في حزن وألم، مذكرًا بوعد الله له بإنجائه وأهله من هذا المصير، فكيف حل بابنه العذاب ولم ينج من الغرق، إن وعدك يا ربي هو الحق، وأنت أعدل الحاكمين، فيرد الله عليه ردًا قاطعًا بأن هذا الابن ليس من أهله؛ لأنه كَفَر، والكفر يقطع كل صلة بين المؤمن والكافر حتى صلة الأبوة والبنوة، ثم يعاتبه على نسيان هذا الأمر، وجهله به وينهاه عن أن يسأل مثل هذا السؤال الذي لا يدل إلا على جهل، ويشعر نوح بخطئه الفادح، ويخشى غضب الله عليه فيلجأ إلى الله مستعيذًا به من الجهل معترفًا بفداحة خطئه الذي لن يمحوه إلا غفران الله له، وإلا حل به الخسار.

يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ

أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

(الآيات ٤٥-٤٧)

ويتقبل الله استغفار نوح ويدعوه إلى مغادرة السفينة هو ومن معه بوعد منه سبحانه أن يسبغ عليهم الأمن والسلام والطمأنينة، وأن يرزقهم الرزق الوفير وسيمتد هذا الرزق إلى ذريته وذريات من معه، وأن الكافرين من هذه الذريات لن يحرموا من هذا الرزق لكن سيصيبهم العذاب الأليم بعد ذلك.

يقول تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(الآية:٤٨).

ثم يخلص الله من هذه القصة المفصلة الوافية إلى الهدف المراد منها وهو أولًا: إثبات إعجاز القرآن، وأنه لا يمكن أن يكون من لدى البشر، وليس هناك من قومه من يعلمها، وثانيًا: تسلية الرسول ﷺ، وحثه على الصبر فإن العاقبة ستكون له كما كانت لنوح؛ لأن الله قضى أن العاقبة دائمًا تكون للمتقين، يقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(الآية:٤٩).

وواضح أن هذه السورة أضافت كثيرًا إلى قصة نوح، وذكرت تفصيلات لم تُذكر في السور السابقة أو اللاحقة، فهي أول سورة ذكرت صنع نوح للسفينة، وسخرية قومه منه بسبب صنعها، وأمر الله له أن يحمل فيها من كل أصناف الحيوان زوجين اثنين، وهي السورة الوحيدة التي ذكر فيها أمر نوح وابنه، وحوارهما معًا، وشكوى نوح إلى الله من غرق ابنه وهو من أهله.

سورة الصافات: (٥٦):

في سورة الصافات لمحة عابرة عن نوح وتأتي في سياق انتصار الله للمرسلين وإنجائهم من قومهم الكفرة، يذكر الله استجابته لنوح عندما دعاه، وإنجاءه وأهله من الكرب العظيم، ومكافأته على جهاده وصبره بأن جعل نسله هو الباقي بعد إبادة الكافرين جميعهم، ثم يختم القصة الختام المتكرر في هذه السورة بعد قصة كل نبي، ويتضمن إبقاء ذكره في الأمم اللاحقة، وتحيته بالسلام عليه سلامًا يبقى ما دام الناس لأنه كان محسنًا، وهذا جزاء المحسنين وكان من عباد الله المؤمنين، ثم يذكر - في إيجاز - مصير قومه المكذبين، فقد أغرقوا جميعًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ (الصافات: ٧٥-٨٢)

سورة نوح: (٧١):

وفي القرآن سورة كاملة من أولها إلى آخرها تتناول مسيرة نوح مع قومه وسميت باسمه «نوح».

تبدأ السورة بإرسال الله نوحًا إلى قومه نذيرًا إليهم من عذاب أليم، إذا كذبوا رسالته وعصوا دعوته التي تقوم على عبادة الله وحده، وطاعته وتقواه،

وفي مقابل ذلك سيغفر الله لهم ذنوبهم، ويمتعهم بحياتهم إلى أن يجيء أجلهم الذي لا مناص من مجيئه.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الآيات ١-٤).

لا تذكر الآيات رد قومه عليه، وحوارهم معه- كما في السور السابقة- ولكنها تذكر شكوى نوح منهم، فقد فعل كل ما يمكنه فعله معهم، واستمر يدعوهم بالليل والنهار ولكن كلما ألح في دعائهم ازدادوا نفورًا منه، وكلما دعاهم لينالوا غفران الله أظهروا له أشد ألوان التجاهل؛ فيضعون أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوه، ويغطون وجوههم بثيابهم كي لا يروه، وثبتوا على عنادهم، واستكبروا استكبارًا، ولم ييأس نوح فزاد من جهده في دعوتهم، فكان يدعوهم جهارًا بأعلى صوته، ويعلن لهم الدعوة بكل الطرق ثم يحاول أن يدعوهم سرًا لعل بعضهم يخشى إعلان إيمانه علانية، ويحكى الله سبحانه ما قاله لهم، فقد طلب منهم استغفار الله، وبيّن لهم مزايا الاستغفار، فسيحصلون على عفو الله ومغفرته، وسيوسع لهم في الرزق، فينزل الغيث الذي يحيي أرضهم، وينبت لهم شتى الثمار، ويهبهم الله الأموال والبنين ويحول بلادهم جنات وأنهارًا.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (الآيات ٥-١٢).

ولما لم يجد منهم اهتمامًا بهذه النعم التي تنتظرهم إذا آمنوا اتجه اتجاهًا آخر فراح يلفت أنظارهم إلى مظاهر قدرة الله في الكون، فيقول لهم متعجبًا ما لكم لا ترجون ثواب الله وتخشون عقابه؟ وهو الذي خلقكم في مراحل نمو مختلفة تدل على قدرته وربوبيته، وانظروا إلى السماء فوقكم، هذا الخلق العظيم المتسق، إنها ليست سماء واحدة بل سبع سماوات بعضها فوق بعض، من خلقها؟ أليس الله؟ بلى، وجعل فيها القمر منيرًا يضيء ظلام ليلكم، وجعل الشمس مصباحًا ملأ الكون نورًا، ومنحكم النهار الذي تسعون فيه لأرزاقكم، وتأملوا في بدايتكم ونهايتكم، ألم تكن البداية من تراب الأرض؟ منها خلق الله أباكم آدم، وإليها تعودون جميعًا بعد موتكم، ومنها تخرجون عند بعثكم وتفكروا في الأرض التي بسطها الله لكم، وجعل لكم فيها طرقًا ممهدة تسلكونها فتصلون إلى حيث تريدون.

يقول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ

أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾(الآيات ١٣-٢٠)

ولكن قوم نوح لم يأبهوا لكل ما ساقه إليهم نوح من أدلة تقنع كل من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد؛ لأنهم أبوا لأول وهلة أن يفكروا فيها، فيتجه نوح إلى ربه شاكيًا عصيانهم إياه، واتباعهم المستكبرين من قومهم الذين أعطاهم الله المال والولد، فلم يزدهم ذلك إلا خسرانًا، ثم يبين نوح أنهم أخذوا يمكرون به، ويدعون قومهم إلى عدم اتباعه، وألا ينصرفوا عن آلهتهم وَدْ، وسُواع، ويعوق ويغوث ونسر، وقد أضلوا بدعوتهم تلك الكثيرين، وبلغ به اليأس أن يدعو الله أن يزيد من إضلالهم، فقد فَقَدَ الأمل في اهتدائهم.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾(الآيات ٢١-٢٤).

تذكر السورة بعد ذلك العقاب الذي حل بهم وهو الإغراق، ثم دخول نار جهنم- ولكنها لا تذكر الطوفان- كما تبين سبب حلول هذا العقاب بهم وهو خطاياهم التي ارتكبوها في الكفر بالله، وعبادة الأصنام، ولم تنفعهم آلهتهم التي عبدوها ولم يكن لهم ناصر من الله.

يقول الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾(الآية: ٢٥)

هذا هو العقاب الذي تستحقه خطاياهم في حق ربهم: الإغراق بالطوفان

ثم الإحراق في نار جهنم، ونلاحظ العطف بالفاء الذي يفيد التعقيب السريع وهذا يدل على أحد احتمالين:

الأول: أن يكون المراد بالنار عذاب القبر كما قال الله في فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[1] الاحتمال الآخر هو «نار جهنم» التي سيقذفون فيها بعد الحساب يوم القيامة، ويكون دخول الفاء لتفيد أن عقابهم قريب قريب على طريقة قوله تعالى أول سورة النحل ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

ثم نختم السورة بدعاء نوح على قومه الكافرين بألا يذر أحدًا منهم على الأرض كي لا يفسدوا فيها، ويكونوا سببًا في إضلال الناس، ولن يكون نسلهم إلا مثلهم فاجرًا كفارًا، ثم يدعو للمسلمين الصالحين بالرحمة والمغفرة، يبدأ بنفسه فهو في حاجة إلى مغفرة الله- على الرغم من نبوته، وجهاده في سبيل الدعوة إلى الله؛ لأنه لا أحد مهما علت مكانته يستغني عن استغفار الله، والتوبة إليه، والرسول ﷺيقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة» ويقول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2]، ثم يُثَنِّي نوح بطلب المغفرة لوالديه فهذا هو البر بهما، ثم يتبعهما بالذين دخلوا بيته من المؤمنين؛ لأن لهم حرمة تزيد على سائر المؤمنين بدخولهم بيته، ويعني هذا الدخول زيادة محبتهم،

---

(١) سورة غافر الآية: ٤٦

(٢) سورة النور الآية:٣١.

وطاعتهم إياه ثم يدعو لباقي المؤمنين والمؤمنات، ولكنه يعود مرة أخرى للدعاء على الكافرين الظالمين بالهلاك والدمار الشامل.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ (نوح: ٢٦-٢٨).

هذه السورة القصيرة تمتاز إيقاعها، وباعتمادها على الجمل المسجوعة المتوازنة فهي قريبة الشبه في أسلوبها بقصة نوح في سورة القمر والشعراء.

وقد أضافت هذه السورة جديدًا يتمثل في بسط مظاهر قدرة الله وإنعامه على عباده، كذلك ذكرت عبادة قوم نوح للأصنام، وسَمَّتُ هذه الأصنام، وهو أمر لم يرد في أية سورة أخرى.

في سورة المؤمنون: (٧٤):

في هذه السورة، وهي الرابعة والسبعون، تذكر العناصر الرئيسية للقصة في إيجاز فالله قد أرسل نوحًا إلى قومه، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، فواجهه أشراف قومه بالكذب؛ لأنه ليس إلا بشرًا مثلهم يريد علوّا لمكانة فوقهم بادعاء النبوة، وأن الله لو كان مرسِلًا رسولا لاختاره من الملائكة [نفس الحجة التي يذكرها مكذبوا الرسل] ثم يتهمونه بالجنون- كما جاء في سورة القمر من قبل- ولذلك ينبغي لهم ألا يعبئوا به، وأن ينتظروا هلاكه وانتهاء أمره.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (الآيات: ٢٣-٢٥).

أمام هذا العناد لا يجد نوح ملجأ إلا أن يفزع إلى الله يطلب نصرته، ويشكو إليه تكذيب قومه، فيستجيب الله رجاءه، ويوحى إليه أن يصنع السفينة، وسيرعاه الله، ويحيطه بعنايته، ويلهمه التوفيق في صنعها، ويبين له واجبه حيث تأتي علامة الطوفان بأن ينبع الماء من موقد النار، فحينئذ عليه أن يحمل في السفينة من كل صنف من الحيوان ذكرًا وأنثى؛ لتستمر الحياة بعد الطوفان، وكذلك يحمل فيها المؤمنين به، وأهله إلا من قضى الله بهلاكهم لكفرهم مثل زوجه وابنه، وينهاه الله أن يشفق على هؤلاء القوم الظالمين فيحاول أن يطلب لهم الرحمة؛ لأن الحكم قد سبق عليهم بالإغراق، ثم يرشده إلى توجيه الحمد والثناء إلى الله على إنجائه من القوم الظالمين، ويُعَلّمه أن يدعوه طالبًا مباركة المكان الذي سينزله هو وأصحابه، فالله خير من يحقق ذلك.

يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل

رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾(الآيات: ٢٦-٢٩)

ثم يختتم الله القصة بالغاية التي ترمي إليها القصة- كسائر القصص القرآني وهو أن يكون فيها عبرة وعظة لمن يتأمل، وإن من سنة الله أن يرسل المرسلين لعباده ليختبرهم، ويظهر حقيقة اعتقادهم.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾(الآية: ٣٠)

قد نجد إضافات جديدة في الآيات لم يصرح بذكرها من قبل؛ فهي تبين رأي قوم نوح في سبب ادعائه النبوة وهو أنه يريد أن يكون أعلى منهم منزلة كما بينت استنكار القوم؛ لأن يكون الرسول بشرًا، بل لابد أن يكون ملكًا، وقد جاء في سورة هود استنكارهم لكونه بشرًا مثلهم، ولكنهم لم يصرحوا بذكر طبيعة الرسول كما هنا، كذلك ورد في هذه الآيات طلب الله من نوح أن يحمد الله هو ومن معه على إنجائهم، وأن يسألوه خير المنازل.

في سورة العنكبوت: (٨٥):

وآخر سورة أشارت إلى قصة نوح هي العنكبوت وهي السورة الخامسة والثمانون، وقد ذكرت في إيجاز إرسال الله نوحًا إلى قومه، وجهاده فيهم ألف سنة إلا خمسين سنة أي تسعمائة وخمسين سنة، فلم يؤمنوا ولم يكفوا عن إيذائه والسخرية به وبمن اتبعه، فأرسل الله الطوفان فأغرقهم بظلمهم وأنجى نوحًا ومن معه من المؤمنين، وبقيت السفينة دليلًا للناس جميعًا على قدرة الله وشدة انتقامه من الظالمين.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(العنكبوت: ١٤-١٥).

والجديد في هذه الآيات هو تحديد الزمن الذي عاشه نوح مع قومه، وهو تسعمائة وخمسون سنة، وهنا يرد على الذهن سؤال: هل هذه هي كل عمر نوح؟ أو أنها المدة من مولده إلى بدء الطوفان، ثم عاش بعد ذلك فترة يعلم الله مداها؟ نسق التعبير يقتضي أن تكون هذه المدة إلى بدء الطوفان، ثم عاش عمرًا بعد ذلك؛ لأن العطف بالفاء يقتضي الترتيب والتعقيب، أي لابد أن يكون كل معطوف من المعطوفات تاليًا للآخر، فإذا قال الله: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ ﴾ فمعنى هذا أن أخذ الطوفان لهم حدث بعد مضي ألف سنة إلا خمسين عامًا، ونحن نعلم أن نوحًا عاش بعد ذلك؛، لأنه ركب السفينة واستوت على الجودي، وطلب من الله أن ينزله خير منزل، والله أعلم.

وإذا تأملنا السور التسع نجدها قد ذكرت سفينة نوح ما عدا اثنتين لم تشر إليها وهما: الصافات ونوح، واكتفتا بذكر الإغراق، ففي الصافات: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ وفي سورة نوح: ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ أما السور السبع التي ذكرت فيها السفينة فقد وردت في خمس منها بلفظ الفُلك، وزادت سورة الشعراء وصف الفُلك بأنه مشحون، وواحدة منها وهي القمر لم تذكر الفُلك بلفظها وإنما أتت بكناية عنها ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، وسورة أخرى وهي العنكبوت

ذكرت لفظ السفينة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ ومنها سورتان ذكر فيهما أمر الله لنوح بصنع الفلك وهما: هود والمؤمنون، ولكن في هود تفصيل أكبر حيث ذكرت أنه أخذ يصنع الفلك ويمر عليه الملأ فيسخرون منه.

وقد ورد اتهام قوم نوح له بالجنون في سورتين هما: القمر: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، والمؤمنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾.

وذكرت بشريته سببًا لتكذيب قومه إياه في سورتين هما: هود: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ والمؤمنون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وذكر ابن نوح وكفره وإغراقه في سورة واحدة هي هود: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآيات.

ولم يصرح بذكر امرأة نوح وكفرها في أي من السور التي وردت فيها قصة نوح، ولكن ذكر كفرها هي وامرأة لوط في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠)



٣- هود عليه السلام

هود هو أول نبي عربي يعرفه التاريخ، وقومه هم قبيلة عاد إحدى قبائل العرب البائدة، وقد ورد الحديث عن هود وعاد في سور عديدة من القرآن الكريم، فإذا استثنينا الإشارات العابرة إلى عاد أو هود في القرآن الكريم، فسنجد السور التي تضمنت هذه القصة هي بحسب ترتيب النزول: الفجر، القمر، الأعراف، الشعراء، هود، فصلت، الأحقاف، الذاريات، الحاقة.

وسنتتبع القصة في هذه السور، وسنلاحظ أن بعض السور ركزت على عاد وما حل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم نبيهم، ولم تذكر هودًا صراحة، وبعضها ذكر هودًا وجهاده مع قومه لنشر دعوته.

في سورة الفجر:

أول إشارة في القرآن الكريم إلى عاد وردت في سورة «الفجر» وهي السورة العاشرة في ترتيب النزول، وهي تذكر كيف فعل الله بعاد دون أن تبين ماذا فعل بهم، وتكتفي بالتهويل الذي يتضمنه الاستفهام التقريري:

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الآيات: ٦ - ٨).

فالاستفهام التي تبدأ به الآيات يوحي إلى القارئ بمدى شدة العذاب الذي حل بهم، ثم تتحدث الآيات عن إرم ذات العماد، فما إرم؟ هل هو اسم القبيلة؟ وكأن الله تعالى يقول: إنها قبيلة إرم الفارعة الطول، الضخمة الأجسام، فكأن أجسام أفرادها أعمدة سامقة، ولم يخلق مثل ضخامتهم في البلدان، أم هي اسم لمدينتهم، وهي مدينة مبانيها ذات أعمدة عالية ليس لها نظير في البلاد؟ رأيان للمفسرين[1]. وقد يساعد على التفسير الثاني ما جاء في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾(الآية: ١٢٨)

وعلى أية حال فكلا التفسيرين يعبر عن قوة وضخامة وهما صفتان كان يتباهى بهما قوم عاد كما سنرى.

هذه هي الإشارة الأولى لهذه القصة وليس فيها ذكر لهود، ولا لنوع العذاب الذي حاق بهم.

في سورة القمر:

ولكن السورة الثانية التي ورد فيها ذكر عاد، وهي سورة «القمر»- وهي السورة السابعة والثلاثون- ألقت ضوءًا أكثر على القصة، فبينت تكذيبهم، ولكن لم تذكر من كذبوا ولا بماذا كذبوا، واكتفت بالاستفهام التهويلي التعجبي عن العذاب الذي حل بهم، والإنذارات التي أتتهم، ثم بينت نوع العذاب الذي نزل بهم، فقد أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا أي شديدة

---

(١) انظر تفسير القرطبي.

الصوت، في يوم شؤم لا ينقطع شؤمه، وهذه الريح تنزعهم من الأرض انتزاعًا ثم تقلبهم على رءوسهم، فتدق أعناقهم، وتفصلها عن أجسادهم، فتصبح هيئتهم في طولهم وضخامتهم كأنهم أصول نخل متساقط، ثم تختم الآيات بما بدأت به، وهو الاستفهام التهويلي التعجبي الذي يوحي بشدة العذاب وصدق الإنذارات.

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

(الآيات: ١٨-٢١)

في سورة الأعراف:

وأما في سورة الأعراف- وهي السورة التاسعة والثلاثون، فقد ورد فيها مفصلًا إرسال هود إلى قومه عاد، ووصفه بأنه أخوهم، أي واحد من قبيلتهم، فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده، ويحثهم على تقوى الله، فيجيبه أشرافهم الكافرون بأن رأيهم فيه أنه سفيه أحمق، وإنه لكاذب في ادعائه ودعوته، فيرد عليهم هود نافيًا اتهامه، ويؤكد لهم أنه رسول من رب العالمين، ويبين لهم مهمته، وهي أن يبلغهم رسالات ربهم، وينصح لهم وهو ناصح أمين، ثم يسألهم عن سبب تكذيبهم إياه، هل هو عجبهم من أن يكون الرسول الذي جاءهم من عند الله رجلًا منهم، ثم يذكر أن الله جعلهم خلفاء في الأرض بعد قوم نوح، وهو يريد بذلك أن يلفتهم إلى أمرين: أولهما أن الله أرسل نوحًا إلى

قومه وهو رجل منهم، والآخر تكذيب قوم نوح رسولهم أدى إلى إهلاكهم، ثم يمتن بما أنعم الله عليهم به من ضخامة الأجسام وقوتها فواجبهم من أجل هذا أن يذكروا نعم الله عليهم، فيؤمنوا لعلهم ينالون الفوز والنجاة.

يقول تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ٦٥-٦٩).

لم تأبه قبيلة عاد لحجته ومنطقه، وإنما تساءلوا ساخرين: هل جئتنا لتحملنا على عبادة الله وحده، وترك ما كان يعبد آباؤنا من آلهة، ثم تحولوا إلى تحديه فيجيبهم بأن عذاب الله وغضبه آت إليهم وشيكًا، ويستخف بما يحرصون عليه من عبادة الأصنام ويستخفها فهي ليست إلا كائنات جامدة أعطوها أسماء ثم عبدوها، فكيف يجادلونه بشأنها، ويتخذونها حجة على رفضهم دعوته، بينما لم يرد بها من الله حجة أو دليل، وهو وحده الذي يقرر لمن العبادة.

ثم يطلب منهم انتظار العذاب الذي يريدونه سخرية وتكذيبًا، ويصدق وعد الله فينجى هودًا ومن معه من المؤمنين، ويستأصل شأفة الكافرين، ولكن الآيات لم تبين نوع العذاب الذي وقع بهم، وعند ذلك تنتهي قصة عاد في سورة الأعراف.

يقول تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۝٧١ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

(الآيات: ٧٠-٧٢)

في سورة الشعراء:

وفي سورة الشعراء يضيف الله أبعادًا أخرى للقصة فقد بين فيها ما كان يتمتع به قوم عاد من حضارة وقوة كما سنرى، تبدأ الآيات بالبداية المتبعة في كل قصص الأنبياء الواردة في هذه السورة، وهي أن تكذيب قول النبي تكذيب لجميع المرسلين، وقد بينا السر في ذلك في قصة نوح بعد هذه البداية يذكر الله دعوة هود لهم، وقد وصفه بأنه أخوهم أي واحد من قبيلتهم كما مضى في سورة الأعراف، وكما تنتهجه هذه السورة، مع جميع الرسل فهم إخوة لمن أُرسلوا إليهم، وهذا أدعى لتصديقهم، ودعوة هود كدعوة غيره من الأنبياء: تقوى الله وطاعته فيما يدعوهم إليه، ويصف نفسه بأنه أمين في هذه الدعوة، وأنه لا يبغى من وراء دعوته أجرًا منهم؛ فهو لا يبغي إلا مثوبة الله هذه العبارات بنصها تتكرر مع كل رسول وردت قصته في هذه السورة.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٢٣-١٢٧)

ثم يعيب عليهم ما يقومون به من بنايات على كل مرتفع من الأرض ليدلوا بها على غناهم ومكانتهم، واتخاذهم القصور والحصون المشيدة كأنهم سيخلدون في هذه الدنيا، وتَجَبُّرَهُم على الناس إدلالًا بقوتهم، فإذا بطشوا بأحد من الناس بطشوا به بمنتهى العنف والقسوة، بعد ذلك يكرر دعوته إياهم إلى تقوى الله وطاعته فيما جاء به، وأن تقواهم الله واجبة عليهم لما أنعم عليهم بما هم فيه من أسباب القوة والرخاء؛ فقد أمدهم بالكثير من الماشية- التي كانت تعتبر أصول الأموال في تلك الأيام- كما أمدهم بالبنين الذين يُكَثِّرون القبيلة، ويزيدونها قوة، وهم بعدُ زينة الحياة الدنيا، وأمدهم بالبساتين والزروع التي فيها متاعهم ومعاشهم، ثم يبين لهم أنه يخاف عليهم انتقام الله منهم وإنزاله العذاب العظيم بهم.

يقول تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (الآيات: ١٢٨-١٣٥).

لا يهتمون بكل ما يقول، بل يظهرون له أشد الاستخفاف مبينين أن وعظه وعدمه سيان لديهم، فهم لن يؤمنوا، وأن منهجهم في الحياة هو منهج الأولين فلن يتركوه وأن تهديدك لنا بالعذاب لن يتحقق، فأخذهم الله بالعذاب، ثم تختم القصة بالشعار العام في هذه السورة التي تختم به كل قصة، وهو أن في

ذلك لعبرة وعظة وأن الله عزيز غالب رحيم بالمؤمنين من عباده.

يقول تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾(الآيات: ١٣٦-١٤٠)

في سورة هود:

ثم تأتي السورة التي سُميت باسم «هود» وإن كانت قصته فيها لا تحتل مساحة منها أكثر من مساحتها في سورتي الأعراف والشعراء، وقد بدأت القصة بنفس بدايتها في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ ثم تسير القصة بادئة بالدعوة إلى صلب العقيدة وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده، ثم يصدر هود حكمًا عليهم إذا استمروا في عبادة الأصنام، ولم يقبلوا دعوته، وهو أنهم مفترون، أي كاذبون على الله في هذه العبادة؛ لأن الله لا يأمر بعبادة أحد سواه، ثم يبين لهم- كما فعل نوح من قبل- أنه لن يجني فائدة شخصية من وراء دعوته إياهم إلى تلك العبادة، فهو لا يريد منهم أجرًا عليها، وإنما أجره على الله الذي خلقه، والذي يملك نفعه وضره، ثم يدعوهم إلى استغفار الله على ما سلف من عبادتهم غيره، والله غفار الذنوب جميعًا، وسيترتب على استغفارهم الذي يتضمن إيمانهم بالله وحده خير عميم يصل إليهم من ربهم؛ فيرسل عليهم المطر الغزير الذي يسقي زروعهم، ويحيى ثمارهم، ويشربون منه، ويزيدهم قوة إلى قوتهم، وينهاهم عن الإعراض عن عبادة الله والإصرار على إجرامهم.

يقول تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ (هود: ٥٠-٥٢).

ولكنهم لا يبالون، بل يتولون معرضين عنه؛ لأنهم لا يصدقونه، فليس معه دليل على ما يقول، وهم لن يتركوا آلهيتهم بسبب أقواله، ثم يصدرون حكمهم القاطع بأنهم لن يكونوا مؤمنين، ويزيدون على ذلك اتهامه بالجنون الذي سببه له بعض آلهتهم، فيرد هود على هذه الأباطيل بتصريح دامغ بأنه يُشهِد الله ويشهدهم على أنه برئ من آلهتهم، ويتحداهم جميعًا أن يكيدوا له ما استطاعوا من الكيد فلا يباليهم أدنى مبالات؛ فقد توكل على الله ربه وربهم الذي بيده ملكوت كل شيء ويهددهم بأنهم إذا أعرضوا عن دعوته، فقد أدى واجبه بإبلاغ رسالة ربه إليهم، وسوف يستخلف الله قومًا غيرهم، ولن يضروا الله أدنى ضرر، والله حفيظ على كل شيء وسوف يحفظني منكم ومن شرككم.

يقول تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ (الآيات: ٥٣-٥٧).

ثم يحين أمر الله بإهلاكهم، بعد أن استنفدت دعوة هود لهم كل جهد ممكن فينجي الله هودًا وأتباعه المؤمنين برحمته من العذاب الغليظ الذي حكم به عليهم، ولكنه لا يبين طبيعته، ثم يدمغ عادًا بأنهم كفروا بآيات ربهم، وعصوا رسله، واتبعوا أمر الجبارين المعاندين من رؤسائهم، فحقت لعنة الله عليهم في هذه الدنيا ويوم القيامة، ثم يعلن الله لكل العالمين أن عادًا كفروا ربهم فاستحقوا لعنته وطردهم من رحمته.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (الآيات: ٥٨-٦٠).

في سورة فصلت: (٦١):

وأما في سورة «فصلت» فتُذكر فيها «عاد» ولا يذكر هود؛ لأن المقام هنا مقام استكبار وعتوٌ واغترار بالقوة فيبين الله عاقبة الاغترار بالقوة الذي يؤدي دائمًا إلى إهلاك المغترين في أي زمان ومكان فالله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ فإن أعرض كفار قريش عن دعوتك فأنذرهم بأن صاعقة ستقع عليهم فتهلككم كما حدث لعاد وثمود الذين جاءتهم الرسل من كل جوانبهم داعين

إياهم ألا يعبدوا غير الله، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، وأعملوا فيهم كل حيلة دون فائدة، فقد رفضوا دعوتهم مدعين أن الله لو شاء أن يرسل رسلًا لمثل هذه الدعوة فلابد أن يكونوا ملائكة، ثم انتهوا إلى قرار حاسم وهو أنهم كافرون بكل ما أتت به رسلهم.

ثم فصل الله موقف عاد، فقد استكبروا وعلوا على خالقهم، وتباهوا بقوتهم ونفوا أن يكون على وجه الأرض قوم أشد منهم قوة ونسوا أن الله الذي خلقهم ومنحهم هذه القوة هو أشد منهم قوة، ولكنهم قوم جاحدون ينكرون آيات الله ودلائل عظمته.

فماذا كانت عاقبتهم؟ أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا- أي شديدة البرد وذات صوت- وقد استمر ذلك في أيام مشئومات عليهم، وذلك ليذيقهم الله العذاب المخزي في الحياة الدنيا، ويبقى أمامهم عذاب الآخرة وهو أشد وأخزى.

يقول الله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ (فصلت: ١٣-١٦)

وهكذا اقتصرت الآيات على ذكر استكبارهم وعنادهم، ثم بيـان العـذاب الذي حاق بهم.

في سورة الأحقاف: (٦٦):

ثم نصل إلى السورة التي فصلت العذاب الذي وقـع «بعـاد» وهـي سـورة الأحقاف- وهي السورة السادسة والستون- ولم يصرح فيها بذكر هـود، بـل كَنَتْ عنه فوصفته بأنه أخو عاد ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ أي من قبيلة عـاد- وبينـت أنه أنذر قومه بالأحقاف، وهذه هي المـرة الوحيـدة التـي يحـدد فيهـا مكـان إقامتهم، وهو الأحقاف، والأحقاف جمع حِقف- وهو رمل مستطيل مرتفع- وهي الكثبان الرملية- والأحقاف الآن رمـال هشـة شـديدة النعومـة بـالربع الخالي من المملكة العربية السعودية، وقد ثبت من دراسات الاستشعار عـن بعد بالطائرات والأقمار الصناعية وخاصة باستخدام الرادار أن هذه الكثبـان الرملية تتميز بوجود مياه جوفية أسفلها تكونت في العصور المطيـرة.. وكـان البشر يعيشون في جنة وارفة الظلال في أودية تعج بالماء والحيـاة، ثـم حـدث تغير في المناخ فانقطع المطر وجف الزرع، وماتت الحياة[١].

وبينت السورة أن إنذار عاد لقومه لم يكن أول إنذار للبشرية، بـل أرسـلت رسل من قبله إلى أقوام في كل مكان حولهم، ومضمون هذا الإنذار ألا تعبدوا إلا الله وحده وعاقبة العصيان العذاب العظيم، ولكنهم لم يبـالوا بإنـذاره، بـل

(١) عن الأهرام ص٢ بتاريخ ٣١/ ٥/ ١٩٩٧.

اعتبروه محاولة لصرفهم عن عبادة آلهتهم، وتحدوه أن يأتيهم بالعذاب الموعود إن كان صادقًا في ادعائه، فيرد عليهم هود بأن موعده في علم الله وحده، وما عليَّ إلا أن أبلغكم الرسالة التي كلفني الله إياها، ولكني أرى جهلكم واضحًا.

يقول تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ (الأحقاف: ٢١-٢٣)

كان القوم في فترة جفاف، وكانوا يتشوقون المطر، فلما رأوا سحابًا في السماء يتجه نحوهم استبشروا وقالوا في هذا السحاب المطر الذي نرجوه، فيرد عليهم هود- وكان يعلم أن عذابهم قد دنا موعده- بل هو العذاب الذي استعجلتم به: ريح تحمل في ثناياها عذابًا أليمًا مدمرًا لا يبقى ولا يذر بأمر الله سبحانه، وتسكت الآيات عن تفصيل ما حدث إرادة الإيجاز، وتكتفي بوصف الديار حينما جاء الصبح، لم يعد فيها شيء يرى إلا المساكن، أما البشر وأما الأنعام فأهلكت إهلاكًا، وذلك جزاء كل مجرم يجحد عبادة الله ودعوة الرسل.

ويلتفت الله إلى مشركي قريش ليستنبطوا العبرة من القصة، فهي لا تُقَصُّ لمجرد الحكاية، وأن ما حدث لهم هو مصير كل من تمرد على دعوة رسوله

مهما بلغت قوته فقوم عاد مكنهم الله في بلادهم وأرضهم كما مكنكم، وأعطاهم نعم السمع والبصر والعقل، فلم يفيدوا منها أية فائدة إذ كانوا يجحدون بآيات الله، فنزل بهم العذاب جزاء استهزائهم.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٤-٢٦).

في سورة الذاريات والحاقة:

لم يبق من السور التي تناولت أمر هود مع قومه إلا سورتان هما الذاريات والحاقة، وقد ألممنا إلمامًا موجزًا بالعذاب الذي نزل بهم.

فأما الذاريات (٦٧) فقد أوجَزت العَذاب الذي حل بهم في جملتين كثفت فيهما الإيحاء بفظاعة العذاب، فهو ريح عقيم لا تنزل المطر، ولا تخصب الأرض وهي لا تمر بشيء- مهما بلغت متانته- إلا جعلته حطامًا كالرمة البالية.

يقول الله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (الذاريات: ٤١-٤٢).

وأما الحاقة (٧٢) فقد ذكرت العذاب الذي أصاب قوم عاد، وهو الريح الصرصر - الشديدة البرودة - ذات الصوت المرعب، وقد أضافت هذه السورة شيئًا جديدًا وهو تحديد المدة التي استمرت فيها الريح المهلكة، فقد دامت سبع ليال وثمانية أيام دون انقطاع، وكانت لشدتها تفصل رءوس القوم عن أجسادهم، ثم تطرح الأجساد أرضًا وهي أجساد فارعة الطول، ضخمة البنيان، ولكن لم يعد فيها حياة فكأنهم في مرأى العين أصول نخل خاوية ملقاة على الأرض لا خير فيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦-٨)

وهكذا أحاطت هذه السور التسع بكل تفصيلات القصة، وبيان وجوه العبرة فيها، ولم يذكر هود صراحة إلا في ثلاث سور منها هي: الأعراف، والشعراء، وهود، وكنى عنه بأنه أخو عاد في سورة الأحقاف، ونلاحظ أن السور التي لم يذكر فيها هود كانت تركز على العذاب الذي حاق بهم، ولا تركز على رفضهم دعوة هود أو جداله معهم، وإنما قد توجز أحيانًا بعض ذلك.

وقد ورد ذكر ما يتميز به قوم عاد من قوة وثراء في السورة التالية: الفجر، الأعراف، الشعراء، هود، فصلت، كما فصلت سورة الأحقاف نزول العذاب بهم، وحددت مكان إقامتهم، وحددت سورة الحاقة المدة التي استغرقها العذاب.

❁❁❁

٤- صالح عليه السلام

قبيلة صالح هي قبيلة ثمود، وهي أيضًا قبيلة عربية- من قبائل العرب البائدة- كان مسكنها الحِجْر، بالقرب من وادي القرى في شبه الجزيرة العربية، وهي مساكن كانوا ينحتونها في الصخر، كما يحدثنا القرآن الكريم، ولأنها قبيلة عربية كعاد نجد قصتيهما مقترنتين في كثير من سور القرآن الكريم، ولم تنفرد إحداهما بذكر إلا «عاد» في سورة الأحقاف، وثمود، في سورة الشمس والنمل والحجر كما سنرى.

والسور التي ورد فيها الحديث عن ثمود هي على حسب ترتيب النزول: الفجر والشمس، والقمر، والأعراف، والشعراء، والنمل، وهود، والحجر، وفصلت، والذاريات، والحاقة، إلى جانب إشارات عابرة في سور أخرى، والسور المذكورة فيها القصة بعضها يوجز الحديث حتى يتحول في بعض السور كالفجر إلى إشارة مقتضبة ولكنها دالة، وبعضها يفصل القول، ويعرض جوانب القصة كلها، أو يركز على جانب واحد منها.

في سورة الفجر: (١٠):

فسورة الفجر تشير إلى ثمود، في معرض الحديث عن الطغاة الذين أهلكهم الله بظلمهم، وتبين مدى ما كانوا يتمتعون به من قوة، حتى إنهم كانوا

يقطعون الصخر من جبال وادي القرى ليبنوا بيوتهم.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (الفجر: ٦-٩).

في سورة الشمس: (٢٦):

وأما في سورة الشمس، فتشير الآيات إلى قصة عقر الناقة، ونلاحظ أن القرآن يوجز القصة في هذه السورة ولا يهتم بتفصيلاتها، بل يذكر أن ثمود كذبت رسول الله إليهم، بسبب طغيانهم، وقد بلغ التكذيب ذروته عندما أسرع أشقى رجل في القبيلة إلى الناقة ليعقرها فقال لهم رسول الله (صالح) احذروا أن تصيبوا الناقة التي أرسلها الله لتكون معجزة لي بسوء، واتركوا لها نصيبها من الماء فلم يمتثلوا أمره وكذبوه وتركوا أشقاهم يعقر الناقة، فأنزل الله عليهم العذاب، وهدم منازلهم فسواها بالأرض، والله قادر على تنفيذ عقابه فيمن يستحقه ولا يخشى عاقبة فهو القاهر فوق عباده.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[1] (الشمس: ١١-١٥).

ونلاحظ أن الله سبحانه لم يذكر اسم «صالح» واكتفى بوصفه: «رسول الله» كما نلاحظ أن الإيجاز في الآيات، والإشارات المقتضبة إلى أحداث القصة

---

(١) فدمدم عليهم: أطبق عليهم العذاب.

قد يوحي بعلم قريش ولو جزئيًا ببعض أخبار هذه القبيلة، إذ ليس من المنطقي أن يذكر لهم عبارات ليس لديهم أدنى معرفة بمدلولها.

في سورة القمر: (٣٧):

وتتقدم القصة خطوة أخرى كاشفة في سورة القمر، إذ تذكر سبب تكذيب ثمود لنبيهم بعدما جاءهم الإنذارات بأنه نبي وأن تكذيبه غايته وخيمة وهذا السبب هو أنه بشر، وبشر مفرد ليس معه آخرون يؤيدونه، وإذا كان من الممكن أن يرسل الله بشرًا، ويلقى عليه الوحي، فلماذا يختاره من دونهم إنهم لو اتبعوه لدلوا على ذهاب صوابهم، وجنونهم، بل إن صالحًا كذاب متكبر بَطِر، ويرد الله على هذا الوصف الذي وصفوا به صالحًا بأنهم هم الجديرون بالاتصاف به، وسيثبت لهم مستقبلًا صدق ذلك.

كذلك تذكر الآيات الناقة بتفصيل أكثر مما في سورة الشمس، فالله أرسلها اختبارًا ومحنة ليرى من يلتزم بتوجيهات نبيهم التي أوحاها الله إليه بشأن الناقة؛ وهي أن يقتسموا الماء مع الناقة لها يوم تشرب فيه وحدها لا يشاركها أحد منهم، ولهم يوم لا تشرب فيه الناقة، وطلب الله من صالح أن يترقب ويصبر ليرى ماذا يكون موقفهم، ولكنهم لم يلبثوا إلا قليلًا ثم أغروا صاحبهم ليخلصهم من الناقة، فتناول سيفه وعقر الناقة، ثم تختم الآيات بالاستفهام التعجبي من هول عذاب الله لهم وصدق إنذاره، هذا الاستفهام الذي يتكرر في هذه السورة، وبعده يصف الله ما حل بهم. إنها صيحة وحدة أرسلها الله

عليهم، فلم يستطع أحد منهم تحملها، فدمرتهم جميعًا، تحولوا إلى هشيم متكسر يشبه هشيم صاحب الحظيرة الذي تدوسه حيواناته في كل وقت فيتفتت.

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ (الآيات ٢٣-٣١)

هناك بعض ملاحظات:

أولها: أن هذه الناقة التي أرسلها الله إليهم لا يمكن أن تكون ناقة عادية، بل لابد أن يكون فيها شيء غير عادي جعلهم يخافون منها ويلتزمون بقسمة الماء بينهم وبينها فترة، ولو كانت قصيرة، ولكن ما هذا الشيء غير العادي فيها؟ قد يكون طريقة خروجها إليهم، قد يكون في صفاتها التي لا توجد في ناقة أخرى دنيوية، القرآن لم يهتم بذكر هذا.

وثانيها: أن الماء لابد أن يكون أعز شيء لديهم، وأن مصادره محدودة، حتى يتأثروا بمشاركة الناقة لهم فيه واقتسامه معهم، وهذا شيء طبيعي فمساكنهم في الجبال وليسوا على نهر.

ملاحظة أخيرة: وهي أن السور الثلاث المتقدمة لم تصرح بذكر اسم

«صالح» وإنما ذكرت القبيلة التي أرسل إليها، وهي قبيلة «ثمود» ربما يكون سر ذلك أن المراد تهديد مشركي قريش بذكر ما حل بالقبائل السابقة من عذاب لتذكيرهم بأن مثل هذا العذاب سيحل بهم لو استمروا في تكذيب محمد ﷺ، وهذا المعنى وإن كان ملحوظًا في جميع قصص الأنبياء بمن فيهم صالح فلا بأس أن يذكر اسم النبي أحيانًا، ويترك ذكره أحيانًا أخرى قصدًا إلى التركيز على المعنى المراد.

في سورة الأعراف: (٣٩):

ثم تأتي سورة الأعراف، فتذكر اسم النبي المرسل إليهم، وهو أخوهم صالح، ونلاحظ وصفه بأنه أخوهم، كما يتكرر مع كل الأنبياء، وذلك- كما قلنا- ليفيد أمرين:

١ - أنه واحد منهم ليس طارئًا عليهم.

٢ - أنه لا يطلب منهم إلا ما فيه خيرهم.

وقد بينت الآيات أن صالحًا دعا قومه إلى عبادة الله وحده وذكر لهم أنه جاءهم بمعجزة، آية دالة على صدقه، وهي الناقة وهذا يؤكد أن يخرج إليهم ناقة من صخرة عينوها، فخرجت لهم هذه الناقة[1] والله أعلم، وقد طلب إليهم صالح ألا يمَسُّوا الناقة بسوء وإلا أخذهم العذاب الأليم.

يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم

---

(١) انظر تفسير القرطبي وغيره.

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(الآية: ٧٣).

ثم يذكرهم صالح بما منَّ الله عليهم من نعم فقد جعلهم خلفاء في الأرض بعد هلاك قبيلة عاد، ولعل في ذكر عاد في هذا المقام تذكيرًا لهم بمصيرهم الذي لن يختلف عن مصير عاد إذا استمروا في عنادهم، كما يمتَنُّ عليهم بما صاروا فيه من تقدم ورقي، فهم يتخذون قصورًا في سهول الأرض، ولا يكتفون بذلك، بل ينحتون في الجبال بيوتًا يقال إنهم كانوا يسكنون القصور في الصيف، وبيوت الجبال في الشتاء، يكرر تذكيرهم بهذه النعم، وينهاهم عن الإفساد في الأرض فلا يعبئون بهذا النصح، ويتجهون إلى الضعفاء من المؤمنين مستهزئين متشككين يسألونهم: هل تعتقدون أن صالحًا رسول من عند الله، فيجيبونهم بإيمان وثقة بأنهم يؤمنون بكل ما أرسل به، فيلتفت هؤلاء المستكبرون إليهم في صلف وكبرياء قائلين: ونحن بما آمنتم به كافرون.

يقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ

ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾(الآيات: ٧٤-٧٦) .

ثم تمادى طغيانهم، فعقروا الناقة، وتمردوا على أمر الله، تحدوا صالحًا فقالوا له: ائتنا بما تهددنا به إن كنت رسولًا من عند الله حقًا، فنزل بهم العذاب الذي طلبوه، وهو الرجفة، وهي الزلزلة الشديدة، فإذا أضفنا إلى ذلك الصيحة التي وردت في سورة القمر اتضح لنا أن العذاب جاءهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم؛ فقد زلزلت بهم الأرض من تحتهم، وأخذتهم الصيحة من فوقهم، فأصبحوا جثثًا هامدة في ديارهم، فتركهم صالح معلنًا البراءة منهم، فقد أدى واجبه ينصحهم، ولكن عبَّر موقفهم منه عن كرههم لكل من ينصح لهم.

يقول تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(الآيات: ٧٧-٧٩).

والجديد في هذه الآيات ذكر اسم النبي المرسل إليهم وهو صالح، وذكر التقدم الحضاري الذي كانوا يعيشون فيه، وسَرد طرف من الحوار الذي دار بين المستكبرين الكافرين والمستضعفين المؤمنين، ثم تحدى صالح بأن يأتيهم بالعذاب الذي تَهَدَّدَهم به، وبيان طبيعة العذاب، وهو الرجفة أي الزلزلة الشديدة ولا تناقض بينها وبين الصيحة كما بينا.

في سورة الشعراء: (٤٧):

في سورة الشعراء تدور القصة على نفس المحاور السابقة، فهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ولكنهم يكذبونه فيأتي لهم بالناقة فيعقرونها فيأخذهم العذاب، ولكن هنا اختلاف في التعبير، وزيادة تفصيل في مدى ما كانوا يستمتعون به من خيرات، فالآيات تبدأ كما في كل قصص هذه السورة بالإخبار بأن ثمود كذبت المرسلين حينما كذبت رسولها صالحًا ويتكرر التعبير الذي ذكر من قبل في سرد قصص الأنبياء، وهو أن أخاهم صالحًا حثهم على تقوى الله، وبين لهم أنه رسول أمين، ودعاهم إلى تقوى الله، وطاعته فيما يدعوهم إليه، وبين لهم أنه لا يطلب منهم أجرًا على دعوته؛ لأنه ينتظر الأجر من الله رب العالمين، ثم تأخذ القصة خصوصيتها بعد ذلك، فيذكرهم بما أنعم الله عليهم به من وسائل الترف، ثم يلفتهم إلى أمر مهم نسوه في غمرة ما يحيطهم من خير ونعيم، فهل يظنون أن الله يتركهم إلى الأبد آمنين يعيشون بين الحدائق الغناء، والمياه الجارية والزروع والنخيل ذات الثمار اللطيفة اللينة، ومساكنهم التي ينحتونها في الجبال بَطِرين مستكبرين، ثم يكرر لهم الدعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله، وألا يطيعوا أمر المتمادين في كفرهم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (الآيات: ١٤١-١٥٢).

ولكنهم لا يجدون من قول يردون به على دعوته إلا حجة العاجز وهي اتهامه بأنه مسحور، وأنه ليس إلا بشرًا مثلهم، ويتحدونه طالبين منه الإتيان بمعجزة تنبئ عن صدقه، فيأتي لهم بالناقة، وذكر لهم- كما في سورة الفجر- أن الماء مشترك بينهم وبين الناقة، ولكن الآيات هنا تحدد طبيعة الشركة، فتبين أن للناقة يومًا تشرب فيه وحدها، ولهم جميعهم يوم يشربون فيه لا تشاركهم فيه الناقة ويضيف الله الناقة إلى ذاته- كما أضافها من قبل في سورة الشمس- ليبين مدى قدسيتها، ثم تصرح الآيات بنهيهم عن مسها بأي أذى وإلا حل بهم العذاب العظيم، ونلاحظ هنا أن إجابة تحديهم جاءت مقرونة بابتلائهم بمحنة اقتسام الماء بينهم وبين الناقة، وهو أمر شاق على نفوسهم كي يتبينوا أن تحديهم وقع ضرره عليهم، وأن إجابته ما هي إلا إنذار أخير بقرب حلول العذاب بهم، وقد أخفقوا في الاختبار فلم يصبروا على الناقة، وكيف يصبرون والإيمان لم يدخل قلوبهم، وظلوا على كفرهم ظلمًا وعُلُوًا، ولم يأبهوا لتحذير صالح لهم من عدم ترك الناقة وشأنها فعقروها، وقد ندموا بعد عقرها خشية نزول العذاب الذي توعدهم به صالح ولكن لات حين

مَندَم فأخذهم العذاب، ثم تختم القصة بالختام المتكرر في هذه السورة بأن في هذه القصة عظة، ولكن المشركين لا يتعظون، وأن الله مع عزته وقدرته رحيم لمن آمن به.

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (الآيات: ١٤١-١٥٢).

في سورة النمل: (٤٨):

وهي السورة التالية لسورة الشعراء، تذكر الآيات جوانب حديثة في قصة صالح مع قومه؛ فقد بينت أنهم قد قسموا إلى فريقين متخاصمين بشأن دعوته، وقد ذكرت قصة تآمرهم على صالح.

تبدأ الآيات برسالة صالح إلى ثمود، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده فآمن به فريق، وكفر به فريق، وكثر الجدال بينهم، وفهمهم من سياق الآيات أن قوم صالح طلبوا منه- هزوًا وسخرية- أن يعجل لهم العذاب، فيقول لهم صالح: لم تستعجلون بالعذاب، ولا تطلبون رحمة الله، هلا استغفرتم الله وآمنتم به كي يرحمكم، فيردون عليه بأنهم قد تشاءموا به وبمن معه من المؤمنين، ويبدو أنه قد صاحب هذه الدعوة أمر مكروه نزل بهم كجدب وقحط مثلًا، فيقول لهم

صالح: إن كل شيء يحدث إنما هو بإرادة الله، فمصدر ما يصيبكم من خير أو شر، قد كتبه الله عليكم، ولكن الحقيقة أنكم قوم فتنكم الشيطان بوسوسته.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (الآيات ٤٥-٤٧).

ثم تذكر الآيات قصة المؤامرة على صالح، وتحدد عدد المتآمرين، فقد كانوا تسعة يقيمون في المدينة مع صالح، ووصفتهم الآيات بأن شأنهم الذي لا شأن لهم غيره هو الإفساد في الأرض، وليست لديهم أية نية للإصلاح، وقد اجتمعوا وعقدوا العزم على مفاجأة صالح والمؤمنين به والغدر بهم ليلًا وأكدوا عزمهم بالقَسَم، ويبدو أن عشيرة صالح كان لهم بعض النفوذ، فخشى المتآمرون عاقبة فعلتهم فاتفقوا على أن يخبروا المسئولين عن المطالبة بدمه والأخذ بثأره مؤكدين لهم أنهم لم يشهدوا مقتله وإنهم لصادقون في قولهم هذا.

دبروا مكيدتهم، ولكن الله كان من فوق تدبيرهم، ومكره- أي إفساد مكر الماكرين- أعظم من مكرهم، وإن كانوا لا يعرفون ذلك لكفرهم، فتأمل يا محمد كيف كانت عاقبة مؤامراتهم، فقد عاجلهم الله بإهلاكهم وقومهم

الكافرين، فأصبحت بيوتهم خالية خربة بسبب ظلمهم، وإن للمتأملين في ذلك أعظم عظة وعبرة، وأما صالح وقومه المؤمنون به فقد أنجاهم الله بسبب إيمانهم وتقواهم.

يقول تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ (الآيات ٤٨-٥٣)

فهذه السورة انفردت بذكر المؤامرة لقتل صالح وفشلها، كما ذكرت انقسام القوم إلى فريقين متخاصمين بشأن دعوة صالح، ولكنها خلت من ذكر الناقة.

في سورة هود: (٥٢):

وفي سورة هود ذكر لقصة صالح لا تختلف كثيرًا في مضمونها عما سبق غير أنها تحدد موعد نزول العذاب بهم بعد عقرهم الناقة بثلاثة أيام.

تبدأ الآيات بذكر إرسال صالح إلى قومه ثمود، وتذكر أنه أخوهم كما سبق في غير هذا الموضع وتذكر دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده، مبينًا لهم فضل الله عليهم، فهو الذي خلقهم، وأوجدهم في الأرض ليعمروها، ويطلب منهم أن يستغفروا الله على جحودهم نعمه، ويتوبوا إليه، فإنه قريب منهم مجيب

لاستغفارهم.

فلا يعجبهم كلامه، ويعلنون له خيبة أملهم؛ فقد كانوا يرجونه قبل هذه الدعوة ليكون سيدًا فيهم، يسير في طريقهم، ويتبع نهجهم، ولكنه انحرف عن الطريق، وأتى بدعوة ما لهم بها عهد، ولم تكن عبادة آبائهم، ويسألونه مستنكرين: هل تنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا؟ إننا لنشك في أمرك وفي دعوتك، فيجيبهم صالح أن الله قد آتاه رحمة من عنده هي النبوة والرسالة ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده، فهل يصح أن يرفض هذه النعمة، ويعصى أمر الله؟ وإذا عصاه فمن يستطيع حمايته من عقاب الله؟ إنه لو اتبع هواهم لم يزدد إلا خسرانًا، ثم يذكر لهم معجزته، وهي ناقة الله التي أرسلها معجزة وابتلاء، ويطلب أن يتركوها تأكل في أرض الله كما تشاء، وعقروا الناقة، فأنذرهم صالح بعذاب يدمرهم بعد ثلاثة أيام، فليتمتعوا في دارهم ما شاءوا هذه الأيام الثلاثة، وإن وعد الله صادق، فلما نزل بهم العذاب نجَّى الله صالحًا والمؤمنين معه من العذاب المخزي المهين الذي حل بالكافرين من قومه وأرسل الصيحة على ثمود فأصبحوا جثثًا هامدة كأنهم لم يعيشوا في هذه الديار، ولم يُعمِّروها، ثم تختم الآيات بهذا التقريع والتوبيخ لكي يرتدع كفار العرب: إلا أن ثمود كفروا بربهم فسحقًا لهم وهلاكًا بسبب كفرهم.

يقول تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (الآيات: ٦١-٦٨).

ونلاحظ أن هذه الآيات لم تتحدث عن اقتسام الماء كما جاء في سورتي الشعراء والقمر، وحذت في ذلك حذو سورة الأعراف، ولكنها أضافت جديدًا هو نزول العذاب بهم بعد عقرهم الناقة بثلاثة أيام.

في سورة الحجر: (٥٤):

في هذه السورة إشارة مجملة عن ثمود، لم تذكُرها فيها باسمها، بل كَنَت عن ثمود بأصحاب الحِجر حيث كانت مساكنهم، وقد ذكرت الآيات أن أصحاب الحِجر كذبوا المرسلين، لأن تكذيبهم صالحًا يعتبر تكذيبًا لجميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة، كما جاء في سورة الشعراء من قبل، كما ذكرت أن الله أرسل إليهم الآيات الدالة على ألوهيته وقدرته- وعلى رأسها

الناقة التي كان في خروجها أمامهم من باطن صخرة كما يقول ابن عباس[١] معجزة أية معجزة [لم تذكر الآيات الناقة ولكنها تفهم من السياق فهي أعظم آيات صالح]، ولكنهم أعرضوا عن هذه المعجزة وغيرها وقد بلغ من تقدم أصحاب الحِجر أنهم كانوا ينقبون الجبال ويتخذون فيها بيوتًا لتكون وسيلة أمنهم وحمايتهم من المهالك، ولكنهم فوجئوا بالصيحة الشديدة تأخذهم من جميع أقطارهم صباحًا فتهلكهم، لم تغن عنهم قوتهم أو تقدمهم أو أموالهم شيئًا من بطش الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الآيات: ٨٠-٨٤).

ففي هذه الآيات من سورة الحِجر لمحة موجزة عن هلاك ثمود بسبب تكذيبهم نبيهم، وقد وردت بعد قصتي هلاكٍ لمكذبي الرسل، وهما: قوم لوط، وأصحاب الأيكة، فالقصص الثلاث تدور في فلك واحد، وينتظمها إطار العذاب الذي حل بالمكذبين ليتعظ بذلك كفار مكة، وفيها إشارة إلى أن هلاكهم كان صباحًا.

في سورة فصلت: (٦١):

وكذلك تَذْكُر آياتٌ في سورة فصلت لمحة عابرة عن ثمود في معرض إنذار

---

(١) انظر صفوة التفاسير.

الله لمشركي قريش- كما بينتُ في قصة عاد- فتشير إلى الصاعقة التي حلت بعاد وثمود، وبعد أن تبين ما حل بعاد تذكر ما حدث لثمود، فقد أرشدهم الله إلى طريق الهدى، فاختاروا طريق الضلال واتبعوه، فحل بهم العذاب المخزي المهين بسبب سوء أعمالهم، ونجّى الله المؤمنين المتقين،.

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

(الآيات: ١٧-١٨).

فالحديث هنا مجمل ولم يرد فيه ذكر صالح؛ لأن المقام مقام تهديد لقريش، فيذكر لهم هلاك المكذبين.

في سورتي الذاريات والحاقة: (٦٧، ٦٨):

وفي سورة الذاريات تذكر ثمود بإيجاز في معرض ذكر العذاب الذي حاق بالمكذبين لرسلهم، فتشير الآيات إلى إنذار ثمود بأن موعد عذابهم قد حان بعد عقرهم الناقة وليس أمامهم إلا فترة قصيرة، فليتمتعوا فيها قبل حلول العذاب- وقد حددت سورة هود هذه الفترة بثلاثة أيام- ولكن سورة الذاريات تركتها دون تحديد.

لم تأبه ثمود لهذا الإنذار، واستمروا في عتوهم واستكبارهم فنزل بهم العذاب في شكل صاعقة يشاهدونها بأعينهم وهي تهلكهم، فما استطاعوا حراكًا ولا وجدوا نصيرًا.

يقول تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ (الآيات ٤٣-٤٥)

وأما سورة الحاقة فقد أشارت في آيتين قصيرتين إلى مصرع ثمود بالطاغية وهي الصيحة المجاوزة للحد في شدتها بسبب تكذيبهم بيوم القيامة.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ (الآيتان ٤، ٥)

وبهذه السورة تنتهي قصة صالح في القرآن الكريم، وقد ذكرت في إحدى عشرة سورة مكية ذكرت ثمود صراحة في عشر منها، وكناية في واحدة فقط في الحِجر ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وأما صالح فقد ذكر صراحة في أربع سور فقط هي: الأعراف، والشعراء، والنمل، وهود، وأشير إليه بصفته «رسول الله» في سورة واحدة هي «الشمس» وبأنه بشر منهم في سورة «القمر» وأما السور الخمس الباقية فلم يُشَر إليه فيها وهي: الفجر، والحِجر، وفصلت، والذاريات، والحاقة.

كذلك ذكرت الناقة في خمس سور هي: الشمس، والقمر، والأعراف، والشعراء، وهود، أضيفت في أربع منها إلى لفظ الجلالة، وذكرت مجردة في سورة واحدة هي القمر.

وأشير إلى اقتسام الماء بين ثمود والناقة في سورتين هما: القمر والشعراء.

وقد عَبَّر عن العذاب الذي أصابهم بالصيحة في ثلاث سور هي القمر،

والحجر، وهود، وبالصاعقة في سورتين هما: فصلت والذاريات، وبالرحمة في سورة واحدة هي: الأعراف، وبالطاغية في سورة واحدة هـي: الحاقـة، وأمـا باقي السور فقد تحدثت عن العذاب والتدمير والدمدمة، ولا تناقض بـين أي من هذه الألفاظ، فكلها تشير إلى شدة العذاب.



٥- إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم خليل الله، وهو الأمة القانت الحنيف، وهو نبي الملة الإسلامية، وهو أبو الأنبياء.

وبكل هذه الصفات أتى القرآن الكريم:

خليل الله: يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ (النساء: ١٢٥).

الأمة القانت: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ (النحل: ١٢٠).

والأمة: هو الإمام والقدوة، والقانت: هو المطيع لله العابد، والحنيف: هو المائل عن كل دين باطل.

نبي الملة الإسلامية: والإسلام هو دين الله بعث به كل رسله وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩)، والإسلام هو إسلام الوجه لله والخضوع لأوامره ونواهيه.

وقد استجاب إبراهيم لأمر ربه... ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ

وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾(البقرة: ١٣١-١٣٣)

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾(النساء: ١٢٥)

وهو الذي دعا الله أن يهبه ذرية مسلمة في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾(البقرة: ١٢٨)

وهو الذي سمى أتباع محمدﷺ «المسلمين» يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾(الحج: ٧٨)

أبو الأنبياء: يقول الله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(الأنعام: ٨٤-٨٦).

وسنرى في سيرته وجهاده في سبيل الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ما جعله جديرًا بكل هذه الصفات.

قصة إبراهيم عليه السلام:

تدور قصة إبراهيم في القرآن الكريم على ثلاثة محاور: المحور الأول: يتناول جهاده في سبيل دعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة

الأصنام، والثاني: يتناول تبشيره بالولد، ثم أمره بذبحه بعد ذلك وفداءه، والثالث: إسكانه ابنه وزوجته في مكة، ثم أمره ببناء البيت الحرام وسأتناول كل محور على حدة، علمًا بأن هذه المحاور قد تتداخل في بعض السور.

المحور الأول:

ورد الحديث عن المحور الأول في السور التالية على حسب ترتيب نزولها: مريم، والشعراء، والأنعام، والصافات، والزخرف، والذاريات، والأنبياء، والعنكبوت، والممتحنة، والبقرة، والسور الثماني الأولى مكية، والسورتان الأخيرتان مدنيتان.

في سورة مريم: (٤٤):

ففي سورة مريم يدور حوار بين إبراهيم وأبيه، يستند فيه إبراهيم إلى الحُجة والمنطق، ويلجأ أبوه إلى التهديد والوعيد، فأما إبراهيم فيسأل أباه مستنكرًا كيف تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر، ولا يستطيع أن ينفعك بشيء، ويخبره أن الله أوحى إليه بحقيقة الأمر وهي أن المستحق للعبادة هو الله وحده، فعلم بذلك ما لم يعلمه أبوه فعليه أن يتبعه ويعبد الله وحده، ويكون في إتباعه إياه هداية له إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ثم يحذره من عبادة الشيطان- فكل عبادة من دون الله هي إرضاء للشيطان وطاعة له- لأن الشيطان تمرد على الله سبحانه وأعلن عصيانه منذ خلق آدم، ثم يبين له في رقة أنه يخاف عليه من عذاب الله، فيصبح من أنصار الشيطان وقرنائه في النار.

يقول تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ (الآيات: ٤١-٤٥).

لم يجد أبو إبراهيم جوابًا على هذه النصائح المهذبة إلا استنكارها وتوبيخ ابنه على انصرافه عن آلهتهم، وتهديده بالرجم، ثم يأمره بالابتعاد عنه وهجره زمنًا طويلًا، فيجيبه في رقة: «سلام عليك» ويعده بأن يستغفر له ربه لعله يهديه ويرحمه، فالله حَفيٌّ به فعسى أن يجيب دعاءه، ثم يعلمه أنه سيعتزله هو وقومه المُصِرّينَ على عبادة الآلهة، ويتركهم لعبادتها، ويتجه إلى عبادة ربه مؤمنًا بأنه لن يشقى بهذه العبادة، كما شقى عبادة الأصنام بأصنامهم.

يقول تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ (الآيات: ٤٦-٤٨).

وقد اقتصرت هذه السورة على محاورة إبراهيم لأبيه ومحاولة هدايته، ونلاحظ أن وعيد إبراهيم لأبيه بالاستغفار كان أملًا من إبراهيم في إيمانه، فلما أيقن من إصراره على الكفر كف عن الاستغفار له، وتبرأ منه كما تشير

الآية الكريمة في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤) ، وهذه الموعدة التي تشير إليها الآية هي وعده إياه بالاستغفار له في هذه الآيات من سورة مريم.

في سورة الشعراء: (٤٧):

وأما في سورة الشعراء فيوالي إبراهيم تبصير قومه بسبيل الرشاد ويُسَفِّه عبادة الأصنام، ويبين سبب استحقاق الله وحده العبادة، فيسألهم: ما الذي تبعدونه؟ هو يسأل متهكمًا ساخرًا وهم يظنونه مستفهمًا فيجيبونه: نعبد الأصنام، ونظل مقيمين على عبادتها طوال النهار، وكأنهم يتباهون بذلك، فيسأل السؤال المفحم: هل تسمعكم إذا توجهتم إليها بالدعاء؟ وهل تملك لكم نفعًا إذا عبدتموها أو ضرًا إذا انصرفتم عن عبادتها؟ فلا يجدون ما يجيبون به إلا الجواب الغبي الذي توارثوه عن الكفار السابقين في كل زمان ومكان، لقد وجدنا آباءنا يفعلون ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الآيات: ٦٩-٧٤).

فيعلن إبراهيم لهم في صراحة ووضوح أن كل الآلهة التي يعبدونها والتي عبدها آباؤهم الأولون- عدو له إلا الله رب الناس جميعًا، ويبين لهم سر

استحقاقه للعبادة، فهو الذي خلقه، ولم يتركه وحده، بل ظل يهديه إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي يقوته طوال حياته: فيطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو الذي يتكفل بشفائه، وأخيرًا فهو الذي يميته حين يحين أجله، ثم يبعثه يوم القيامة للحساب والجزاء، وهو الذي يطمع في عفوه وغفرانه ذنوبه في هذا اليوم.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ (الآيات: ٧٥-٨٢).

ولا ينسى إبراهيم بره بأبيه، وإشفاقه عليه، فيدعو له- مع دعائه لنفسه- قائلا: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الآية: ٨٦)، وهكذا بر إبراهيم بوعده لأبيه بالاستغفار له في سورة مريم.

في سورة الأنعام: (٥٥):

في هذه السورة يذكر الله عتاب إبراهيم لأبيه لاتخاذه الأصنام آلهة من دون الله، ثم يسفه هذا الموقف من أبيه ومن قومه فما هم إلا على خطأ واضح، وقد منَّ الله على إبراهيم، فأراه ملكوته في السموات والأرض، وأطلعه على دلائل عظمته وقدرته، فأراد أن يثبت لقومه مدى ما هم فيه من ضلال بعبادتهم غير الله، فانتظر حتى أظلم الليل ثم نظر إلى كوكب مضيء، فقال:

هذا ربي، ولكن ما لبث هذا الكوكب أن غاب لطلوع الفجر، فانصرف عنه محتقرًا إياه، فهو لا يحب الآلهة التي تتغير وتأفُل، ثم رأى القمر طالعًا مشرق الضوء، فقال: هذا ربي، ولكنه أَفَل أيضًا، فأعلن إبراهيم أنه في حيرة، ولن يهتدى إلا إذا هداه الله، ثم طلعت الشمس بضوئها الساطع، ونورها الوهَّاج، قال إبراهيم: هذا ربي هذا أكبر حجمًا من الربين السابقين الكوكب والقمر، ولكنها أَفَلَتْ مثلهما، فأعلن براءته من كل ما يعبده قومه من دون الله، بعد أن أراهم أفول آلهتهم التي يعبدونها، وغلبة عناصر طبيعية أخرى عليها، ثم أعلن أنه متوجه بعبادته إلى الله الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، ماثلًا عن كل ما سواه مما يعبدونه من أصنام وكواكب، ولن يكون أبدًا من المشركين.

ويجادله قومه في قراره هذا ويخوفونه غضب آلهتهم عليه، فلا يعبأ بهم، بل يسفه رأيهم، كيف يطلبون منه الانصراف عن عبادة الله، وقد هداه إلى الحق؟ وكيف يخوفونه من آلهتهم؟ إنه لا يخاف منها شيئًا؛ فهي لا تنفع ولا تضر، بينما هم لا يخافون الله العزيز القاهر، وقد أشركوا به آلهة أخرى دون دليل أو برهان، فأي الفريقين أحق بالأمن؟ الذي عبد القوي القادر النافع الضار، أم الذي عبد أحجارًا لا تضر ولا تنفع، واستجلب غضب الله عليه، الفريق المؤمن بالله هو وحده الآمن، وهو المهتدى.

يقول تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ

وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الآيات ٧٤-٨٢).

ففي هذه السورة اتجاه في الجدال مختلف عن جداله في السور السابقة، فهو هنا يتناول الكواكب والقمر والشمس ويلفت نظرهم إلى حقيقة واضحة لا ينبغي أن تغيب عنهم وهي أن الإله الحق لا يغيب ولا يختفي، ولا يطرأ عليه تغير ما، وقد تدرج إبراهيم في الاستدلال فبدأ بالصغير في نظر العين، ثم الكبير، ثم الأكبر كي لا يترك لهم حجة يجادلونه فيها، وقد اهتم إبراهيم بالكواكب، والنجوم؛ لأن قومه كانت لهم دراية بالفلك، وكانوا يعبدونها.

وهذه السورة هي الوحيدة التي ذكر فيها اسم أبي إبراهيم وهو «آزر» وقد

ثار خلاف بين المفسرين[1] حول هـذا الاسـم؛ لأنهـم وجـدوا اسـم أبيـه في التوراة تارح، فأخذوا يؤولون فمن قائل: إن «آزر» عمـه فهـو في منزلـة أبيـه، ومن قائل إن «آزر» لفظ ذم في لغتهم وتعني يا مخطئ، آخر يقول: «آزر» اسم صنم، وكأنه يقول لأبيه: أتعبد آزر؟ ولا أوافـق عـلى كـل هـذا ففـي رأيـي أن القرآن هو الحاكم، وهو المهيمن على ما سبقه من الكتب فإذا قـال: أبـوه آزر فهو آزر ولا جدال.

في سورة الصافات: (٥٦):

وتأتي سورة الصافات لتضيف جديدًا إلى هذه القصـة فقـد ذكـرت تكسـير إبراهيم للأصنام، ومحاولة قومه إحراقه، ونجاته من النار.

وقد بدأت الآيات ببيان أن إبراهيم من شيعة نوح، أي أنه يسير عـلى نهجـه في عبادة الله وحده، ثم تذكر الآيات أنه وجه قلبه إلى الله وهو سلبهم مـن كـل شك وانحراف، وتذكر أن إبراهيم سأل قومه عن عبادتهم وآلهتهم يتخذ ذلك وسيلته لبيان ضلالهم، لكـن الآيـات لا تـذكر جـوابهم؛ لأن السـؤال جوابـه واضح فلا ضرورة لذكره، ولاشك أن قومه أجابوا عن هذا السؤال كما ذكـر في سور أخرى، ويبادر إبراهيم بتسفيه رأيهم في هذه العبادة، عبـادة الأصـنام، التي هي أسوأ الكذب على الله، وأين غابت عن عقولهم العبادة الحقة، عبـادة الله رب العالمين، وكما يذكر المفسرون فإن قومه كانوا عـلى أهبـة الخـروج

---

(١) انظر تفسير القرطبي وغيره.

لاحتفال ما، وكانوا ينتظرون خروجه معهم ولكنه كان قد دبر أمرًا يريد تنفيذه في غيابهم، فاعتلَّ عليهم واعتذر عن عدم الخروج معهم، وأراد أن يقنعهم بقبول عذره، فنظر في النجوم ليبين لهم كأنه يستشيرها في الخروج أو المكث، وكانت تلك عادتهم في كل أمورهم: استشارة النجوم، ثم قال: إني سقيم لا أستطيع الخروج معكم كما أخبرتني النجوم بذلك، فتركوه وذهبوا إلى حفلهم.

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظۡرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ۝٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ (الآيات: ٨٣-٩٠)

خلا الجو لإبراهيم فبدأ ينفذ خطته، فمال في خفية إلى أصنامهم – وقد وضع أمامها طعام العيد – وسألها ساخرًا لماذا لا تأكل؟ فلم ترد بطبيعة الحال، فسألها: لماذا لا تنطق؟ ثم انهال عليها ضربًا بقوة فبلغ الخبر قومه فأقبلوا مسرعين، ففاجأهم بهذا السؤال الساخر المستنكر: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (الآيات: ٩٥-٩٦)، كيف يسوغ لعقولكم، وتستريح إليه ضمائركم أن تنحتوا بأيديكم من الحجارة أصنامًا ثم تعبدونها، والله هو خالقكم وخالق هذه الأصنام التي صنعتموها، لم يناقشوا منطقه السليم، ولم يجادلوا حجته الواضحة بل قرروا إحراقه بالنار، ليست أي نار، بل نار تُعدُّ وتُهيَّأ ويبنى له بنيان يُملأ نارًا متأججة ويلقى فيها، ولكن

الله أبطل كيدهم، وجعلهم من المقهورين المغلوبين، ونجَّى إبراهيم من النار فخرج سالمًا يذهب في طريق ربه الذي سيهديه.

يقول تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[1] (الآيات: ٩١-٩٩).

فهذه الآيات لم تذكر الحوار الذي دار بينه وبين قومه عندما رأوا أصنامهم مكسَّرة، وتركت ذلك لسورة أخرى هي الأنبياء كما سنرى.

سورة الزخرف:

وقبل أن نتناول ما جاء في سورة الأنبياء، هناك آيات ثلاث في سورة الزخرف التي تسبق الأنبياء في الترتيب- ترتيب النزول- تشير هذه الآيات إلى تبرؤ إبراهيم مما يعبده أبوه وقومه، لكنه لن يعبد إلا الله الذي خلقه وهو هاديه إلى عبادته وحده، وقد جعل إبراهيم هذه الكلمة كلمة التوحيد باقية في خَلَفِه من بعده.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(الآيات: ٢٦-٢٨)

---

(١) يزفون: يسرعون.

سورة الممتحنة:

كما ورد مضمون الآيات السابقة- مضمون البراءة من قومه وعبادتهم في سورة الممتحنة ولكن في معرض آخر، هو معرض حث المسلمين أن يتبرءوا من الكفار من قومهم.

يقول تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (الآية: ٤).

في سورة الأنبياء:

ولكن في سورة الأنبياء تفصيل شامل لحواره مع قومه، لبيان ضلالهم، ولتكسيره الأصنام وجداله قومه جدالًا مفحمًا حولها، ثم محاولة إحراقه ونجاته.

يبين الله في أول الآيات فضله على إبراهيم؛ فهو أعطاه النبوة لِمَا عرف فيه من رجاحة العقل واستقامة الطريقة، ثم يذكر جدال إبراهيم لأبيه وقومه في عبادة الأصنام: بدأ إبراهيم بسؤاله الاستنكاري عن هذه الأصنام التي يعكفون على عبادتها، وهي تماثيل نحتوها بأيديهم فلا يجدون جوابًا مقنعًا بل يقولون: لقد وجدنا آباءنا يعبدونها من قبل، فيجيبهم بالحكم الدامغ: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الآية: ٥٤) فيتهكمون عليه: أما تقوله حق أم أنك تهزل وتلهو؟ فيقول لهم بكل جد: إن ربكم هو رب السماء

والأرض الذي خلقهن، وأنا أشهد على ذلك بإيماني ويقيني، ثم يقسم- في نفسه- بأنه لابد أن يحطم الأصنام بعد أن ينصرفوا عنه إلى شأنهم- وحطمها لما ولوا منصرفين عنه، وجعلها قطعًا صغيرة ولكنه ترك كبير الأصنام سالمًا ليرجعوا إليه بالسؤال عند عودتهم، ويستطيع بذلك إحراجهم وإفحامهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (الآيات: ٥١-٥٨).

عاد القوم فوجدوا أصنامهم محطمة، فتساءلوا فيما بينهم: من فعل هذا؟ إن من فعله ظالم لهم ولآلهتهم، فقال بعضهم: إننا سمعنا شابًا يعيبها دائمًا اسمه: إبراهيم، فطلبوا استدعاءه ليحاكموه علنًا على رءوس الأشهاد، فجيء بإبراهيم وسألوه: من فعل هذا؟ أأنت فعلته يا إبراهيم؟ وواضح أن هذا السؤال ليس سؤالًا عاديًا، بل هو سؤال يحمل في طياته اتهامه لذلك أجابهم بأن الذي فعله هو كبيرهم، وهكذا اتضح سبب ترك كبيرهم سالمًا ليحملهم على الإذعان بعجز آلهتهم عن حماية أنفسها ولذلك طلب منهم أن يسألوا الآلهة المحطمة لتجيبهم أن كانت قادرة على النطق، وفي لحظة خاطفة أحسوا

بصدق منطقه، فقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون باتباع هذه الآلهة العاجزة ولكن سرعان ما سيطر عليهم عمى قلوبهم، فأجابوه: لقد علمت عجزها عن النطق، وهنا سنحت الفرصة التي دبر لها إبراهيم فقال لهم: أفتعبدون آلهة عاجزة لا تنفع ولا تضر، بل تعجز عن حماية نفسها ما أشد ضيقي بتفكيركم وبآلهتكم التي تعبدونها من دون الله، أليس لكم عقول تفكر وتعرف الحقيقة الواضحة وضوح الشمس، ولكن هيهات فقد طبع الله على قلوبهم، وغلبت عليهم شقوتهم فأمروا بإحراقه انتصارًا لآلهتهم، وأشعلوا له النار العظيمة ليلقوه فيها- لم تتحدث الآيات عن تأجيجهم النار لإحراقه كما بينت في سورة الصافات – واكتفت بالأمر الإلهي الذي صدر إلى النار لتكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، لقد أراد الكافرون المكر بإبراهيم وإهلاكه، ولكن الله أبطل كيدهم، وأنزل بهم الخسران، ثم نجى الله إبراهيم ولوطًا ابن أخيه الذي آمن به، وذهبا آمنين إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام.

يقول تعالى: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا

تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾

(الآيات: ٥٩-٧١).

فآيات سورة الأنبياء اهتمت بتفصيل الحوار بينه وبين قومه بشأن عبادة الأصنام، ثم بشأن تكسيرها ولكنها أوجزت في الإعداد لحرقه بل لم تشر إلا إلى الأمر بإحراقه على عكس سورة الصافات التي لم تهتم بذكر الحوار بينه وبين قومه، بل اكتفت بتوبيخ إبراهيم لهم بعد تكسيرها، ولكنها ذكرت الأمر بإعداد نار عظيمة لإحراقه، ولم تذكر كيفية نجاته التي ذكرتها سورة الأنبياء.

في سورة البقرة:

وأخيرًا في سورة البقرة، وهي السورة المدنية الوحيدة التي ورد فيها ذكر لهذا المحور- نرى لونًا من ألوان الحِجاج الذي كان يدور بين إبراهيم وبين الكفار، فهذا ملك متجبر ينكر أن يكون هناك إله غيره، ويعجب أن يعبد إبراهيم إلهًا يَدَّعى أنه هو الله الحق، ولا إله معه، فيجادل إبراهيم في ذلك، ويرد إبراهيم مبرهنًا على قدر الله وتفرده بالألوهية، فيذكر له مظهرًا من مظاهر قدرته وهو الإحياء والإماتة، فالله هو الذي يوجد الخلق جميعًا، ثم يميتهم عندما يحين أجلهم، فيتبجح الملك قائلًا: وأنا أحيي وأميت، ومفهوم من هذا أنه يقصد أنه يقتل من يشاء، فهو إذن مميت له، ويعفو عمن يستحق القتل فقد أحياه، لا يجادله إبراهيم في هذا، بل يذكر له مظهرًا آخر مفحمًا، تعجز

قدرة البشر عن فعله وهو أن الله يجعل الشمس تطلع من الشرق، ثم تغيب في الغرب، فليفعل الملك عكس ذلك إن كان إلهًا، فيجعل الشمس تطلع من الغرب وتغيب في الشرق، فبهت الملك الكافر ولم يجد جوابًا.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الآية: ٢٥٨).

ونلاحظ في هذه الآية أن العبادة لغير الله في عهد إبراهيم لم تكن هذه المرة للأصنام، بل لملك مغرور يزعم نفسه إلهًا، ويدعو الناس إلى عبادته، ويتبجح بقدرته التي أتاحها له تملكه، ولنتأمل التعبير القرآني ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ ففيه أولًا: أن الملك لم يصل إليه بسبب قدرة خارقة له، أو موهبة ذاتية، بل هو عطية من الله أعطاها إياه، ليبتليه أيشكر أم يكفر وفيه ثانيًا: أن المُلْك سبب للأشر والبطر عند كثير من الناس.

المحور الثاني:

هو البشرى لإبراهيم بولد يولد له، وإخباره بإهلاك قوم لوط، وقد ورد في السور التالية على حسب ترتيب نزولها: هود (٥٢) والحج (٥٤)، والذاريات (٦٧)، والعنكبوت (٨٥)، والآيات الدالة على ذلك متشابهة في مضمونها، وإن كانت تختلف في بعض التفصيلات.

في سورة هود: (٥٢):

تتحدث الآيات في هذه السور عن إرسال رسل الله- وهم الملائكة- إلى إبراهيم في صورة بشرية، ظنهم في أول الأمر ضيوفًا، فبعد أن بادلهم التحية أسرع إلى أهله ليعدوا لهم طعامًا، ثم جاءهم بعجل مشوي، ووضعه بين أيديهم ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام، فلما رأى إبراهيم ذلك استنكره وأحس بالخوف منهم؛ فالضيف الذي لا يقرب طعام مضيفه يثير الشك في نفسه، فلعله ينوى به شرًا، ولكنهم بادروا إلى طمأنته، وأخبروه أنهم رسل من الله إلى قوم لوط لإنزال العذاب بهم، وكانت امرأة إبراهيم قائمة بالقرب منهم، فلما سمعت ذلك منهم ضحكت – ولعل ضحكها كان فرحًا لهلاك القوم الظالمين وإنقاذ لوط منهم- فبشرها الملائكة بإكرام الله لها، فهي ستلد إسحاق ثم ترى ابنه يعقوب من بعده، اعترتها دهشة وعجب عبرت عنهما باستفهام تعجب: كيف ألد وأنا عجوز وزوجي هرم فبين لها الملائكة أنها لا يحق لها أن تعجب من قدرة الله، فهو قادر على كل شيء يريده، ثم دعوا لها ولزوجها بالرحمة والبركة لما أنجلى عن إبراهيم الخوف من الملائكة لعدم أكلهم طعامه وجاءته بشراهم بالولد، أخذ يجادل الملائكة في شأن إهلاك قوم لوط إشفاقًا على مَن بينهم من المؤمنين، أو طمعًا في إيمان بعض الكافرين، وما ذلك إلا لما يتصف به من الحلم وكثرة الرجوع إلى الله، فتنهاه الملائكة عن الشفاعة لهؤلاء القوم؛ لأن أمر الله قد نفذ بشأنهم، وأمر الله إذا أتى لا يمكن رده.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[١] (الآيات: ٦٩-٧٦)

في سورة الحجر: (٥٤):

وأما في سورة الحجر فتوجز القصة، فحينما جاء الضيوف من الملائكة وألقوا عليه السلام لم تذكر الآيات رده عليهم، ولا ذهابه لإحضار الطعام لهم، بل جاوزت هذا وذكرت نتيجة امتناعهم عن تناول طعامه، وهو إخبار إبراهيم إياهم بخوفه منهم- وهو لون من ألوان البلاغة يستخدمه القرآن كثيرًا قصدًا إلى الهدف المنشود، ويسميه البلاغيون إيجاز الحذف؛ لأنه قد حذف بعض جمل، وكان الكلام هو: فقال لهم سلام وذهب إلى أهله وأحضر لهم عجلًا مشويًا لم يأكلوا منه، وهذا الأسلوب القرآني يرد في بعض الأحيان ليثير في نفس القارئ التأمل والانتباه ويدفعه إلى التفكير- طمأنه الملائكة وأخبروه

(١) حنيذ: مشوي.

أنهم جاءوا ليبشروه بغلام عليم يولد له، يدهش إبراهيم ويستنكر هذه البشرى، فيذكر - في أسى - إن هذه البشرى تُذكِّره بشيخوخته وهرمه، فكأنهم قد جاءوا ليبشروه بهذه الشيخوخة، يجيبه الملائكة في حسم - لقد بشرناك بالحق، فلا تيأس من روح الله فينفي عن نفسه هذه التهمة مبينًا أنه مؤمن بالله فلا يمكن أن ييأس من رحمته، وإنما الذي يفعل ذلك هو الكافر الضال عن طريق الحق.

يقول تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الآيات: ٥١-٥٦)

بعد ذلك يسأل الملائكة عن شأنهم، فقد فهم من أمرهم أنهم ذاهبون في شأن هام آخر وأنهم عرجوا عليه لإهدائه هذه البشرى، أجابوه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم مجرمين، وأنه لن ينجو منهم أحد إلا لوط وأهله ماعدا امرأته فإن مصيرها مصير قومها لأنها على دينهم.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الآيات: ٥٧-٦٠).

نلاحظ في هذه الآيات أيضًا الإيجاز القرآني البليغ، فالملائكة يقولون:

إنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين، ولكنها لم تـذكر مضـمون هـذه الرسـالة وكـان مقتضى الكلام العادي أن يقولوا لنهلكهم مثلًا، ولكن الكلام البليغ يلجـأ إلى الإيجاز تاركًا الذهن يلتقط هذا المعنى ممـا في الآيـات مـن إيحـاءات، فقـد وصفهم بأنهم مجرمون، كما ذكر بعد ذلك إنجاء آل لوط من مصيرهم، ففهم أن عذابًا شديدًا سيحل بهم، وإن كانت الآيات بينت بعد ذلـك نـوع العـذاب الذي حل بهم كما سنرى في قصة لوط.

وإذا قارنَّا بين القصة في سورة «الحجر» وبينها في سورة «هـود» نجـد- إلى جانب الإيجاز في تقديم القِرَى للضيوف في هذه السورة:

١- أن امرأة إبراهيم لم تذكر في هذه السورة كما ذكرت في سورة «هود».

٢- أن المتعجب في سورة «الحجر» هو إبراهيم، بينما كانت امرأتـه هـي المتعجبة في سورة «هود» ومعنى ذلك أن كليهما تعجب للبشرى واكتفت كل سورة بذكر أحدهما إيجازًا.

٣- لم تذكر هذه السورة مجادلة إبراهيم للملائكة في شأن إهلاك قوم لوط كما لم تصرح بذكر العذاب الذي سـيحل بهـم بينمـا ذكـر الأمـران في سـورة «هود».

٤- لم يذكر هنا اسم الغلام، واكتفى بوصفه بالعلم، بينما ذكر اسمه واسم ابنه في سورة «هود».

في سورة الصافات: (٥٦):

في هذه السورة تذكر البشرى في إيجاز لا يتجاوز ثلاث كلمات، ولكنها تنتقل إلى أمر خطير لم يذكر إلا في هذه السورة وهو الأمر بذبح ابنه المبشر به، فحينما نجى الله إبراهيم من النار- كما ورد في هذه السورة- دعا الله أن يهبه ابنًا صالحًا، فبشره بغلام حليم، فلما وصل الغلام إلى سن تمكنه من السعي مع أبيه في حاجاته ومشاركته في العمل، أوحى الله إلى إبراهيم- عن طريق الرؤيا المنامية- أن يذبح ابنه هذا، ابتلاء من الله واختبارًا لقوة إيمانهما، وانقيادهما لأمر الله، ونجح إبراهيم وابنه كلاهما في الاختبار، فالأب يخبر ابنه بفحوى رؤياه ليرى مدى استجابته لأمر الله، وليشركه معه في هذا الأمر الجلل كي لا يفاجأ الابن بأن أباه يريد قتله دون سبب، ولكن كان إيمان الابن في قوة إيمان الأب، فيطلب من أبيه أن ينصاع لأمر الله، ويطمئنه أنه سيكون- إن شاء الله- من الصابرين على هذا البلاء.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الآيات: ٩٩-١٠٢).

أخذ إبراهيم في تنفيذ الأمر الإلهي، فأرقد الابن على وجهه كي لا يواجهه، فيحس نحوه بالشفقة، فيتردد في تنفيذ أمر ربه، ولما همَّ بذبحه ناداه الله

سبحانه وتعالى: لقد نفذت ما أُمرت به، وحققت الاختبار الصعب وفدينا ابنك بكبش عظيم يذبح بدل ابنك وتتحقق الرؤيا بذلك وهذه مجازاتنا لكل محسن في إيمانه وانقياده لنا، وإبراهيم كان محسنًا ومن عبادنا المؤمنين، وقد ترك الله له ذكرًا باقيًا في الأمم الآتية، وسلام الله عليه وتحيته له.

وقد بشر الله بعد ذلك بإسحاق، وجعله نبيًا من الصالحين، وبارك عليه وعلى إسحاق وأخبر أنه سيكون من ذريتهما من يسير على نهجهما في الإحسان والصلاح، ومنهم من يظلم نفسه بالكفر وجحود نعمة الله.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾

(الآيات: ١٠٣-١١٣)

من الذبيح؟ لم تصرح الآيات باسمه، لذلك اختلف المفسرون، فقال بعضهم: إنه إسحاق، وقال الجمهور: إنه إسماعيل، ويؤيد القول بأن إسماعيل هو الذبيح الآيات التي ذكرت أنه من الجوائز التي منحها الله لإبراهيم: تبشيره بإسحاق يولد له ويكون نبيًا من الصالحين، فنسق التعبير يقتضي أن إسحاق ولد بعد الأمر بذبح إسماعيل، ودليل آخر على أن الذبيح

ليس إسحاق هو أن البشرى جاءت في سورة «هود» بالابن إسحاق والحفيد يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق قبل أن يولد يعقوب.

ولعلي أضيف أن صفة الغلام في هذه الآية هي «الحلم» بينما صفة إسحاق في سورتي الحجر والذاريات- التي ستأتي عقب هذه – هي العلم فهذا يرجع اختلاف الغلامين.

في سورة الذاريات (٦٧):

ثم تأتي سورة الذاريات لتفصل القصة كما في سورة «هود» مع اختلاف قليل، فالآيات تبدأ بسؤال الرسول ﷺ: هل سمع عن حديث ضيف إبراهيم المكرمين، ثم تبدأ في سرد قصتهم، فقد دخلوا عليه، وسلموا فرد عليه السلام وقال: «إنكم قوم منكرون» ربما قال ذلك في نفسه ولم يطلعهم عليه، وإلا كانوا أخبروه بحقيقة أمرهم، ولم يتجشم عناء إعداد الطعام، ولعله أنكرهم لسبب بدا له غريبًا فيهم، أو أنكر وقت مجيئهم، أو طريقة دخولهم، ولكنه لم يلبث أن ذهب إلى أهله في سرعة وخفية كي لا يشعروا أنه يتكلف لهم شيئًا، ثم قدم لهم عجلًا سمينًا- وقد عرفنا في سورة «هود» أنه مشوي، ولا تعارض بين الأمرين فهو عجل سمين مشوي- ولكنهم لم يقربوه، فحثهم على الأكل، فلما امتنعوا أحس الخوف في نفسه، فطمأنوه وأخبروه أنهم جاءوا ليبشروه بغلام متصف بالعلم الغزير.

ثم أقبلت امرأته لما سمعت قول الملائكة بشأن البشرى بغلام سيولد لهما- وهي تصيح وتلطم وجهها وتقول: إنها عجوز عاقر فكيف تلد؟

ولكنهم يحسمون الأمر قائلين: إن هذا القول من الله وهو الحكيم الذي يضع الأمور في نصابها، والعليم بكل شيء يحدث.

ثم يسأل إبراهيم السؤال الذي سأله في سورة الحجر من قبل، فهو يسألهم عن شأنهم، فيقولون أنهم ذاهبون إلى قوم مجرمين لإهلاكهم.

يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ (الآيات: ٢٤-٣٣).

وإذا تأملنا ما ورد في هذه السورة، وقارناه بما ورد في سورة الحجر لاحظنا أن السورة- سورة الذاريات- ذكرت رد إبراهيم السلام، وأتبعه بوصف القوم بأنهم منكرون، وأنها اتفقت مع «الحجر» في عدم ذكر اسم الغلام أو الحفيد الذي ذكرته في سورة «هود»، ولكن سورة «الذاريات» تضيف شيئًا جديدًا لم يرد في سورة «هود» وهو ذكر تعبير امرأة إبراهيم عن دهشتها لدى سماع البشرى بالقول والفعل، فقد أقبلت صائحة، ولطمت وجهها، ثم قالت: «عجوز عقيم» وفي سورة «هود» تعجب الملائكة من دهشتها، ودعوا لها ولزوجها بالرحمة والبركات مع وصف الله سبحانه باستحقاق الحمد

والمجد وفي هذه السورة اكتفوا بالقول إن هذا قول الله الحكيم العليم.

في سورة العنكبوت (٨٥):

وهي آخر سورة، ورد فيها ذكر لهذا المحور، وقد ذكر فيها بإيجاز:

تقول آياتها المعبرة عن هذه البشرى: إنه عندما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى- ولم تذكر ما هذه البشرى- بل بادر الملائكة إبراهيم بأنهم مرسلون لإهلاك أهل هذه القرية- التي يعرفها إبراهيم – بسبب ظلمهم، فيقول لهم إبراهيم مشفقًا ومنبهًا: «إن فيه لوطًا» وكأنه خشي أن يهلك معهم فيطمئنونه قائلين: إننا أدرى بمن فيها وسننجي لوطًا وأهله إلا امرأته فمصيرها مصير قومها لأنها منهم.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

(الآيتان: ٣١-٣٢).

فهذه الآيات أوجزت أمر البشرى إيجازًا لم يحدث في أي من السور، ربما لأن الأهم في هذا الموضوع التركيز على إهلاك قوم لوط.

المحور الثالث:

وهو يدور حول إسكان إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه في مكة، وأمر الله ببناء البيت وقد ورد في ثلاث سور: واحدة مكية وهي إبراهيم، واثنتان مدنيتان وهما: البقرة والحج.

في سورة إبراهيم (٧٢):

في سورة إبراهيم نفهم من سياق الآيات أن إبراهيم أسكن بعض ذريته في مكة التي لم يذكر اسمها، وإنما وصفها بأنها واد غير ذي زرع، وقد عرفنا أنها مكة لقوله: «عند بيتك المحرم» وجاءت الآيات كلها في صورة تضرع وتوسل من إبراهيم لربه، فهو – أولًا- يدعو الله أن يجعل هذا البلد- وهو سكة- بلدًا آمنًا، فالأمن أهم دعامة لكي تقوم الحياة المستقرة في مجتمع من المجتمعات وبدونه لن يستقر حال المجتمع حتى لو كان ينعم بأعظم قدر من الرخاء، فلا جرم جعله إبراهيم مفتتح دعائه ولكن الأمن دون الإيمان بالله الواحد لن يكون له قيمة، فالإنسان ليس حيوانًا لا يهتم إلا بالأمور المادية، بل لابد أن تطمئن نفسه، وتأمن روحه، ولذا دعا ربه أن يجنبه وأبناءه عبادة الأصنام، تلك الأصنام التي أضلت كثيرًا من الناس.

وتبدو رقة إبراهيم وشفقته فيما شفع به دعاءه بعد ذلك بأن الذين يتبعونه في عبادة الله وحده فهم من حزبه، وأما العصاة فلم يلعنهم ولم يسأل الله تعذيبهم، بل ترك أمرهم لله الذي وصفه بأنه هو الغفور الرحيم، إشارة إلى أنه يرجو من الله لهم المغفرة والرحمة.

ثم يتحدث عن أنه أسكن ذريته بواد قاحل قفر لا زرع فيه ولا ماء وقد نعجب لاختيار إبراهيم لهذا المكان القفر، ولكن يزول عجبنا بقراءة العبارة التالية: «عند بيتك المحرم» فهو قد وضعهم في جوار بيت الله ليقيموا الصلاة،

فلن يضيعهم الله، ولكنه يريد لهم الإيناس والعيش في مجتمع كطبيعة الإنسان أي إنسان، لذا يدعو الله أن يجعل قلوب بعض الناس تميل إليهم فتزورهم، وتقيم معهم، كما دعاه أن يرزقهم من الثمرات رجاء أن يشكروه على نعمائه، ونلاحظ أن إبراهيم قدم الدعاء بإيناسهم قبل رزقهم، لأن الطبيعة الإنسانية تهفو إلى أن تعيش في مجتمع، ثم إن الرزق لن يأتي إلا بوجود مجتمع وتعاون الناس فيما بينهم على جلب الرزق.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (الآيات: ٣٥-٣٧)

ويستمر تضرع إبراهيم فهو يقرر- أولًا- أن الله يعلم ما يخفونه وما يعلنونه وأنه لا يمكن أن يخفى على الله شيء في الأرض أو في السماء، ثم يحمد الله بعد ذلك على أنه رزقه- بعدما كبرت سنه- بإسماعيل وإسحاق ثم يدعو أن يوفقه الله وذريته لإقامة الصلاة، وأن يتقبل دعاءه، وأخيرًا يختم توسلاته بأن يغفر الله له ولوالديه وللمؤمنين ذنوبهم يوم يبعث الناس للحساب يوم القيامة.

يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ (الآيات: ٣٨-٤١).

وسنعرف أن ذكر إسكان إبراهيم لذريته في هذا الوادي لم يرد إلا في هذه الآيات، كما لم تصرح الآيات بمن كانوا ذريته، ولم تذكر سبب ترحيل إبراهيم لهم إلى هذا البلد، مع إيماننا بأن إبراهيم لم يفعل ذلك إلا بوحي من الله لبناء البيت، وتطهيره لعبادة الله وحده، فقد مهد الله لذلك بأن يكون حول البيت الذي لم يبن بعد أسرة مقيمة مستقرة فيتم البناء بجهودها، ويأتي الناس ليقيموا معهم حوله، فليس من المعقول أن يطلب الله من إبراهيم أن يذهب إلى هذا المكان ليبني الكعبة ثم يتركها ويعود.

يرد على الذهن سؤال: متى توجه إبراهيم بهذا الدعاء إلى الله؟ هل دعاه عندما ترك ذريته في هذا المكان عند هجرتهم، أو دعاه بعدما بنى الكعبة؟ نسق التعبير يقتضي أن يكون ذلك بعدما بنيت الكعبة، فقد قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ولا يمنع المجاز اللغوي أن يكون هذا الدعاء عند بداية إقامتهم وهو المناسب لمقتضى الحال، ويكون قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ باعتبار ما سيكون، والله أعلم أي ذلك كان.

في سورة البقرة (٨٧):

في هذه السورة- وهي مدنية- تذكر الآيات أن الله اختبر إبراهيم بكلمات-

هي أوامر ونواه وتوجيهات- التزم بها وأداها على خير وجه وأتمه، وقال له سأجعلك إمامًا للناس يقتدون بك، ويهتدون بأفعالك، فسأل إبراهيم هل ستمتد هذه الإمامة في ذريته؟ فأخبره الله أن هذه الإمامة لن ينال شرفها الظالمون من ذريته، ويفهم من هذا أن الصالحين من ذريته ينالهم هذا الشرف- وهذا من إيجاز القرآن البليغ- وقد تحقق هذا الأمر في ذريته فنال شرف الإمامة كثير من ذريته بعده، وهم المختارون من صفوة هذه الذرية، وكان أفضلهم محمد ﷺ.

ثم تتحدث الآيات عن البيت – أي الكعبة- فتصفه بأن الله جعله ملاذ الناس وملجأهم وموضع أمنهم، ويدعو زوار البيت على مدى الزمان- أن يصلوا في مقام إبراهيم تكريمًا له.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن بناء البيت، فالله قد عهد إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة البيت، وتطهيره من كل شائبة شرك، ليطوف حوله الطائفون، ويعتكف فيه المعتكفون، ويصلي فيه المصلون.

يقول تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الآيتان: ١٢٤-١٢٥).

ويدعو إبراهيم ربه مثل دعائه السابق في سورة إبراهيم أن يجعل هذا

المكان بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهله من الثمرات المتنوعة، والمراد بها كل ما تخرج الأرض، ويخشى إبراهيم أن يكون قد تجاوز في هذا الطلب، فيبادر إلى تخصيص المؤمنين بالله وباليوم الآخر بهذا الرزق، ولكن الله بكرمه الواسع يخبره بأنه سيرزق الكافرين أيضًا ويمتعهم في هذه الدنيا، فمتاعها قليل، ثم ينزل بهم العذاب في الآخرة بكفرهم، وسيكون عذابًا شديدًا فبئس المصير مصيرهم.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الآية: ١٢٦).

يأخذ إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، ورفع أساسه ولا تهتم الآيات بذكر تفصيلات البناء ومواده، ومساحة البيت وارتفاعه، هذه أمور لا تعني القرآن كتاب الهداية، ولكنها تهتم بالحالة النفسية لإبراهيم وإسماعيل في أثناء البناء، إن قلوبهما متجهة إلى الله، وألسنتهما تلهجان بالدعاء، وما هذا الدعاء؟ هل هو دعاء بتحقيق منافع مادية؟ لا، وإنما هو دعاء روحي يطلب من الله تقبل العمل الذي يقومان به ويجعله في ميزان حسناتهما، وأن يديم عليهما نعمة الإسلام ليس لهما فحسب بل لذريتهما ويعلمهما مناسك الحج وشعائره حتى يقوما بها، ويهتدي بها من يأتي بعدهما من المسلمين، ويخشيان على من بعدهما من ذكريتهما أن يزيغوا أو يضلوا إذا فقدوا الهادي، فيدعوان الله أن

يبعث فيهم رسولًا منهم، حتى يأنسوا إليه، ليتلوا عليهم آيات الله التي ينزلها عليه، وليعلمهم ما جاء في الكتاب المنزل ويشرح لهم ما فيه ويعلمهم كيف يدبرون الأمور بحكمة، وليطهر قلوبهم من كل رجس يلحقها ثم يختمان الدعاء بوصف الله بالعزة والحكمة، وهما صفتان ملائمتان للموقف، فهو قادر على تحقيق ما يطلبان، وسيحققه بحكمته.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (الآيات: ١٢٧-١٢٩).

يذكر الله بعد ذلك أن ملة إبراهيم- وهي ملة الإسلام- لا يزهد فيها، ويبتعد عنها إلا السفهاء الضالون، ويذكر الله أنه اختار إبراهيم في الدنيا نبيًا لإرشاد الناس وهدايتهم، وأما في الآخرة فهو من الصالحين، ويذكر مثلًا لانقياده لله سبحانه، فعندما أمره الله أن يسلم لم يتردد بل أسلم لله رب العالمين، ووصى بنيه بذلك كما وصى بذلك حفيده يعقوب بنيه من بعده وفحوى الوصيتين: أن الله اختار لهم دين الإسلام فليلتزموا به حتى موتهم.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (الآيات: ١٣٠-١٣٣).

تختلف سورة البقرة عن سورة إبراهيم في أشياء، وتتفق معها في أشياء، ففي سورة البقرة حديث عن بناء البيت الحرام، وعن منزلته العظمى، وأمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، وتكريم إبراهيم بجعل مقامه مصلى، وذكر لرفع إبراهيم القواعد من البيت، هذه الأشياء لم تذكر في سورة إبراهيم.

كذلك لم يذكر في سورة إبراهيم الحديث عن ملة إبراهيم، والترغيب فيها، ووصية إبراهيم بنيه بها، وكذلك يعقوب، وأخيرًا دعاء إبراهيم ربه أن يبعث في ذريته رسولًا منهم.

وتتفق السورتان في الدعاء للبلد الحرام ولمن يسكنه بالأمن والرخاء والتوفيق في اتباع مبادئ الإسلام.

في سورة آل عمران:

وهي سورة مدنية أيضًا، وفيها إضافات جديدة لم تذكر من قبل هي:

١ - أن الكعبة هي أول بيت خصص ليعبد الناس فيه ربهم.

٢ - أنها حددت مكان وجوده وهو «مكة» المعبر عنها «ببكة» وقد اختلف المفسرون في هذا اللفظ فقيل: إنه مرادف لمكة، وقيل إنه يطلق على الحرم وتطلق مكة على البلد.

٣ - أن فيه علامات واضحة تدل على قدسيته من هذه الآيات: (مقام

إبراهيم الذي أمر الله الناس بالصلاة فيه في سورة البقرة، وأن من دخل المسجد تحقق له الأمن فلا ينبغي لأحد أن يروعه).

٤- فرض الحج على الناس القادرين منهم، ومن يكفر بذلك فلن يضر الله شيئا؛ لأن الله غني عن العالمين.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الآيتان: ٩٦-٩٧).

واضح أن آيات هذه السورة لا تتصل بقصة إبراهيم مباشرة؛ لأنها تتحدث عن البيت، وعن الحج وكان من الممكن عدم اعتبارها من السور التي وردت فيها قصة إبراهيم، ولكني رأيت ضمها إليها لتكتمل الصورة عن البيت الذي أمر إبراهيم ببنائه، ولأن فيها ذكرًا لمقام إبراهيم.

والآن تسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ هل المراد به أنه أول بيت للعبادة وضع للناس على الإطلاق؟ إذا كان كذلك فالكعبة مبنية من قبل إبراهيم، وقد يكون آدم هو الذي بناها كما يقول بعض العلماء، أو أن المراد بالناس هنا هم ذرية إبراهيم، فهو لفظ ليس على إطلاقه كما في قوله الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ (آل عمران: ١٧٣) فالمراد بلفظ الناس هم المنافقون، والمراد بلفظ الناس الثاني مشركو قريش، إذن لفظ الناس قد يذكر ويراد به طائفة خاصة منهم، ويؤدي هذا

الرأي أن القرآن لم يذكر بناء الكعبة قبل ذلك، ولو أن آدم كان قد بناها أو غيره من الأنبياء الذين سبقوا إبراهيم، لذكر القرآن ذلك لأهمية هذا البيت، ومكانته العظيمة عند الله وعند الناس.

في سورة الحج (١٠٣):

وتأتي السورة الخاتمة لهذا المحور، ولقصة إبراهيم كلها، وهي سورة «الحج» وهي السورة التي ذكرت بعض شعائر الحج، وقد بدأت بالحديث عن إرشاد الله إبراهيم إلى المكان الذي يبني فيه البيت، وأمرته بأشياء:

أولًا: ألا يشرك بالله شيئًا من مخلوقاته كائنة ما كانت، وينسحب هذا الأمر إلى أمته من بعده.

ثانيًا: أن يطهر البيت من الأصنام والأوثان، ولما كان البيت المأمور إبراهيم ببنائه ليس فيه أصنام أول بنائه يكون المراد بالتطهير الحرص على بقائه طاهرًا لكي يطوف حوله الطائفون، ويعتكف فيه المعتكفون ويصلي المصلون.

ثالثًا: أن يعلن أمر الحج، وقد ضمن الله أن تبلغ هذه الدعوة التي صدرت عن إبراهيم في هذا المكان المقفر لكل الناس، وأن يأتوه من كل مكان مهما بعدت الشقة بينهم وبين البيت بكل وسيلة، ماشين على أقدامهم، أو راكبين جمالًا مهزولة من طول السفر.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ (الآيتان: ٢٦-٢٧).

قد يرى القائلون بأن الكعبة بنيت في عهد آدم دليلًا في هذه الآية على قولهم؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي أرشدناه إليه وبيناه له فهو كان مبنيًا، ولكن طمست آثاره وأمحت معالمه، ولكن من الممكن الرد عليهم بأن المعنى: أن الله أرشده إلى المكان الذي يرى بناءه فيه، وبينه له، والله أعلم.

تختلف هذه السورة عن سورة البقرة أن فيها الأمر لإبراهيم بدعوة الناس إلى الحج، وفي أنها لم تذكر إسماعيل مع أبيه، كما أوجزت في العبارة ولم تذكر بدء إبراهيم في البناء، ولا دعاءه في أثناء البناء.

بقي من قصة إبراهيم موقف لإبراهيم مع ربه يسأله فيه أن يريه كيف يحيى الموتى ولعله كان متأثرًا في هذا الموقف بموقف الملك الذي كان بحاجة في شأن ادعائه الألوهية الذي ورد حديثه في نفس السورة حيث قال له إبراهيم: «ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت» كما مر بيانه في المحور الأول فسأل الله أن يجعله يدرك سر هذا الإحياء.

وبادئ ذي بدء نقول: إن إبراهيم كان قوي الإيمان بقدرة الله، كما تأكد ذلك في إجابته حينما سأله الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠) فهو كان يريد أن يرى رأي العين حدوث الأمر أمامه لتزداد طمأنينة قلبه، وسكينة نفسه، كما فعل موسى من بعده حينما طلب من الله أن

يجعله ينظر إلى ذاته العلية، ولكن طلب موسى رُفض؛ لأنه طلب مستحيل، وأما إبراهيم فقد أجيب إلى طلبه؛ لأنه لا يتعلق بذات الله بل بقدرته ولكن قبل أن يجيبه سأله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ كأنه يريد أن يقول له: إن الإيمان يدفع إلى التسليم، ومثل هذا السؤال يدفع إلى الشك في القدرة فيسارع إبراهيم بإثبات إيمانه، ويعلل طلبه بأنه يريد اطمئنان قلبه.

ولأن الله يعلم ذلك أجابه إلى طلبه، فطلب منه أن يأخذ أربعة من الطير ثم يمزقهن إربًا ويضع كل جزء منها على جبل، ثم يناديهن فيأتينه مسرعات، وقد تم كل هذا ووضحت قدرة الله للعيان، ثم يعقب الله على هذا بتأكيد الدعوة لإبراهيم بأن يعلم بأن الله عزيز- قادر لا يغلبه شيء- حكيم يضع الأمور في مواضعها فيكشف ما شاء متى شاء لمن شاء.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة: ٢٦٠).

واضح أن سؤال إبراهيم هذا كان في المرحلة الأولى- مرحلة جدال قومه بشأن عبادتهم فهي الأنسب لمثل هذا السؤال- ونلاحظ أن السؤال كان عن الكيفية التي يحيى الله بها الموتى، فجاءت الإجابة بطريقة عملية، وكأن الله يريد أن يقول: إنما أمرنا إذا أردنا شيئًا أن نقول له كن فيكون.



٦- لوط عليه السلام

لوط: هو أول من آمن بإبراهيم، ولعله الوحيد الذي آمن به في المرحلة الأولى من دعوته؛ لأن الله خصه بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ (العنكبوت: ٢٦)، وقد نجاه الله مع إبراهيم إلى الأرض المباركة بعد محاولة إحراق إبراهيم ونجاته، يقول تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٧١) ويقال إنه ابن أخي إبراهيم، ولذا نجد أن ذكر لوط في بعض السور التي ورد فيها يأتي تاليًا لقصة إبراهيم، وخصوصًا آيات البشرى التي زفها الملائكة إلى إبراهيم بأن الله سيهبه ولدًا، وذلك لأنهم زفوها إليه وهم في طريقهم لإنزال العذاب بقوم لوط.

وقد وردت قصة لوط في السور التالية: القمر، والأعراف، والشعراء، والنمل، وهود والحجر والصافات والذاريات والعنكبوت.

في سورة القمر: (٣٧):

جاءت قصة لوط في هذه السورة في أعقاب ذكر بعض الأمم المكذبة لرسلها مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقد بدأت الآيات بذكر تكذيب قوم لوط بالنذر التي جاءتهم بالعذاب إن لم يكفوا عما هم فيه، ثم تذكر العذاب الذي نزل بهم والذي تمثل في إرسال حاصب عليهم، أي ريح عاصف محمل

بصغار الحصى شملتهم جميعًا إلا آل لـوط- المـؤمنين مـنهم- وذلـك قبيـل الفجر، وهذا إنعام من الله عليهم بسبب إيمانهم بالله، وشكرهم نعمـاءه، والله يجزى دائمًا من شكره، ثم تعود الآيات إلى النُذُر التي جاءتهم، فقـد أنـذرهم لوطن ببطشة الله بهم، أي أخذهم بأشد العنف إذا استمروا على انحرافهم عـن دين الله، وعن الفطرة السليمة، ولكنهم كذبوا ذلك وأخذوا يجادلون فيه، كما تتحدث الآيات عن محاولاتهم فعل الفاحشة بضيوفه، ولكن الله طمس عـلى عيونهم فلم يروا الضيوف، فأتاهم العذاب في بكرة الصبح، أي قبيـل الفجـر بقليل، كما فهمنا من الآيـة السـابقة «نجينـاهم بسـحر» ويسـخر الله مـنهم- والعذاب نازل بهم فيقول ويكرر: ذوقوا عذابي ونذر.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٣٢ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ۝٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

(الآيات: ٢٣-٣٩)

ونلاحظ أن الآيات لم تهتم بترتيب الأحداث ترتيبًا زمنيًا، فقد ذكرت نزول العذاب بهم، ثم تحدثت بعد ذلك عـن إنـذار لـوط إيـاهم، وعـن مـراودتهم ضيوفه، ولعل ذلك للمسارعة إلى ذكر العذاب أولًا، ثم تـذكر الأسـباب بعـد ذلك، ولذلك كرر نزول العذاب بهم مرة أخرى حيـث قـال: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾.

في سورة الأعراف: (٣٩):

ولكن سورة الأعراف ترتب الأحداث، وتصرح بنوع الفاحشة التي اشتهروا بها، واستحقوا من أجلها العذاب، وجهاد لوط في منعهم من ذلك وإخفاقه.

تبدأ الآيات بتوبيخ لوط لقومه، لممارستهم فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ثم تبين هذه الفاحشة وهي إتيان الرجال في أدبارهم وتركهم النساء اللائي هن المحل الطبيعي الذي أعده الله للتناسل، وينعتهم نتيجة لذلك بالإسراف وتجاوز الحد.

يقول تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الآيات: ٨٠، ٨١)

لم يجد قومه جوابًا على توبيخه هذا إلا التهديد والوعيد، فهم يدعون قومهم إلى إخراجه هو وأهله من قريتهم، ويعللون ذلك بسبب عجيب، وهو أنهم قوم يبغون التطهر، وكأن الدنس شاع بينهم وتعارفوه حتى أصبح هو الأمر الطبيعي المقبول، وغيره الأمر المستنكر المرفوض، ولكن الله نجاه وأهله إلا امرأته؛ وتبين الآيات نوع العذاب الذي نزل بهم، فالله أمطر عليهم مطرًا أهلكهم، ولما كان من أهداف القصص القرآني تسلية الرسول وتثبيت قلبه ختم الله الآيات بتوجيه نظر الرسول إلى أن المجرمين لا يمكن أن يفلتوا من العقاب.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الآيات: ٨٢-٨٤).

أضافت آيات سورة الأعراف إلى القصة أبعادًا جديدة فقد ذكرت امرأة لوط، وبينت أنها ليست من الناجين؛ لأنها كانت تسير على نهجهم، كما بينت نوع الفاحشة التي يرتكبونها، وذكرت دعوة قوم لوط إلى إخراج لوط ومن معه من قريتهم لأنهم يمارسون التطهر.

ونلاحظ أن نوع العذاب المذكور هنا يختلف عنه في سورة القمر، ففي «القمر» إرسال الحاصب، وهنا إمطار المطر، ولكن لو تأملنا قليلًا نجد أنه لا تعارض، فالمراد بالمطر هنا هو إمطارهم وقذفهم بالحاصب المتصل كما تتابع قطرات الماء عند نزول المطر.

لم تحدد آيات هذه السورة وقت العذاب كما حددته سورة القمر.

في سورة الشعراء: (٤٧):

ثم تأتي سورة الشعراء، فتذكر التفصيلات السابقة مع اختلاف يسير في العبارة، فهي تسير على نسق قصص الأنبياء الذي اتبعته هذه السورة فتبدأ بالديباجة نفسها المكررة مع كل الأنبياء الذي اتبعته هذه السورة فتبدأ بالديباجة نفسها المكررة مع كل الأنبياء، من تكذيب قوم الرسول

بالمرسلين، فيقول لهم الرسول- وهو هنا لوط- إني رسول أمين إليكم أدعوكم إلى تقوى الله وطاعته، وإني لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرًا، لأن أجري على رب العالمين، ثم تنفرد القصة بعد ذلك بموضوعها، فنجد لوطًا يسأل قومه مستنكرًا وموبخًا لهم على فعلتهم الشنعاء التي تتنافى مع الفطرة السليمة، وذلك بإتيان الذكور في أدبارهم- ولعل في التعبير بالذكران ما يوحى بمدى انحرافهم عن الفطرة- بينما لديهم النساء اللاتي خلقهن الله لهذا الغرض، وأعدهن الإعداد الملائم لوظيفتهن من التناسل وحفظ النوع، مع ما يصاحب ذلك من إشباع جنسي لهن وللرجال، ثم يصفهم بعد ذلك بالوصف الذي لا يصلح غيره في هذا المقام وهو أنهم قوم عادون- أي متجاوزون لكل حد في فعلتهم هذه- فهددوه تهديدهم السابق في سورة الأعراف بإخراجه من القرية إن لم يكف عن وعظهم، فلم يملك إزاء هذا إلا أن يعبر عن بغضه لعملهم، ودعاء الله أن ينجيه من عاقبته، فينجيه الله وأهله إلا امرأته فقد كانت منهم، وبعد إنجائهم دمر الله الآخرين وأمطر الله عليهم مطرًا أسوأ ما يكون المطر، فقد أنذروا فلم يستجيبوا للإنذار، ثم تختم الآية بالختام المتكرر في هذه السورة: إن في ذلك لعبرة، ولكن لا يستفيد بها كثيرون، وإن ربك هو العزيز الرحيم.

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الآيات: ١٦٠-١٧٥)

ونلاحظ اختلاف التعبير عن بعض المعاني في هذه السورة عما ورد في سورة الأعراف، ففي الأعراف يقول بعضهم لبعض: أخرجوا آل لوط من قريتكم لأنهم يريدون التطهر، وهنا يهددونه بأنه إن عاود وعظهم بترك ما هم فيه من دنس يخرجوه من قريتهم، ولا عجب في هذا؛ لأن الموقف لم يحدث مرة واحدة بل حدث مرارًا، ففي مرة يحذرونه، وفي أخرى يقررون إخراجه.

وكذلك نلاحظ في سورة الأعراف إخبار الله بإنجائه: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾، وفي هذه الآيات يدعو لوط ربه أن ينجيه، ولا تعارض فقد دعا لوط ربه لإنجائه فأنجاه الله، فالأمران حدثا.

في سورة النمل: (٤٨):

وسورة النمل- وهي السورة التالية للشعراء- في ترتيب النزول تتضمن المعاني السابقة في سورة الأعراف والشعراء، فلوط يسأل قومه مستنكرًا: أتفعلون هذه الفاحشة التي لم تسبقوا إليها، ولم يُلِمَّ بها أحد من البشر من قبلكم، ويفصل السؤال موبخًا لهم على إتيانهم الرجال في أدبارهم لإشباع

شهوتهم من هذا النوع الشاذ من الاتصال الجنسي تاركين النساء اللاتي خلقهن الله من أجل هذا الغرض، ليس لهذا تبرير - في رأي لوط - إلا جهلهم وطيشهم، فيكون ردهم نفس الرد السابق في سورة الأعراف: «أخرجوهم من قريتكم» والسبب هذا الاتهام الغريب الذي لا يصدر إلا عن نفوس مريضة وهو محاولتهم التطهر، فينجيه الله وأهله إلا امرأته فمصيرها مصيرهم، ويمطر على القوم مطرًا أسوأ ما يكون المطر الذي ينزل على من لا يبالي الإنذار.

يقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ (الآيات: ٥٤-٥٨).

نلاحظ أن آيات سورة الأعراف تكاد تتطابق مع آيات سورة النمل ولا تختلف إلا في ألفاظ يسيرة أكثرها مترادف، مثل قوله في سورة الأعراف: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وفي النمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ والاستفهام في: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الذي خلت منه العبارة في سورة الأعراف، واستخدام الضمير في سورة الأعراف والاسم الظاهر في «النمل» ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ واستخدام لفظ

«كانت» في سورة الأعراف بدل «قدرنا» في النمل، ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾.

وختام الآيات في سورة الأعراف: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، وفي سورة النمل: ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

وأما في سورة الشعراء فقد اختلف نسق التعبير، ولكن المعاني المتضمنة هي هي- كما مر-.

في سورة هود: (٥٢):

في سورة هود تأتي قصة لوط في أعقاب تبشير إبراهيم بولد يولد له، فقد زفت الملائكة البشرى لإبراهيم وهم في طريقهم لإنزال العذاب بقوم لوط، فنزلوا عليه فظنهم ضيوفًا، ثم أحس بالخوف منهم لما امتنعوا عن طعامه، فطمأنوه كاشفين عن شخصيتهم، وبشروه بالولد وأخبروه أنهم مرسلون إلى قوم لوط، فلما هدأت نفس إبراهيم أخذ يجادلهم في إنزال العذاب بهم ففيهم لوط، وقد يكون فيهم من يرجى إيمانه- وكأن إبراهيم لم يكن يعرف حقيقة الموقف الإيماني لقوم لوط، وأنه لم يكن فيهم غير بيت واحد من المسلمين. كما جاء في سورة الذاريات، ولم يكن جدال إبراهيم في شأن قوم لوط إلا لما اتصف به من الحلم ورقة القلب وكثرة الرجوع إلى الله، ولكن الملائكة تطلب منه أن يترك هذا الجدال؛ لأن حكم الله قد صدر بعذابهم، ولا راد لقضاء الله[١].

(١) الآيات الدالة على هذه المعاني ذكرت في قصة إبراهيم.

ثم تذهب الملائكة إلى لوط في صورة بشرية، ولعل صورتهم تغري القوم الفاسقين بهم فلما رآهم لوط ضاق صدره لقدومهم، وحزن لعلمه بما سيحاول قومه معهم، وقال: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

ولما سمع قومه بهؤلاء الضيوف أسرعوا إلى لوط سعداء بالمتع التي ستحقق مع هؤلاء الرجال، ولم يجد لوط وسيلة يحاول بها صرفهم عن ضيوفه إلا أن يعرض عليهم بناته موضحًا لهم أنهن أطهر لهم فهن المعدات لتحقيق هذه المتعة بالفطرة الربانية، ويدعوهم إلى تقوى الله ويستنجد بمروءتهم، فيرجوهم ألا يلحقوا به الخزي أمام ضيوفه، ويسائلهم في تعجب أليس فيكم رجل عاقل يكفكم عني؟

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (الآيات: ٧٧، ٧٨).

لا يأبهون لكلامه، بل يردون عليه في تبجح: إنك تعلم أن متعتنا لا تتحقق مع النساء، بل مع الرجال، وإنك تعلم ما نبتغيه الآن، فيملأ الأسى قلب لوط، ويتمنى لو أن لديه من القوة ما يمكنه من منعهم، أو أن عصبة من قومه تحميه، فهو غريب في هذه البلاد، جاءها وحيدًا، وحينما تزوج لم يولد له إلا إناث، حتى امرأته تقف ضده، وهنا يبادر الملائكة إلى طمأنته معلنين أنهم رسل ربه، جاءوا للانتقام له، وأن هؤلاء القوم لن يمكنهم الوصول إليه،

وطلبوا منه أن يخرج ليلًا مع أهله وألا يلتفتوا وراءهم مشفقين على قومهم حينما ينزل بهم العذاب، واستُثنيت امرأته من ذلك؛ لأنها منهم، وسيصيبها ما أصابهم لأنها على دينهم، وحددوا له موعد نزول العذاب، وأنه سيحل بهم صبحًا ولعل لوطا أظهر رغبته في تعجيل العذاب قبل هذا الموعد، فأجابوه بقولهم: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟

يقول تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (الآيات: ٧٩-٨١).

وحينما حل أمر الله فوجئ القوم بقريتهم تنتزع من مكانها ويصبح عاليها سافلها، وتمطر السماء عليهم حجارة من طين مُقَوَّى بطبخه في النار، وينزل عليهم متتابعًا كأنه عقد صُفَّت حباته متلاصقة، فلا يجدون فرصة لاتقائه وهذه الحجارة معلمة من الله لكل واحد منهم حجر يصيبه فيهلكه، ثم تختتم القصة بالإيحاء بالهدف منها. وهو تذكير مشركي قريش بعذاب الله للمكذبين برسله فيقول لهم: إن هذه القرية ليست بعيدة عنكم.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾
(الآيتان: ٨٢-٨٣)

وقد انفردت هذه السورة عن سابقاتها من السور التي ذكرت فيها قصة

لوط بأشياء: فهي تبدأ من اللحظات الأخيرة في حياتهم الدنسة، فقد وصل الملائكة لينزلوا بها العذاب، وهي تذكر أن الله أرسل ملائكة إلى لوط ليخبروه بذلك، ويطلبوا منه الخروج بأهله وعدم الالتفات إلى ما سيصيب قومه من هلاك، ماعدا امرأته التي ستلتفت وسيصيبها ما أصابهم، وهي تبين مشاعر الحزن والأسى التي أحس بها لوط عندما نزل به الملائكة خوف افتضاحه بحسبانهم رجالًا، كما أنها تذكر حواره مع قومه، واستجداءه لهم أن يتركوا ضيوفه، وأمامهم بناته فهن أطهر لهم، وأخيرًا تضيف إلى الحاصب وإلى المطر اللذين كان فيهما عذابهم- وصف الحاصب بأنه حجارة من طين محروق، وأنها معلمة لكل فرد منهم حجر قاتل، كما ذكرت أن القرية قلبت بأهلها فجعل عاليها سافلها.

في سورة الحجر: (٤٥):

تتشابه سورة الحجر كثيرًا مع سورة هود، فالملائكة عرَّجوا على إبراهيم لتبشيره بغلام عليم، فلما سألهم عن شأنهم أخبروه أنهم في طريقهم إلى إهلاك قوم مجرمين، ونفهم أنهم يقصدون قوم لوط من الاستثناء الذي يلي هذا وهو «إلا آل لوط» فسيتحقق لهم جميعًا النجاة إلا امرأته التي قدر الله أنها من الهالكين مع قومها.

ويذهب الملائكة إلى لوط في صورة رجال فيخافهم لوط ويعلن إنكاره لهم- ربما لشيء بدا في هيئتهم كما أنكرهم إبراهيم من قبل- فيجيبونه بأنهم

ملائكة جاءوا لإنزال العذاب بقومه، هذا العذاب الذي كانوا يتشككون فيه لعدم إيمانهم بلوط، وأكد لهم الملائكة أنهم صادقون في قولهم وأن ما جاءوا به هو الحق (وقد اضطروا لهذه التأكيدات كي يزيلوا كل شك في نفس لوط).

ثم أخذوا يوجهونه إلى ما يفعل، فعليه أن يخرج بأهله في جزء من الليل- حددته سورة القمر وهو وقت السحر قبيل الفجر بقليل- وأمروه أن يسير خلف أهله، وألا يلتفت أحد منهم إلى هذه القرية الهالكة التي سيحل بها العذاب إلا امرأته التي ستهلك معهم، وأن يمضوا في طريقهم إلى حيث أمرهم الله- يقول المفسرون: بلد في الشام- وأنهوا إليه أن الدمار الشامل سيحيق بالقرية.

يقول تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (الآيات: ٥٧-٦١).

سمع أهل المدينة بوجود هؤلاء الرجال عند لوط، فأسرعوا إليه وهم سعداء بما سيصيبونه من متع، فيخاطبهم لوط مستنجدًا مروءتهم، طالبًا منهم ألا يفضحوه أمام ضيوفه، فيتبجحون موبخين له على استضافة هؤلاء الناس،

وقد نهوه من قبلُ أن ينزل بـه أحـد مـن العـالمين؛ لأن نظـامهم يعرفـه وهـو الاستمتاع بأي رجل ينزل بالقرية، فلا يجد أمامه وسيلة يحاول صـرفهم بهـا عن ضيوفه، فيعرض عليهم بناته إن كان لابد من تحقيق متعـتهم الجنسـية، لم تذكر الآيات ردهم على هذا الاقتراح وإنما سخرت بهم وبينت السـكرة التـي يعيشون فيها، ولا يخطر ببالهم العذاب الذي سيحيق بهم عما قريب.

وقد حل بهم فعلًا ففي الصباح الباكر دوت صيحة هائلـة قلبـت مـدينتهم فجعلت عاليها سافلها، وأمطر الله عليهم الحجـارة مـن سـجيل- أي الطـين المقوَّى بحرقه في النار- ثم تختتم الآيات ببيان العظة والعبرة التي ينبغـي أن يتعظ لها مشركو مكة، فالمدينة المدمرة في طريق تجارتهم في ذهابهم وإيابهم، وإن فيها لعبرة لكل مؤمن.

يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الآيات: ٦٧- ٧٧).

فهذه الآيات تتضمن المعاني التي وردت في سـورة «هـود» لا تكـاد تزيـد عنها ولا تنقص، وإن كانت الآيات في هـذه السـورة إيقاعهـا أسـرع، وجملهـا

أقصر، وفيها بعض المعاني لم تذكر في سورة هود، وهي: استنكار لوط لهيئة الملائكة وإعلانهم بذلك، وأمرهم له بأن يسير خلف أهله في أثناء خروجهم، وذكر نوع من العذاب وهو أخذ الصيحة لهم وهذه لم تُذكر في أي من السور السابقة، كذلك نلاحظ تقديم حوار لوط مع الملائكة في هذه السورة عن حواره مع قومه، الذي تقدم في سورة هود، وجاء قبل حواره مع الملائكة، وكل هذه أمور ثانوية، وأما المعاني الأساسية فقد تطابقت في السورتين.

في سورة الصافات: (٥٦):

وفي سورة الصافات لمحة عن لوط تتحدث عن تأكيد رسالته، وعن إنجاء الله له إلا امرأته التي وصفها بأنها عجوز، وأنها من الغابرين أي السابق ذكرهم من قوم لوط الذين استحقوا العذاب، ثم تذكر تدمير قوم لوط بعد ذهابه عنهم، ثم تلفت مشركي مكة – كما في سور سابقة – إلى أن هذه القرية المدمَّرة تحت مرأى أبصارهم في الصباح وبالليل تدعوهم إلى التدبر في ذلك واستخدام عقولهم.

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الآيات: ١٣٢-١٣٨)

في سورة الذاريات: (٦٧):

في هذه السورة تتضمن الآيات بعض المعاني المذكورة في سورة الحجر،

وتسير على نسقها في التعبير، فإبراهيم يسأل الملائكة- بعدما بشروه بالغلام العليم- عن شأنهم، فيخبرونه أنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين لينزلوا بهم العذاب، ولم يصرحوا بكنه هؤلاء القوم ولكننا نفهم أنهم قوم لوط، بسبب التصريح بذكرهم- في مثل هذا المقام- في السور السابقة، ومن نوع العذاب الواقع بهم، فهو حجارة من طين، معلمة عند الله- على كل واحدة منها اسم صاحبها- للمسرفين الذين تجاوزوا كل حد في فاحشتهم، ثم تذكر الآيات أن الله قد أمر بإخراج من كان فيها من المؤمنين قبل وقوع العذاب، فلم يوجد في القرية كلها إلا بيت واحد مسلم هو بيت لوط، ثم يخبرنا الله تعالى أنه ترك في هذه القرية عبرة وعظة للذي يخشى الله ويخاف عذابه.

يقول تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (الآيات: ٣١-٣٧)

في سورة العنكبوت: (٥٨):

والسورة الأخيرة- في ترتيب النزول- التي تناولت قصة لوط هي سورة العنكبوت، وذكرت القصة من بدايتها إلى نهايتها، فقد جمعت بين توبيخ لوط قومه، ومجيء الملائكة بالبشرى لإبراهيم، وجدال إبراهيم بشأن العذاب النازل بقرية لوط، وطمأنة الملائكة له، ثم إنزال العذاب بهم.

تبدأ الآيات بذكر توبيخ لوط لقومه على إتيانهم هذه الفاحشة المنكرة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ثم يوضح هذه الفاحشة التي تتكون من ثلاث كبائر:

الكبيرة الأولى: إتيان الرجال في أدبارهم إشباعًا لشهوتهم، وترك النساء المحل الطبيعي لذلك.

الكبيرة الثانية: قطع الطريق على المارة- وربما يكون ذلك لإجبارهم على فعل الفاحشة بهم- لم يصرح القرآن بسبب قطعهم السبيل، هل من أجل ذلك، أو من أجل أشياء أخرى.

الكبيرة الثالثة: فعل المنكر في أنديتهم، ما هذا المنكر؟ لم يصرح القرآن، والغالب أنه فعل هذه الفاحشة أيضًا جهارًا، وربما يضيفون إليها أنواعًا أخرى من المنكر، لا يجيبونه على استنكاره هذا إلا بالتحدي، إنه يتوعدهم بعذاب الله إن لم يكفوا عما هم فيه، فليأت به إذن إن كان صادقًا في قوله، ويلجأ لوط إلى ربه ضارعًا إليه أن ينصره على القوم المفسدين.

يقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

(الآيات: ٢٨-٣٠).

يستجب الله دعاءه، ويرسل الملائكة لإيقاع العذاب بهم، ويمرون في

طريقهم بإبراهيم ليبشروه، فيخبرونه بأنهم ذاهبون إلى إهلاك هذه القرية لظلم أهلها، ويفهم إبراهيم أنها قرية لوط، فيقول لهم مشفقًا على لوط: إن لوطًا يعيش بها، فيجيبونه أنهم يعلمون ذلك، وأنهم سينجون لوطًا وأهله إلا امرأته الكافرة.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

(الآيتان: ٣١-٣٢).

تذهب الملائكة إلى لوط، فيشعر بالأسى الشديد والضيق لمجيئهم- كما جاء في سورة هود أيضًا- فيطمئنونه ويطلبون منه ألا يخاف ولا يحزن؛ لأنهم سينجونه وأهله إلا امرأته لأنها من الكافرين، وينبئونه أنهم سينزلون على هذه القرية عذابًا من السماء بسبب فسقهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

(الآيتان: ٣٣-٣٤).

ومع أن هذه السورة تناولت قصة لوط- كما قلت من بدايتها إلى نهايتها- فقد ذكرت ذلك في إيجاز، وتركت بعض عناصر، من ذلك تركها الحوار

الذي دار بين لوط وقومه- كما في سورة هود والحجر- وكذلك الحوار بينه وبين الملائكة، فلوط في هذه السورة لم يُذكر حوارُه مع الملائكة، وإنما عُنِيت الآيات بإظهار مشاعر الضيق والأسى التي ظهرت على وجهه، والتي جعلت الملائكة يدعونه إلى عدم الخوف، أو الحزن؛ لأنه سينجو هو وأهله إلا امرأته، كذلك تركت ذكر مسارعة قومه إليه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه، وقد أضافت هذه السورة نوعين آخرين من الفواحش التي ارتكبها قوم لوط والتي لم تذكر في آية سورة وهما: قطع السبيل، والإتيان بالمنكر في ناديهم، وعبرت عن العذاب بالرجز النازل من السماء، ومع أن معنى الرجز هو العذاب فإن إيحاءه أقوى، وهي السورة الوحيدة التي لم تذكر الحاصب أو المطر الذي ورد في السور الأخرى.

وهكذا تنتهي قصة لوط في القرآن الكريم، وقد وردت في تسع سور كلها مكية- كمعظم قصص الأنبياء- وقد جاءت مقترنة بالبشرى التي جاء بها الملائكة إلى إبراهيم بالغلام في أربع سور هي: هود، والحجر، والذاريات والعنكبوت، وصرح بذكر قوم لوط في سبع سور، وكنى عنهم بالقوم المجرمين في سورتين هما: الحجر، فقد قال تعالى فيها: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾ ونفس العبارة وردت في سورة الذاريات، غير أنه في الحجر استثنى من القوم المجرمين آل لوط، فعلم أن المعَنَّى قومه، وأما في الذاريات فلم يصرح بذكر لوط أو آله، وكنى عنهم بالمؤمنين والمسلمين.

❁❁❁

٧- يوسف عليه السلام

وهي قصة فريدة تختلف عن سائر قصص الأنبياء، فهي القصة الوحيدة التي ذكرت دفعة واحدة من البداية إلى النهاية في سورة واحدة ولم تتكرر في سور أخرى، كما أن موضوعها يختلف عن موضوعات قصص الأنبياء؛ فكل قصص الأنبياء تدور حول دعوة النبي قومه إلى عبادة الله وحده، وجهاده في سبيل هذه الدعوة، وتكذيب قومه له، ثم إنزال العقاب بهم، أما في هذه القصة فالصراع فيها يدور حول أمور أخرى كما سنرى، وليس فيها دعوة إلى عبادة الله وحده إلا في أثناء حواره مع صاحبي السجن، كما أنه ليس فيها إشارة إلى أن يوسف رسول أرسل إلى قوم معينين، وإن كانت رسالته ذكرت في آية واحدة في سورة غافر في أثناء مجادلة مؤمن فرعون قومه، فقد قال لهم كما يحكي القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (الآية: ٣٤)

فهذه الآية تثبت أن يوسف كان رسولًا أرسل إلى حكام مصر، وأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده، ولكنهم تشككوا في رسالته، وجادلوا فيها، فلما مات

زعموا أن الله لن يبعث من بعده رسولًا، وهذه طريقة كل متجاوز للحد في عناده وكفره متشكك في رسل ربه ورسالاتهم.

تمر قصة يوسف بعدة أطوار:

الطور الأول: مرحلة الصبا، وحب أبيه إياه، وحسد إخوته له.

الطور الثاني: نجاح إخوته في إزاحته من طريقهم وبيعُه في مصر.

الطور الثالث: حب امرأة العزيز له، ومحاولة إغرائه ثم سجنه.

الطور الرابع: خروجه من السجن وتوليه خزائن الأرض.

الطور الخامس: لقاؤه بإخوته والاحتيال لإبقاء أخيه الأصغر معه.

الطور الأخير: اجتماع شمله بأسرته وتحقق رؤيته.

تبدأ القصة بهذه الرؤيا العجيبة: يوسف يرى في منامه أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين له، يقصها على أبيه، فيعرف أبوه صدق هذه الرؤيا وتأويلها، ويخشى أن يحسده إخوته إذا عرفوا هذه الرؤيا وعلموا منا ما سيئول إليه أمره من رقي ورفعة، فيحذره من قصها على إخوته كي لا يدفعهم الشيطان للتآمر ضده، فهو عدو مبين للإنسان، ثم يتنبأ له باصطفاء الله له، وتعليمه تفسير الرؤى والأحلام، وأن الله سيتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق، لأن الله عليم بمن يستحق نعمته، حكيم في تدبير كل أمر.

يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف: ٤-٦).

وقد وقع ما كان يخشاه يعقوب على يوسف من كيد إخوته له- حتى دون أن يعرفوا شيئًا عن هذه الرؤيا؛ لأن حسدهم ليوسف كان لحب أبيه له ولأخيه الأصغر دونهم- كما توهموا- ويبلغ بهم الحسد أن يتهموا أباهم بالانحراف عن العدل انحرافًا بينًا، ثم يجاوز حسدهم ليوسف الحد فيتآمرون لقتله، أو إبعاده عن بلده، كي لا يحول بينهم وبين حب أبيهم حائل- كما ظنوا- وإذا كان في فعلهم هذا إثم كبير فباب التوبة مفتوح، فسيتوبون ويصبحون صالحين بعد ذلك.

ثم اقترح أحدهم أن يقذفوه في قعر بئر مظلمة، فقد يأتي قوم مسافرون ليستقوا الماء، فيجدوه ويأخذوه معهم، ويبعدوه عن هذه الأرض وهكذا يتحقق هدفهم دون تلطيخ أيديهم بدمه، وافقوا على الاقتراح.

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ (يوسف: ٨-١٠).

وافقوا على الاقتراح ولكن بقي أمر تنفيذه، وتنفيذه يقتضي أن يبتعد

يوسف عن أبيه ساعات ينفذون فيها مؤامرتهم، ولكن كيف يسمح أبوه بتركه يغيب عن عينيه، فعليهم أن يبذلوا كل جهد في إقناعه.

ذهبوا إليه يستأذنونه في أخذ يوسف معهم، وقد بدأوا الاستئذان بعتاب أبيهم على أنه لا يسمح ليوسف بالخروج معهم، وكأنه يخشى عليه منهم، بينما هم يحبونه وهم مخلصون له، ثم طلبوا منه أن يرسله معهم ليستمتع باللهو واللعب في المروج والحقول، ولكن الأب يبدي لهم خوفه على يوسف ويخشى أن يهملوه فيأكله الذئب- وهذا دليل على صغر سنه، بحيث لا يتجاوز السادسة أو السابعة فيطمئنونه بأنهم عصبة (جماعة) لا يمكن للذئب أن يتغفلهم ويأكل أخاهم، لئن حدث هذا إننا إذن لا قيمة لنا، فيضطر الأب تحت هذا الإلحاح أن يسمح لهم بأخذه.

أخذوا يوسف، ونفذوا فيه المؤامرة التي حاكوها له، فألقوه في قعر الجب، ولكن الله يوحى إلى يوسف في هذه اللحظات العصيبة بأنه سيأتي وقت يخبرهم نبأ هذه المؤامرة، وهم غافلون عن ذلك.

عادوا إلى أبيهم يتظاهرون بالحزن ويبكون، ثم أعلنوا لأبيهم نبأ مصرعه، وأن الذئب قد أكله حينما تركوه يحرس متاعهم عندما ذهبوا يتسابقون- عذر ساذج لا يقبله عقل، بل فيه تبجح، فهم قد أخذوا أخاهم ليرتع ويلعب، فيكلون إليه حراسة متاعهم، وهم الذين يلهون ويلعبون- لقد لقنهم أبوهم الحجة التي يعتذرون بها إليه- دون أن يعلم- حينما حذرهم أن يأكله الذئب، وكأنما أحسوا عدم تصديق أبيهم لهذه الرواية الساذجة، فاتهموه بأنه لا يثق

بهم مهما صدقوا، ولكي يسبكوا كذبتهم جاءوا بقميص يوسف ملطخًا بالدم نتيجة أكل الذئب له، ولكن كل هذا لا يقنع الأب، فيعلن لهم أن أنفسهم سولت لهم فعل شر بأخيهم، وليس أمامه إلا الصبر الجميل الراضي بقضاء الله، وهو وحده القادر على أن يعينه على ما أتوا به.

يقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

(يوسف: ١١-١٨)

ثم يبدأ طور جديد في حياة يوسف، تأتي قافلة، وتمر بطريق البئر، فيرسلون أحدهم ليستقي لهم، وحينما أنزل دلوه في البئر تعلق يوسف به، فلما رآه حسن الوجه صاح برفقته مبشرًا، هذا غلام، فأخذوه وأخفوا أمره، فلم يعلنوا أنهم وجدوه، خشية أن يعرف أهله، أو سيده فيأخذه منهم، ثم زاد خوفهم من افتضاح أمرهم، فباعوه بثمن بخس، وكانوا متسرعين للتخلص منه.

يقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ

وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾(الآيتان: ١٩، ٢٠) .

ثم ينتقل يوسف إلى طور ثالث من أطوار حياته، فقد اشتراه رجل من مصر، هو رئيس شرطتها أو واليها، وقد سماه القرآن: «العزيز» وقد أوصى به امرأته، وطلب منها أن تكرمه، وتحسن معاملته، فعسى أن ينفعهم عندما يكبر، أو يتخذوه ولدًا، وهكذا مكن الله ليوسف في أرض مصر، وزاده فوق ذلك تعليمه تفسير الرؤى والأحلام، والله غالب على أمره، وما أراده الله لا يمكن لأحد أن يغيره، وإن جهل هذه الحقيقة على الناس، ومنهم إخوة يوسف.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(الآية: ٢١) .

ثم يمر يوسف بأخطر مرحلة في حياته، مرحلة الشباب، وهي وهبه الله جمالًا ووسامة، وبدأ نضجه وفتوته، وهناك من ترقبه، وشبابه يتفتح، وتنظر إليه بعين نهمة وشهوة غلابة، تنتظر قطف الثمرة التي تعهدتها بالرعاية والعناية، لكن الله قد آتاه الحكمة والعلم جزاء إحسانه وإيمانه، فلما راودته امرأة العزيز التي يعيش في كنفها، وتحت سقف بيتها كان علمه وحكمته حائلين دون الانزلاق في مزالق الشهوة.

لقد بذلت امرأة العزيز كل جهد لتغريه بها، وراودته عن نفسه، فأدخلته

جناحها الخاص وأحكمت إغلاق الأبواب كي لا يهرب منها، أو لتطمئن أن أحدًا لن يراهما، فيفسد خلوتهما، ولكنه يستعيذ بالله من هذا الإثم، فكيف يخون سيده الذي رباه فأحسن تربيته، إنه لو فعل لكان ظالمًا، وعاقبة الظلم الخسران والخذلان.

وتبالغ في إغرائها، ويكاد يستجيب لهذا الإغراء، فما هو في نهاية الأمر إلا بشر، ولكنها لحظة قصيرة، لا تستغرق ثواني، ثم يثوب إلى رشده وحكمته، ويملأ خوف الله قلبه وحسه، أليس من المتقين الذين يقول الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

(الأعراف: ٢٠١).

فيحاول الهرب منها، فتجري خلفه نحو الباب تحاول منعه من الخروج، وتجذبه من قميصه فتشقه من الخلف، وفي هذه اللحظة تقع المفاجأة الصاعقة، فقد لقيا زوجها لدى الباب، وبقدرة المرأة المحنكة الرابطة الجأش، الحاضرة البديهة تقلب وجه الحق، وتبلغ الأمر إلى زوجها معكوسًا، وبطريقة مثيرة، فهي تخبر زوجها باعتداء يوسف عليها، وتصدر الحكم عليه في جملة واحدة: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٥) فهي تخبره بأن يوسف أراد بها سوءًا وفي مثل هذا الموقف لا يفهم السوء إلا بإرادة فعل الفاحشة بها، ويكون حكمها هو السجن أو أن يعذب عذابًا موجعًا، ولم تصدر حكمًا بالموت لشدة حبها له،

يذهل يوسف ويجيب- ببساطة- هي التي طلبت مني فعل الفاحشة.

فمن يصدق العزيز؟ لا يمكن أن يصدق يوسف، ويبدو أن الأمر تطور في النزاع حتى اضطر العزيز أن يستشير أحد أقاربها الحكماء، وربما كان هذا الحكيم قريبًا من الباب في هذه اللحظة، وسمع ما حدث، فأشار الحكيم بالرأي الصواب، لقد شُقَّ قميص يوسف في أثناء المطاردة، فلننظر أين موقع الشق من القميص، إن كان من الأمام فهو يحاول أن يهجم عليها وهي تحاول إبعاده فَشُقَّ القميص فهي الصادقة، وإن كان الشق من الخلف فهي تطارده وتحاول إمساكه من قميصه فَشُقَّ القميص، فهي إذن كاذبة وظهر الحق الأبلج فلقد رأى العزيز القميص ممزقًا من الخلف فأدرك الحقيقة المؤلمة، ولكنه لا يتخذ ضدها أي قرار أكثر من أن يقرر أن هذا العمل من تدبيرها، ولكي يخفف وقع هذا التصريح عليها أسند هذا المكر إلى النساء جميعًا، فهو إذن من طبيعة النساء ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، فهي لم تفعل أكثر مما تفعله أية امرأة، كما نلاحظ أنه حينما دمغها بالخطيئة لم يقل: «إنك خاطئة» بل جعلها من جملة الخاطئين، وكل ما طلبه من يوسف: أن ينسى هذا الأمر فلا يذكره لأحد، وطلب من امرأته أن تستغفر لذنبها؛ لأنها أخطأت وواضح أن هذا العزيز كان شديد الحب لزوجه، ولعله أيضًا كان كبير السن ينظر إلى الأمور بحكمة الشيخ الهادئة بينما هي ما تزال في ميعة الشباب.

وهكذا يسدل الستار على أهم فصل في قصة يوسف، فصل شَكَّل كل حياته المقبلة.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ (الآيات: ٢٢-٢٩)

وتستمر محنة يوسف مع النساء، فقد شاع الخبر في المدينة، وتداولته ألسنة نساء المجتمع الراقي، فلُمنَ امرأة العزيز على نزقها وطيشها، وتحس امرأة العزيز بالظلم؛ لأن حبها ليوسف كان قاهرًا لما امتاز به من جاذبية وجمال ساحر، فتقرر أن تضع هؤلاء النسوة في تجربة مشاهدة حُسن يوسف الأخاذ، لترى هل يستطعن أن يقاومن سحره ولو للحظات، حتى يعذرنها إذا لم تستطع المقاومة وهو بين يديها، وملء عينيها لسنوات، وتدعوهن إلى الحضور إلى بيتها فيجئن، فتقدم لهن بعض ألوان الفاكهة، وتعطي كل واحدة

منهن سكينًا ليستعنَّ بها على تقطيع الفاكهة، ثم تـدعو يوسـف إلى مقـابلتهن، فيلبي يوسف أمر سيدته، وهل يملك غير هذا؟ فما هـو إلا عبـد لهـا، وكـان النسوة منهمكات في تقطيع الفاكهة حين خرج عليهن، فيذهلن ويدهشن لكل هذا الجمال الذي لم يشاهدنه في رجل من قبل، ويرتبكن فتخرج السكين عـن مسارها الطبيعي وتعمل في أيديهن بدل الفاكهة وهنَّ غافلات.

وبعد فترة صمت وجيزة، وجدت ألسـنتهن إلى الكـلام سـبيلًا، فانطلقـت قائلة: حاشى لله أي تنزه الله عن صفات العجز، وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثل هذا الجمال لا يمكن لمثل هذا المخلوق أن يكون بشـرًا، فجمـال البشر يعرفنه، فلابد أن يكون ملكًا كريمًا.

ونجحت حيلة امرأة العزيز؛ فقد انتزعت منهن شهادة تبرئتها من السـقوط في الرذيلة، فمثل هذا المخلوق بشهادتهن لا تستطيع امرأة أن تقاوم حبها لـه، ورغبتها فيه وتعلن أمامهن انتصارها: هذا هو الذي لمتننـي فيـه، ثـم تعتـرف بأنها هي التي راودته عن نفسه، فعف عنها، وتصر على اسـتمرارها في إغرائـه حتى تنال منه مأربها وإلا فمصيره السجن والإذلال.

ويرى يوسف افتتان النساء به، ويسمع تهديد امرأة العزيز له بالسـجن إن لم يخضع لرغبتها، ويخشى أن يقع في حبائلهن وترغمـه امـرأة العزيـز عـلى مـا تريد، فيلجأ إلى الله ضارعًا أن يصرف عنه مكرهن، إنـه يفضـل السـجن عـلى الوقوع في غواية هؤلاء النسوة وإغرائهن، فاستجاب الله دعـاءه فصـرف عنـه

كيدهن، فالله يسمع دعاء عباده المخلصين، ويعلم ما يجيش بأنفسهم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(الآيات: ٣٠- ٣٤).

ولكن زوج المرأة ومستشاريه- مع اتضاح براءة يوسف لهم، وتأكدهم منها- فكروا في الأمر، فقرروا سجنه ربما خوفًا من الفضيحة أن تشيع أكثر، وربما خوفًا على امرأة العزيز أن تستمر في إغوائه حتى تقضي منه وطرها.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾

(الآية: ٣٥).

ويكون السجن فاتحة خير ليوسف، وتمهيدًا لتمكينه في الأرض- أرض مصر- يتصرف في أموالها وفي أقدارها كما يشاء، فقد دخل معه الحبس فتيان- وقد عرفا بطريقة ما قدرة يوسف على تفسير الأحلام- فقص عليه كل

منهما رؤية رآها في نومه، قال أحدهما: رأيت في المنام أني أعصر عنبًا لأجعله خمرًا، وقال الآخر: رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزًا أخذت الطير تأكل منه، ويطلبان من يوسف تفسير هذين الحلمين، ويصفانه بأنه من المحسنين الذين يتقنون تفسير الأحلام، والذين لا يبخلون بعلمهم على من طلبه منهم.

ينتهز يوسف هذه الفرصة ليدعوهما إلى عبادة الله وحده، فهو لم ينس أنه نبي وابن نبي من سلالة أنبياء، وأن أسمى أهدافهم الدعوة إلى عبادة الله وحده، ويبدأ في التمهيد لدعوته، فيبين لهما قدرته على معرفة بعض الأمور التي يختص بها الله بعض عباده الأصفياء، ويبين لهما أن ذلك من علم الله الذي علّمه إياه، وذلك لأنه ترك ملة القوم الذين يعبدون غير الله، ويكفرون بالآخرة، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب التي تقوم على إخلاص العبادة لله وحده، وعدم إشراك أحد معه فيها، ويعد ذلك من فضل الله عليهم، بل على الناس جميعًا، فأعظم نعمة حبا الله بها الناس أن منحهم نعمة معرفته، والإيمان به وحدهن ونتيجة لذلك يتحرر عقل الإنسان، وتتحرر إرادته، ولا يشعر بسلطان أحد من البشر عليه ولكن أكثر الناس يجحدون هذه النعمة، ولا يشكرون الله عليها فيؤمنوا بها.

يقول تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ

كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ (الآيات: ٣٦-٣٨)

ويستمر يوسف في خطاب صاحبي السجن فيسألهما الموازنة بين عبادة آلهة كثيرة متفرقة مختلفة، وبين عبادة الله الواحد القهار، وهكذا يضعها أمام أمرين لا يملكان إلا أن يختارا الثاني منهما وهو عبادة الله والواحد القهار وهو- كداعية إلى الله- يفهم طبيعة النفس البشرية وتمردها على أي إجبار يقع عليها، فلم يفرض عليهما أمرًا من الأمرين، وإنما تركهما يختاران، وقد يكون هناك مجال لاختيارهما عبادة الإلهة لو أنها كانت تملك من أمرها شيئًا، أو من أمر عبادها شيئًا، وإنما هي- كما قال- مجرد أسماء سموها ما أنزل الله بعبادتها حجة، ثم يصل إلى النتيجة النهائية، وهو أنه لا حكم إلا لله، وأن الله قد أمر بعبادته وحده، وأن ذلك هو الدين الصحيح القويم، وأن ذلك قد خفى على أكثر الناس مع وضوحه، وذلك لاتباعهم أهوائهم.

يقول تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الآيتان: ٣٩، ٤٠)

وهكذا أثبت يوسف أنه لا ينسى أبدًا أمر دينه، ويحرص دائمًا على أن يدعو إليه كلما وجد فرصة لذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل فيه بالتي هي أحسن.

ثم يأخذ يوسف في تفسير حلميهما، فالأول سيستدعي إلى الملك ليكون ساقيه، وصاحب خمره وأما الآخر فيصلب، وتأكل الطير من رأسه، وبلهجة الواثق بما يقول يحسم الأمر ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ (الآية: ٤١)، فلا مكان لمناقشة أو حجاج أو اعتراض.

ويرى يوسف الفرصة قد سنحت ليُعرَض أمره على الملك كي يأمر بالإفراج عنه، فيوصي الناجي من الاثنين أن يذكر أمره عند الملك، ولكن الناجي ينسيه الشيطان ذكره عند الملك، فيلبث في السجن بضع سنين.

يقول تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ (الآيتان: ٤١، ٤٢)

ثم تحين الفرصة لأن يُذْكَر يوسف عند الملك، فقد رأى الملك رؤيا عجيبة أفزعته وحيرته، فاستدعى مستشاريه، وقصها عليهم، فلم يعرفوا لها تأويلًا، وقالوا: أنها أضغاث أحلام، ولا يعرف أحد لها تفسيرًا.

هذه الرؤيا التي رآها الملك هي سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات مهزولة كما رأى سبع سنبلات من سنابل القمح خضرًا، وسبعًا أخرى يابسة، وكان الساقي الذي فسر له يوسف رؤياه السابقة حاضرًا، فقفز إلى ذهنه يوسف الذي نسيه سنين طويلة، فتقدم إلى الملك مخبرًا أنه يعرف من يستطيع

تفسير هذا الحلم، فأرسِلْني إليه، فأرسله الملك فدخل إلى يوسف معظمًّا من قدره، مخاطبًا إياه بالصديق، وأخبره برؤيا الملك، فقال له يوسف: أما سبع البقرات السمان فهي سبع سنين خصبة رخية يجود فيها محصول القمح، وعليكم ألا تنزعوا القمح من سنابله إلا ما تحتاجون إليه لأكلكم؛ لأنه سيعقب هذه السنين الخصبة سبع سنين مجدبة يمتنع فيها المطر، وتجدب الأرض، فتأكلون في هذه السنوات السبع معظم ما ادخرتموه في السنوات الخصبة.

وهكذا لم يكتف يوسف بتفسير الرؤيا بل نصح بطريقة عبور هذه الأزمة، ثم تطوع بأمر غيبي آخر لم يرد في الحلم، لتعليمهم وتبشيرهم وهو أنه سيأتي بعد ذلك عام يغزر فيه المطر، وتنبت الأرض زروعها ويعصر الناس أعنابهم.

يعود الرسول مستبشرًا ويخبر الملك بتفسير الرؤيا، فيصدر الملك أمرًا بإحضار يوسف، فيعود إليه الرسول ظنًّا أنه سيبادر إلى تلبية أمر الملك، فقد تحقق أمله في الخروج من السجن، ولكن يوسف- كعادة الشرفاء من الناس- يحرص على أن تظل سمعته نقية وأن يزيل عنها أي أمر يشوبها، فيجدها فرصة لإظهار براءته على الملأ، فيطلب من الرسول أن يرجع إلى سيده، ويسأله على رءوس الأشهاد: ما شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن لما رأين يوسف عند امرأة العزيز، فالله أعلم بمكرهن، فيستدعي الملك النسوة وفيهن امرأة العزيز، فيعلنَّ أنهن ما عرفن عنه ميلًا إلى الفاحشة، ولا استجابة

لإغراء النساء، وتقول امرأة العزيز بلهجة قاطعة: الآن وضح الحق، أنا التي راودته عن نفسه، وإنه لصادق في نفي الادعاءات السابقة.

ويصل الخبر إلى يوسف فيبين سر إصراره على طلب هذه الشهادة، وذلك ليعلم العزيز أن يوسف لم يكن خائنًا له في غيابه، ولم يستحل حرمته؛ لأنه يعلم أن الله لا يوفق الخائنين، ولا يسدد خطاهم، ثم يدركه التواضع، فينفي عن نفسه الزعم بأنه مبرأ من كل سوء، فالطبيعة البشرية لا تخلو من بعض نوازع الشر، وليس هناك ملجأ من هذه النوازع إلا رحمة الله سبحانه وتعالى فهو وحده العظيم المغفرة الكثير الرحمة.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ

رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الآيات ٤٣-٥٣)

ونلاحظ في هذه الآيات سمو البلاغة القرآنية، وما تتميز بـه مـن إيجـاز لا يخل بالمعنى، بل يثير الذهن فيجعله دائمًا متطلعًا منتبهًـا، فـالقرآن لا يـذكر التفصيلات التي يمكن أن تفهم مـن العبـارة، فمـثلًا عنـدما يقـول السـاقي: «فأرسلون» لا يقول القرآن: «فأرسلوه فذهب إلى يوسف وقال له» لأن ذلـك يمكن فهمه من سياق الكلام، فلا بأس بتركه طلبًـا للإيجـاز، والتركيـز عـلى جوهر القصة، وكذلك حينما ينتهي مـن تفسـير الرؤيـا لا تـذكر الآيـات: أن الساقي عاد وأخبر الملك فسُرَّ بذلك، لا داعي لذلك فهو مفهوم من السياق، وكذلك حينما طلب يوسف من الرسول أن يرجع إلى ربه ويسـأله عـن شـأن النسوة لم تذكر الآيات أنه عاد وأخبر سيده، وأن الملك استدعى النسوة فقلن ما قلن وكذلك لم تذكر عودة الساقي إلى يوسف، وإخباره بإعلان براءته وإنما ذكرت إعلان يوسف حفظه لغيب سيده، عـلى أن بعـض المفسـرين يجعـل ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الآيات من قول امرأة العزيز، ولكن يضـعف هذا الرأي التضمينات الإيمانية التي جاءت فيها مما يدل عـلى إيمـان عميـق بالله، وعلم بعصمته مثل: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ

﴿رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمثل هذه الأقوال جاءت عقب تصريح امرأة العزيز مباشرة بتبرئة يوسف، فقد عرفنا أسلوب القرآن وإيثاره لإيجاز الحذف.

يكتسب يوسف ثقة الملك، فيطلب إحضاره، ليكون أهم خلصائه ويخبره أن له في الدولة أعلى مكانة، فيطلب يوسف من الملك أن يوليه خزائن الدولة، لما يمتاز به من حفظ، ودراية بأمور المال، فالبلد مقبل على رخاء يعقبه جدب، وليس مثل يوسف من يدبر الأمور في هذه الفترة، فقد أشار قبل ذلك بالطريقة المثلى التي يجب اتباعها في السياسة الزراعية في البلاد عقب تفسيره الرؤيا، ويلبي الملك طلبه، وكعادة القرآن في إيجازه البليغ لا يذكر موافقة الملك، وإنما يذكر المكانة العالية التي وصل إليها يوسف حيث أصبح مطلق اليد في كل شئون البلاد المالية، وذلك بفضل الله ورحمته الذي لا يضيع أجر المحسنين.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الآيات ٥٤-٥٦).

ثم تدخل القصة في طور حاسم يمهد للقاء يوسف بأبيه، وتحقيق رؤياه القديمة، فقد جاء إخوته ليشتروا قمحًا من مصر، فيدخلون على يوسف فيعرفهم وهم لا يعرفونه، ويبدو من مفهوم الآيات أن يوسف استدرجهم في

حواره معهم ليذكروا أن لهم أخًا صغيرًا، هو أخوه الذي كانوا يحسدونه أيضًا لحب أبيه له، ولكن القرآن لا يصرح بذلك كما عرفنا من أسلوبه الذي يميل إلى الإيجاز، وترك التفصيلات التي يمكن أن تفهم من سياق التعبير، يطلب يوسف من إخوته إحضار أخيهم الأصغر ويحثهم على ذلك مذكرًا إياهم أنه قد أوفى لهم الكيل، وأنزلهم خير منزل أثناء وجودهم للشراء، وينتقل من الحث إلى التهديد بأنه لن يتعامل معهم، وسيمنعهم من دخول البلاد لأخذ الميرة إذا لم يأتوا بأخيهم، وما فعل يوسف ذلك إلا ليحملهم على مقاومة رفض أبيهم الذي لدغ منهم مرة قبل ذلك.

وَعدوه أنهم سيبذلون جهدهم في حمل أبيهم على السماح لهم باصطحابه في عودتهم، وقد أمر يوسف- زيادة في إغراء إخوته على إحضاره- بأن يردوا إليهم بضاعتهم التي أتوا بها ليستبدلوا بها القمح ويجعلوها في أوعيتهم دون علمهم حتى إذا وجدوها عند عودتهم دفعهم ذلك إلى الرجوع.

يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الآيات ٥٨-٦٢) .

لاحظ استخدام لفظ «سنراود» الذي يعبر عن استخدام أقصى درجات

اللطف والترفق مع أبيهم، حتى يسمح لهم بأخذه، وذلك لسابقتهم معه.

يرجعون إلى أبيهم، وقلوبهم مثقلة بهذا الطلب الذي يعرفون سوء وقعه على أبيهم، ولخشيتهم من سوء ظنه بهم، ولذلك يبادرون أباهم بإخباره بهذا الخبر الشديد على من يعيشون في شبه مجاعة ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ ولا سبيل إلى الحصول على ما يريدون إلا إذا أرسل أخاهم معهم فهذا هو شرط كيلهم القمح ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾- ويعدونه بحفظه- ولكن هل يأمنهم أبوهم على هذا الأخ بعد أن جرب خداعهم له من قبل.

سؤال يسأله إياهم فلم يحيروا جوابًا، ويعزى يعقوب نفسه بأن الله هو خير الحافظين، وهو أرحم الراحمين، ثم كانت المفاجأة السارة التي تؤيد طلبهم، وتشفع له بالقبول؛ فقد وجدوا بضاعتهم في أوعيتهم قد ردت عليهم، فيسارعون إلى أبيهم قائلين: ماذا نريد بعد ذلك، لقد ردت إلينا بضاعتنا، فسنعود إلى هذا الحاكم الكريم، نحضر المؤن إلى أهلنا، ونبذل جهدنا في حفظ أخينا، وتكون فرصة لزيادة كيل جمل- هو جمل أخيهم- وذلك أمر يسير على عزيز مصر لسخائه وكرمه، وتلين إرادة يعقوب أمام التهديد والإغراء، ولكنه يطلب منهم عهد الله وميثاقه أنهم يعيدونه إليه إلا في حالة واحدة حالة الاضطرار- أن يحاصروا ويمنعوا من العودة لأمر قاهر- وكأن الله قد ألهمه ما سيقع لابنه كما ألهمه من قبل ضياع يوسف، فأعطوه الميثاق، فجعل الله وكيلًا على قولهم، ثم أوصاهم بوصية، وهي ألا يدخلوا جميعًا من باب واحد؛

بل يدخلون متفرقين من أبواب متفرقة، وذلك لخشيته من الحسد، مع علمه بأن الحكم كله لله، ولن تغنى هذه الوصية شيئًا أمام إرادة الله، وإنه لمتوكل على الله الذي يتوكل عليه المتوكلون.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ۝٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الآيات ٦٣-٦٧)

أخذوا أخاهم معهم، وذهبوا إلى يوسف، وأنفذوا وصية أبيهم فدخلوا من أبواب متفرقة، ولم يوصهم يعقوب هذه الوصية إلا ليشعر في نفسه بالراحة والطمأنينة؛ فهو يعلم أنه لا يستطيع منع الضر عنهم إذا أراد الله إيقاعه بهم، فقد علَّمه الله ما يليق به كنبي أن يَعْلَمه من عظمة الله وقدرته ونفاذ مشيئته، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

ثم دخلوا على يوسف، فضم أخاه إليه، وعرَّفه- بينه وبينه- أنه أخوه،

وأوصاه ألا يحزن لما فعله إخوتهما بهما، ثم احتال ليُبْقي أخاه معه، فبعد أن جُهِّزَتْ متطلباتهم من القمح، وأخذ العبيد يضعونها في أحمالهم وضع يوسف القدح الذي يشرب فيه الملك في متاع أخيه دون علمهم، ثم نادى منادٍ في القافلة: أيها الناس لقد سرقتمونا- فدهش إخوة يوسف وقالوا- وقد عادوا إليهم بعد أن كانوا قد أزمعوا الرحلة- ما الذي ضاع منكم؟ قالوا ضاع القدح الذي يشرب فيه الملك، وقد قررنا مكافأة لمن يرده- حمل بعير من الطعام- والعزيز نفسه كفيل بذلك، فأقسموا لهم أنهم ما جاءوا هذه البلاد ليرتكبوا فيها جرائم، وليست في طبيعتهم السرقة، فردوا عليهم فما الجزاء الذي يستحقه من وُجد القدح في متاعه منكم إن كنتم كاذبين في قولكم، قالوا: جزاؤه أن يكون عبدًا لمن سرق منه، فهذا الجزاء الذي نحكم به في مثل هذه الحالات.

وهكذا نجحت خطة يوسف التي مهد لها، وذلك بوضع القدح في متاع أخيه، ثم سؤالهم عنه بطريقة مستفزة حينما أخبروهم أول وهلة أنهم سارقون حتى يرغموهم على أخذ الأمر بجدية، ثم يقررون مكافأة لمن يدل عليه لبيان حسن النية، ويوسف واثق أنه لن يدل عليه أحد؛ لأن إخوته لا يعرفون شيئًا عن المؤامرة، وأخوه هو الذي وُضع في متاعه على علم بالحيلة، كما أن يوسف يعرف القانون المطبق عندهم وهو استرقاق السارق، ويعلم أنهم لابد أن يطلبوا تطبيقه وخصوصًا أنهم متأكدون من براءتهم جميعًا.

وبدأ في تفتيش أمتعتهم، وكي لا تنكشف الحيلة بدأ التفتيش في أمتعتهم، وترك أمتعة أخيه إلى نهاية المطاف، ثم فتشه فوجده في متاعه فلم يعد مناص من أخذه عبدًا ليوسف، وهذا التدبير هو تدبير الله سبحانه وتعالى، فما كان من الممكن أن يسمح ليوسف بمعاملة أخيه بقانون الملك الذي فيه جلد وغرامة، وهو عكس المراد، فالمراد هو احتجاز أخيه، لا فضحه، وقد أراد الله ذلك ليرفع درجات يوسف، وأن يهبه من علمه.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (الآيات ٦٨-٧٦).

صدق إخوة يوسف ما رأوه بأعينهم، ولم يجدوا مناصًا من الاعتراف

بسرقته، وتطبيق حكمهم عليه، ولكنهم ساخطون عليه لفعلته المزعومة، فينفسون عن ضيقهم بذمه وذم أخيه يوسف، ويقررون أن السرقة طبيعة فيهما وأن هذا الأخ إذا كان سرق فقد سرق أخوه يوسف من قبله، يسمع يوسف هذا فيقول في نفسه دون أن يخبرهم بذلك: إنكم شر من هذين البريئين بما اجترحتموه من قبل، من خطف يوسف وإلقائه في البئر، والله يعلم براءتنا مما تصفوننا به.

وقع المحذور الذي تنبأ به أبوهم من قبل، وكان يخشاه، فقد أحيط بهم، ومنع أخوهم من العودة، فيتوسلون إلى يوسف أن يأخذ أحدهم بدله؛ لأن أباهم شيخ كبير لا يتحمل صدمة فقد ابنه الأثير لديه، وهم يرون العزيز من المحسنين الذين لن يضنّوا بتحقيق مثل هذا المطلب، ولكنه يستعيذ بالله من هذا الظلم، فكيف يأخذ بريئًا مكان مجرم، ولكن يوسف تلطف في التعبير- لأنه يعرف براءة أخيه وأنه ليس سارقًا- فلم يقل لهم إنه لص سرق، بل قال: ﴿وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ وصدق في قوله هذا.

يقول تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ (الآيات ٧٧-٧٩)

سقط في أيديهم، ويئسوا من الرجوع بأخيهم فخلَوا إلى أنفسهم يتسارُّون: ما العمل، وكيف يواجهون أباهم، أما أخوهم الأكبر فلم يجد في نفسه القدرة على مواجهة أبيه بعدما حدث، وأعلن لإخوته أن أباهم قد أخذ عليهم العهد والميثاق أن يحافظوا على أخيهم، وقد أضاعوا يوسف من قبل، وقرر أنه لن يترك هذه البلاد حتى يسمح له أبوه بالعودة بعد تصديقه ظروفهم القاهرة، أو يحكم الله بالإفراج عن أخيه، وعودته إلى أبيه، وطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم، ويخبروه بأن ابنه سرق، وهذا هو واقع الأمر، ولم نكن نعلم الغيب ونعلم أنه سيسرق، وإلا ما كنا أخذناه معنا، وإن لم تُصَدِّق فليستشهد أهل مصر على ما حدث، وليسأل القافلة التي حضروا فيها، وإننا لصادقون في قولنا ولكن أباهم لم يصدقهم- ومعه كل الحق- وقال لهم: لقد لعبت بكم أهواؤكم، وزينت لكم الشر، فصبر جميل، ولكن الأمل لم ينقطع في لقائه بابنيه ثانية بفضل الله وكرمه، فهو العليم بحاله، الحكيم في أمره.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الآيات ٨٠-٨٣)

أعرض عنهم أبوهم، وأخذ ينتحب على يوسف- فقد أثار شجونه فقد أخيه الذي يشارك يوسف في بعض حب أبيه- وظل يبكي حتى ذهب بصره، وقد أكل الغيظ والحزن قلبه، ويلومه أبناؤه على كثرة بكائه، وتذكره ليوسف، وشدة حزنه الذي سيودي به، ويجعله في عداد الهالكين، فيجيبهم أنه لا يشكو إليهم، وإنما يشكو شدة حزنه إلى الله، وإنه ليعلم من الله ما لا يعلمونه من حياة يوسف، وما يرجوه من لقائه، ثم يحثهم على مواصلة البحث عن يوسف وتقصي أخبار أخيه، وينهاهم عن اليأس من رحمة الله في العثور عليه؛ فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا الكافرون.

يقول تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الآيات ٨٤-٨٧).

وحان الوقت الذي يكشف فيه يوسف عن نفسه، وآن الأوان ليجتمع شمل الجميع، بعد أن رأى من ذلة إخوته، وسوء حالهم ما أحزنه، فقد ذهب إخوة يوسف إليه، ومعهم بضاعة رديئة لا يقبلها أحد، يريدون أن يستبدلوا بها قمحًا، وهم يخشون أن يرفض العزيز ذلك، فيضرعون إليه معبرين عن سوء حالهم، ورداءة بضاعتهم، ويلتمسون إحسانه في قبولها، وإيفاء الكيل لهم

وليعتبر ما يعطيه لهم صدقة، فهو يعرف أن الله يجزل مكافأة المتصدقين.

يرثي يوسف لحالهم، ويرى أن الوقت قد حان لكشف حقيقة شخصيته، فيسألهم: أتذكرون ما فعلتم بيوسف وبأخيه أيام حماقتكم وطيشكم؟ تملؤهم الدهشة والعجب، ويحدقون النظر فيه متسائلين: أأنت يوسف؟ فيجيبهم: نعم، إنني أنا يوسف وهذا أخي قد أنعم الله علينا بنعمة اللقاء، ومنحني الملك والمكانة، وهذا جزاء المتقين الصابرين، وقد اتقينا وصبرنا فلم يضيع الله أجرنا، فأقسموا بالله أنه أهل لكل هذا، وأن الله فضله عليهم، واعترفوا بأنهم كانوا خاطئين.

فيبادر بالعفو عنهم دون طلب منهم قائلًا: لا لوم عليكم منذ اليوم، واسأل الله لكم المغفرة والرحمة، وهو جدير بتحقيق ذلك، لأنه أرحم الراحمين، ثم يعطيهم قميصه ليذهبوا به إلى أبيه، ويلقوه على وجهه فيعود بصيرًا، وطلب إليهم أن يحضروه إليه، ويحضروا أهلهم أجمعين.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

ﱣ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﱢ (الآيات ٨٨-٩٣)

ويأتي الفصل الأخير من هذه القصة، ليشيع البهجة في النفوس ويتم هذه القصة المليئة بالدروس والعبر، فقد تركت القافلة مصر متجهة إلى الشام موطن أبيهم يعقوب، ويحس أبوهم بإلهام النبي، وقلب الأب أن ريح يوسف يقترب منه، ويخشى أن يُكذِّب أهله، هذا الإحساس ويسفهوا قوله وقد صدق ظنه فقد لامه الموجودون من أهله على استمراره في خطئه القديم، وتشبثه بالأماني الكاذبة، ولكن البشير يجيء، ويلقى القميص على وجهه، فيعود إليه بصره، فقد فعلت رائحة يوسف فعلها في نفسه، فيكون أول قول يقوله: تسفيه رأى من سفهوا رأيه من قبل، وإخبارهم أن الله قد علمه ما لم يكونوا يعلمون، فيبادره أبناؤه بطلب استغفار الله لهم؛ لأنهم كانوا خاطئين فيخبرهم أنه سوف يفعل ذلك.

نلاحظ هنا الفرق بين موقف يوسف من إخوته، وموقف أبيه منهم، فيوسف بادر بالعفو عنهم دون طلب منهم ﱣ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﱢ، وأما يعقوب فلم يبادر بذلك بل هم طلبوه منه، فوعدهم أن يستغفر الله لهم، وما ذلك إلا لأن يعقوب هو الذي عانى أشد المعاناة من فقد ولده الحبيب، ودون عوض عن ذلك إلا إيمانه بالله وأمله فيه، لكن يوسف وجد في غدر إخوته الوسيلة التي حققت له ما وصل إليه من مكانة.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الآيات ٩٤-٩٨).

وتختم القصة باللقاء العظيم بين الابن الغائب وبين أبويه وإخوته فأما أبواه فقد أخذهما يوسف، وضمهما إليه، وأسبغ عليهما عطفه وبره ورعايته، وقال للجميع: ادخلوا مصر يرفرف عليكم طائر الأمن في ربوعها بمشيئة الله وفضله، ثم رفع أبويه فأجلسهما على العرش، وخروا جميعًا له ساجدين كما هي العادة في تحية الملوك، فقال يوسف لأبيه: لقد تحققت رؤيا صباي فإخوتي هي الكواكب الأحد عشر، وأنت وأمي الشمس والقمر، ثم يذكر فضل الله عليه، الذي أحسن إليه أعظم إحسان، فقد أخرجه من السجن الذي كانت عاقبته تبوُّءَه المكانة العظيمة التي يحتلها الآن، ثم مجيئهم إليه من البادية، وذلك بعدما أغوى الشيطان إخوته وأفسد ما بينهم وبينه وبين أبيهم، وكان هذا من لطف الله الذي يسبغه على من يشاء وما يشاء، فهو العليم بكل أمر، الحكيم في كل تدبير.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا

تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الآيات ٩٩-١٠٠).

ونلاحظ أنه لأول مرة تذكر الآيات أم يوسف في مضمون الأبوين، ويبدوا أنها لم تكن أمه، بل كانت زوجة أبيه، وهي في مقام الأم، وإلا لو كانت أمه موجودة لكان حزنها على يوسف لا يقل عن أبيه، إن لم يزد، وكان القرآن ذكر هذا الحزن.

كما نلاحظ أدب يوسف في ذكر الخلاف بينه وبين إخوته، فقد نسبه إلى الشيطان، فهو الذي نزغ بينهما، وأفسد العلاقة الأخوية.

وفي الختام الأخير للقصة يتوجه يوسف إلى الله بالحمد والثناء والتضرع، فهو يحمده على ما أنعم عليه من الملك، ومن العلم بتفسير الرؤى والأحلام الذي كان سببًا في كل ما وصل إليه من خير، ويثنى عليه بأنه خالق السموات والأرض، وأنه وليه في الدنيا والآخرة، لا يشرك معه أحدًا في ولايته، ويتضرع إليه أن يتوفاه على ملة الإسلام الذي هو الدين الذي اختاره الله لعباده، وأن يجعله رفيقًا للصالحين في الآخرة.

يقول تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الآية: ١٠١).

وتنتهي القصة ويذكر الله الهدف من ذكرها فهي الدليل على نبوة محمد ﷺ،

فهذه القصة من أبناء الغيب الذي أوحاه الله إليه، فلم يكن معهم حينما دبروا المكيدة لأخيهم، ولكن مع هذه الأدلة الواضحة نجد أكثر الناس لا يؤمنون مع حرص الرسول على ذلك، وهو لا يسألهم في مقابل الإيمان أجرًا ولكن جاء قرآنه تذكرة للعالمين، ودعوة لإيمانهم.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأ[illegible]: ١٠٢ - ١٠٤).

تشتمل قصة يوسف على دروس أخلاقية واجتماعية كثيرة، نشير إلى بعضها في ختام القصة، وفي عجالة سريعة:

فأول درس أخلاقي اجتماعي أن الحسد غريزة في البشر، حتى بين الأخوة، فما الحسد إلا لون من الأنانية، فكل إنسان يجب أن يكون في المقام الأول من حب أبويه، ومن حب كل من يحيط به، فإذا وجد هذا الحب انصرف إلى نظيره ومثيله، اشتغلت نار الغيرة في قلبه، ونسى كل صلة تربطه بالذي يحسده، كما حدث مع إخوة يوسف، فالذي دفعهم إلى هذه المؤامرة حب أبيهم الواضح والغامر لأخويهما الصغيرين ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وواجب كل أب ألا يفرق بين أبنائه في عواطفه في الظاهر على الأقل.

ودرس آخر نتعلمه من هذه القصة العظيمة، وهو أن الشدة مهما تعاظمت والظلمات مهما تكاثفت لابد أن يعقبها انفراج، ويبدد ظلماتها النور، فواجب

الإنسان أن يتحملها بصبر وإيمان، وقد علمنا الله في سورة أخرى ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولا نتيجة للجزع إلا تحطيم قدرات الإنسان، فكل ما قدره الله نافذ، والله يدخر للصابرين جزاءً عظيمًا في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معًا.

ودرس ثالث يعلي من قيمة الأمانة والإخلاص والاستقامة، فهذه الصفات كانت رائدة يوسف في كل سلوكه مهما كثرت حوله المغريات، وغلت في النفوس الشهوات، فكان أمامها كالطود الراسخ لا يتزلزل، وما الذي ساعده على ذلك؟ إنه كان يرى دائمًا أمامه برهان ربه، وقد جازاه الله خير جزاء على ذلك.

ودرس رابع أن على كل مؤمن قد ملأ الإيمان قلبه أن يدعو كل من يستطيع إلى الإيمان بالله وحده بالحكمة والموعظة الحسنة في الوقت المناسب، وينتهز الفرصة السانحة، أو يوجدها إذا استطاع.

ودرس أخير، وليس آخر هذه الدروس الكثيرة، وهو أنه لا بأس من استعمال الحيلة للوصول إلى الحق على ألا يكون في ذلك إضرار ببريء، كما فعل يوسف لاحتجاز أخيه معه، والله أعلم.



٨- شعيب عليه السلام

وهو نبي ينتمي إلى سيدنا إبراهيم، ولا يعرف تسلسل نسبه على وجه التأكيد، ويبدو من اسمه أنه من أصل عربي، فشعيب تصغير شعب، وقد جاء مصروفًا في القرآن الكريم مما يدل على أنه ليس اسمًا أعجميًا، وهو من مَديَن، وقد تكون اسم بلد أو اسم قبيلة.

ويفهم من آيات القرآن الكريم أنه أرسل إلى أهل مدين وهم قومه، وأرسل إلى أصحاب الأيكة، وهم ليسوا قومه؛ لأن الله سبحانه كان ينعته بأنه «أخو» مدين، وعندما ذكر تكذيب أصحاب الأيكة لم يقل عنه إنه أخوهم كما سنرى.

ويتضح من حديث القرآن عن دعوته وأنه أرسل إلى قوم تجار يتعاملون في الكيل والميزان، وقد وردت قصته في أربع سور فقط هي على حسب ترتيب النزول: الأعراف، الشعراء، هود، والعنكبوت.

وأحداث قصته يسيرة، ولا تختلف في سردها كثيرًا من سورة إلى أخرى كما سنعرف.

تأتي قصة شعيب في هذه السورة على نسق قصص الأنبياء التي وردت قبلها وهي قصص: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وتبدأ مثلها بأن الله أرسل إلى

مدين أخاهم شعيبًا- وقد ذكرنا قبل أن الأخوة يراد بها الانتماء إلى القبيلة- ودعاهم نفس دعوة الأنبياء وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقد أخبرهم بأنه جاءتهم بينة من ربهم: أي دعوة بإيفاء الكيل والميزان، وألا ينقصوا من قدر ما يشترونه من غيرهم سواء من حيث قيمته وتقديرها أقل من قدرها، أو نقص كيلها أو ميزانها.

وإلى جانب هذه الدعوة دعاهم إلى أمور أخرى كانوا يمارسون ضدها، فقد دعاهم إلى عدم الإفساد في الأرض بعد أن كانت صالحة بما هيأه الله فيها من وسائل مادية تحقق للناس أمور معايشهم في سهولة ويسر، ووسائل معنوية بما حضهم عليهم من مُثل وقيم ومبادئ، كما دعاهم إلى عدم قطع الطريق على الناس، والقعود لهم بكل مرصد، يمنعونهم عن الوصول إلى شعيب لسماع دعوته والإيمان به، أو يجبرونهم على ترك الإيمان به إن كانوا آمنوا، وذلك بقصد أن يستمر الضلال والانحراف في المجتمع ويغريهم شعيب باتباع دعوته، بتذكيرهم بما مَنَّ الله عليهم من رغد عيش أدى إلى كثرتهم بعد أن كانوا قلة، كما ذكرهم عاقبة المفسدين من حولهم، وما آل إليه أمرهم، ثم يذكر نفاذ صبره من تعنتهم وإصراهم على طريقتهم الفاسدة، ويبين أنهم إن كانوا قد انقسموا إلى فريقين: فريق معه آمن برسالته، وفريق استكبر وأبَى دعوته فقد وكَّل أمره إلى الله فهو الذي سيفصل بين الفريقين، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، وما عليهم إلا أن يصبروا حتى يصدر الحكم الإلهي على الفريقين.

يقول تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (الآيات: ٨٥-٨٧)

يدور ذلك بعد ذلك حوار بين قومه وبينه يدل على عتوهم واستكبارهم فأشراف القوم المستكبرون يهددونه ومن معه بنفيهم من أرضهم، ولن يسمحوا لهم بالإقامة إلا إذا عادوا إلى دينهم دين الشرك والبغي والفجور.

فيرد عليهم شعيب بهدوء وفي إيجاز: حتى لو كنا نكره ذلك؟ ثم يبين عاقبة طاعة قولهم وهي الكذب على الله إذا عادوا إلى هذا الكفر والشرك بعد أن نجاه الله ومن معه منهما ثم يبين لهم استحالة العودة إلى هذا الدين الخبيث فيعلقها على مستحيل، وهو أن يشاء الله ذلك، وهذا أمر مستحيل، فالله لا يمكن أن يأمر بالكفر، ثم يثني على الله سبحانه، فقد وسع علمه كل شيء، ثم يتوكل عليه، ويدعوه أن يحكم بينه وبين قومه بالحق وهو خير الحاكمين.

يقول تعالى: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ (الآيات: ٨٨-٨٩).

بعد هذا الحوار يقرر هؤلاء المستكبرون الكافرون لقومهم أن اتباع شعيب الخسران بعينه، ولم يبق بعد هذا الإصرار إلا إنزال العذاب بهم، وقد أنزله الله فأخذتهم الرجفة، وهي الزلزلة الشديدة التي تركتهم جثثًا هامدة، تركهم شعيب غير آسف على مصيرهم، فقد دعاهم كثيرًا إلى عبادة الله وأبلغهم رسالاته، ونصح لهم، فلم يبالوا، فليس له أن يحزن على هؤلاء القوم الكافرين.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

(الآيات: ٩٠-٩٣)

في سورة الشعراء: (٤٧):

وفي سورة الشعراء تقص علينا بعض آياتها قصة أصحاب الأيكة وهم الفريق الآخر الذي أرسل إليهم شعيب، ولم يكونوا قومه كما كان أهل مدين،

بدليل أن الله تعالى لم يجعله أخاهم كما جعله مع أهل مدين، والأيكة شجر ملتف، ويبدو أنهم كانوا يعيشون فيما يشبه الغابة، ولعلها كانت قريبة من مدين، ولكن هل بعث شعيب إليهم مع أهل مدين في وقت واحد، أو بُعث إليهم بعد هلاك أهل مدين؟ لم تبين الآيات ذلك.

تبدأ الآيات على نفس النسق التعبيري الذي انتهجته السورة مع القصص السابقة لها، فتبدأ ببيان أنهم إذ كذبوا رسولهم قد كذبوا جميع المرسلين؛ لأن الدعوة واحدة، ثم تذكر أن شعيبًا - ولم تقل: أخاهم - كما قالت مع الأنبياء الآخرين للسبب الذي ذكرته قبل - قال لهم إنه رسول إليهم من عند الله أمينٌ في تبليغ رسالة ربهم، ودعاهم إلى تقوى الله وطاعته فيما يطلب منهم، وأنه لا يسألهم أجرًا في مقابل ذلك، لأن أجره على الله رب العالمين، ثم يدعوهم بعد ذلك نفس الدعوة السابقة التي دعا إليها أهل مدين، وهي إيفاء الكيل، وألا ينقصوا الكيل فيخسر الناس أشياءهم، وعدم الإفساد في الأرض، وهذا يدل على التشابه الشديد بين الفريقين في العمل والتعامل، حتى لقد يظن المتأمل أنهم فريق واحد عبر عنهم مرة أنهم أهل مدين، وأنهم أصحاب الأيكة مرة أخرى، والله أعلم أي ذلك كان، ثم دعاهم إلى تقوى الله الذي خلقهم، وخلق الأمم السابقة لهم.

يقول تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الآيات: ١٧٦-١٨٤).

لم يأبه القوم لدعوته بل اتهموه بأنه قد سُحِر، وذكروا أنه ليس إلا بشرًا مثلهم (نفس الاتهامات السابقة واللاحقة من الأمم لرسلهم) ولا يظنون إلا أنه كاذب، ثم تحدوه أن يسقط عليهم قِطعًا من السماء إن كان صادقًا، فلا يقول لهم إلا أن الله يعلم ما يعملون.

واستمروا في تكذيبه فاستحقوا العذاب الذي تمثل في حر خانق شديد، ثم رأوا سحابة كثيفة كأنها ظُلَّة (مظلة) فهُرعوا إليها يظنون فيها رَوحًا من الجو الخانق، ووقفوا تحتها فألهبتهم بشواظ من نار، فأهلكتهم جميعًا، وسماه الله عذاب يوم الظلة، ووصفه بأنه كان عذاب يوم عظيم.

ثم تختتم القصة بالعبارة التي اختتمت بها سائر القصص في السورة، وهي أن قصتهم عظة لمن يعتبر، وإن كان أكثر الناس غير مؤمنين، وأن الله هو العزيز الحكيم.

يقول تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الآيات: ١٨٥-١٩١)

وقد وردت إشارة موجزة عن أصحاب الأيكة في سورة الحجر (٥٤) دون ذكر لشعيب، وقد وصفتهم بأنهم كانوا ظالمين، وأن الله انتقم منهم، وإنهم- مع قوم لوط- في طريق أهل مكة وهو طريق واضح بيِّن، أفلا يعتبر أهل مكة بما جرى لهم.

يقول تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ (الحجر: ٧٨-٧٩).

كما ورد لفظ أصحاب الأيكة في سورة ق (٣٤) في معرض ذكر الأمم المكذبة لرسلهم قبل كفار مكة.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ (الآيات: ١٢-١٤).

في سورة «هود» (٥٢):

نعود إلى أهل مدين الذين يرد ذكرهم في سورة هود، وقصة شعيب مفصلة فيها كما في سورة الأعراف، لا تكاد تختلف عنها إلا في بعض المعاني كما سنرى.

تبدأ الآيات بذكر الله الذي أرسل إلى مدين أخاهم شعيبًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم أن ينقصوا الكيل والميزان، وذكر لهم أنهم يعيشون في خير ورخاء، وأنه يخاف عليهم- إذا لم يستجيبوا لدعوته ونصحه- أن ينزل بهم عذاب يحيط بهم فلا يغادر منهم أحدًا، ثم يكرر دعوته بإيفاء الكيل والميزان،

وألا يبخسوا الناس أشياءهم، فينقصوا قدرها أو قيمتها، وألا يفسدوا في الأرض، وذكر لهم أن ما حباهم الله به من خير يكفيهم، وفي الاكتفاء به خير لهم إن آمنوا، وأنه لم يُرسل رقيبًا عليهم، بل نذيرًا لهم بين يدي عذاب شديد إذا خالفوا.

يقول تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(الآيات: ٨٤-٨٦)

يجيبه قومه ساخرين: هل صلاتك قد أمرتك أن تترك عبادة وجدنا آباءنا عليها، أو أن نكف عن التصرف في أموالنا بالطريقة التي تضمن لنا الربح مهما كانت وسيلته، ولعل شعيبًا كان كثير الصلاة، فأرجعوا آراءه إليها، ثم يكملون ساخرين أو موبخين، إنك لأنت الحليم الرشيد، فإذا كانت سخرية فهم لا يعترفون بحلمه ورشده، كأن تقول لغبي: هل عقلك الذكي دلك على هذا؟

وإذا حملناها على التوبيخ كانوا معترفين بحلمه ورشده، فهم يلومونه أن يأمرهم بمثل هذا مع حلمه ورشده، وعلى أية حال فهم البعيدون عن الحلم والرشد لا هو، فهو لم يَدعُهم إلا إلى العدل والإنصاف، وقبل ذلك توحيد الله.

يجيبهم بهدوء طارحًا عليهم السؤال الذي طرح مثله من قبل نوح، وهود، وصالح، ومضمونه أخبرني عن موقفي من الله سبحانه، وقد رزقني منه رزقًا حسنًا، وأرشدني إلى الخير، أينبغي لي أن أكفر نعماءه، وأجحد فضله؟ وإن ما أنهاكم عنه أطبقه على نفسي أولًا، ولا أطلب منكم شيئًا أخالفكم إلى غيره، ولا أريد بدعوتي إلا الإصلاح ما استطعت إليه سبيلًا، ولا أطلب التوفيق والسداد إلا من الله، عليه توكلت، وإليه أرجع في كل أموره.

ثم ينصح قومه أن يتبعوه وينهاهم عن أن يحملهم خلافهم معه إلى عصيانه، فيتعرضون لعذاب يصيبهم مثلما أصاب من قبلهم قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، قوم لوط ليسوا بعيدين عنكم، فقصتهم ما تزال ماثلة في الأذهان، ويدعوهم إلى استغفار ربهم والتوبة وسوف يغفر لهم فهو رحيم بعباده إذا رجعوا إليه، مُجيبٌ لهم.

يقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ (الآيات: ٨٧-٩٠)

بعد هذه الخطبة البليغة الواضحة المَبنيَّة على الحجة والمنطق السليم يجبه قومه على كل هذا بأنهم لا يفهمون كثيرًا مما قاله، ويعلنون رأيهم فيه وهو أنه ضعيف (يقول المفسرون إنه كان مكفوف البصر) وأن صبرهم عليه، وتحملهم دعوته ليس إلا مراعاة لقومه الذين ينهجون نهجهم، ويؤمنون بدينهم الفاسد، وإلا كانوا رجموه وتخلصوا من إزعاجه لهم.

يسألهم شعيب متعجبًا: أتراعون خاطر قومي، ولا تعملون حساب الله سبحانه، وهو أعز من رهطي؟ هل ترون قومي أعز عليكم من الله الذي تخليتم عنه وجعلتم تعاليمه خلف ظهوركم، إن ربي محيط بكل ما تعملون وسيحاسبكم عليه وما دمتم مصرين على موقفكم، فأعطوا وفق الحالة التي اخترتموها منهجًا لكم، وسأعمل وفق الحالة التي اختارها الله لي، وسوف يتضح لكم سوء مصيركم، وتلقون العذاب المهين المخزي، وستعلمون من هو كاذب، وانتظروا حدوث ذلك قريبًا وأنا معكم منتظر.

يقول تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ (الآيات: ٩٢-٩٣).

وينزل العذاب بهم فقد جاء أمر الله به، ونجى الله شعيبًا والمؤمنين معه برحمة منه، وأخذت الظالمين من كفار قومه صيحة شديدة تركتهم جثثًا هامدة

في ديارهم، كأنه لم يكن لهم شأن قبل ذلك، ثم يحكم الله عليهم بالطرد من رحمته والإبعاد كما بعدت ثمود.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾(الآيتان: ٩٤–٩٥).

وإذا قارنا بين قصة شعيب في هذه الشورة وبينها في سورة الأعراف نجد اتفاقًا كثيرًا، واختلافًا قليلًا، فهما تتفقان في المبادئ الأساسية التي دعا إليها شعيب من توحيد الله، والوفاء بالكيل والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وعدم الإفساد في الأرض، وتختلفان في بعض ما تضمنه الحوار في كل منهما، فتنفرد سورة الأعراف بنهيه لهم عن قطع الطريق على الناس لصدهم عن سبيل الله، وتذكيرهم بفضل الله عليهم إذ كثرهم بعد قلة، وبيان أن القوم فريقان: فريق مؤمن، وفريق كافر.

كما تنفرد بذكر تهديد الملأ المستكبرين له ولمن معه بالنفي من البلاد إذا لم يعودوا إلى دينهم، ورفض شعيب ذلك، وتحدد نوع العذاب بأنه الرجفة أي الزلزلة الشديدة، وأخيرًا إعراضه عنهم بعد أن نزل العذاب غير آسف على مصيرهم.

وتنفرد سورة هود بطول الحوار الذي دار بين شعيب وقومه، وما فيه من حجج على صحة قوله، وتخويفهم من عذاب صيبهم مثل ما أصاب

المكذبين من قبلهم، وكذلك ما فيه من سخرية قومه به، واستهزائهم وتحقيرهم له بأنه ضعيف، وأنهم لا يتركون قتله، إلا من أجل قومه، ثم تحدد نوع العذاب بأنه الصيحة، ولا تعارض في ذلك، فالعذاب أحاط بهم: الأرض زُلزلت زلزالها من تحتهم، والصيحة المرهبة من فوقهم.

وقد تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن هناك سمات تعبيرية تنفرد بها بعض القصص في السور الثلاث: الأعراف، والشعراء، وهود.

أما الأعراف فتنفرد في قصص هود وصالح بهذه العبارة: «واذكروا إذ جعلكم خلفاء»، كما تنفرد بإعراض النبي عن قومه بعد هلاكهم في قصتي صالح وشعيب: فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي (في ثمود) ورسالات ربي (في مدين).

وتنفرد سورة الشعراء بالعبارات المكررة في البداية والختام: كذبت المرسلين إلخ، والختام: إن في ذلك لآية....الخ.

وتنفرد سورة هود بهذا التعبير: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ الآية في قصص نوح وصالح وشعيب.

كما تنفرد سورة هود في ختام القصة بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا﴾...والله أعلم.

في سورة العنكبوت: (٨٥):

وقد وردت فيها إشارة موجزة إلى قصة شعيب وقومه، فتذكر أن الله أرسل

شعيبًا إلى مدين، وتذكر أنه أخوهم، وقد دعاهم إلى عبادة الله، والعمل للنجاة في اليوم الآخر، وعدم الإفساد في الأرض فكذبوه فأخذتهم الرجفة التي ذكرت من قبل في سورة الأعراف، فأصبحوا جثثًا هامدة في ديارهم.

يقول تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (الآيات: ٣٦-٣٧)

وتنتهي قصة شعيب.



٩- موسى عليه السلام

وموسى أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن الكريم، فقد ورد اسمه حوالي مائة وثلاثين مرة في خمس وثلاثين سورة، كان وروده في كثير منها مرتبطًا بحدث أو أكثر، وفي قليل منها ورد ذكره في معرض ذكر أنبياء آخرين.

والأحداث المرتبطة بموسى متنوع متشعبة، لذلك سأقسمها إلى مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الميلاد والنشأة.

المرحلة الثانية: البعثة ومواجهة فرعون.

المرحلة الثالثة: النجاة من فرعون وعناد بني إسرائيل له وتيههم في صحراء سيناء.

وهذه المراحل لا تأتي متفردة في أغلب الأحيان، وإنما يتداخل بعضها في بعض.

الميلاد والنشأة حتى البعثة:

وقد ورد الحديث عنهما في سورتين اثنتين هما طه والقصص.

في سورة طه: (٤٥):

ورد الحديث في هذه السورة عن ميلاد موسى ضمن الحديث عن المنن

التي مَنَّ الله بها عليه، فقد مَنَّ الله على موسى بالبعثة، ثم يُذكَّر بمنة أخرى مَنَّ بها عليه، وذلك حينما ألهم أمه بعد ولادته أن تضعه في تابوت ثم تلقى بالتابوت في النيل، فيكون مصيره أن يقع في يد فرعون عدو الله وعدو موسى، الذي ألقى إليه النيل بالتابوت الموضع فيه موسى، وقد حبب الله موسى إلى فرعون وامرأته، فلم يفعل به فرعون ما كان يفعله ببنى إسرائيل الذكور من ذبحهم- كما ستفصل ذلك سورة القصص- ثم تذكر السورة أن أخت موسى مشت إلى فرعون، وأخبرت المسئولين في قصره أنها تستطيع أن تدلهم على من يُرضع الطفل ويُربيه، وتقترح اختيار أمه لهذه المهمة، ويعود الطفل إلى أمه كي لا تحزن على فراقه.

ثم تشير الآيات بعد ذلك إلى مِنَّة ثالثة وهي قتله نفسًا وإنجاء الله له من جرائر هذا القتل، وما يصحب ذلك من غم، ثم اختبره اختبارات أخرى.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ (الآيات: ٣٧-٤٠).

وقد ورد الحديث عن هذه المرحلة مجملًا غاية الإجمال، وقد تكفلت سورة القصص بتفصيل ذلك الإجمال كما يجيء.

وأود أن ألفت النظر إلى بعض الألفاظ مثل: أليم وهو في اللغة البحر، وقد أطلق على نهر النيل لاتساعه وطوله وهو نفس التعبير الذي استعمله أهل مصر عندما يطلقون عليه «البحر» حتى هذا اليوم، وكذلك لفظ «اقذفيه» الذي يفيد السرعة، فأم موسى في عجلة من أمرها فلا تستطيع أن تضعه في التابوت بتؤدة وأناة، أو تضع التابوت برفق وحرص، فالخوف على طفلها يسيطر عليها، ولنتأمل هذا التعبير: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فهذا أمر إلهي إلى أليم أن يسارع بإلقائه إلى قصر فرعون حتى يتحقق أمر الله من عودته إلى أمه.

في سورة القصص: (٤٩):

ولكن سورة القصص تُفصل الأمر، فهي تبدأ أولًا بذكر السبب فيما اضطرت أم موسى إلى إلقاء ابنها في النهر، وهو أن فرعون قد علا في الأرض- أرض مصر- واستبد بأهلها، وفرق بين أهلها فجعلهم شيعًا وأحزابًا، وقد استضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل، فأخذ يذبح أبناءهم، ويترك البنات أحياء لعدم أهميتهن، ولأن نبوءة الكهنة ذكرت أن طفلًا ذكرًا من بني إسرائيل سيولد، ويكون زوال ملك فرعون على يديه، وقد شاءت إرادة الله أن تنتهي محنة بني إسرائيل، وأن يعوضهم عما عانوه من ظلم وعسف، فيجعلهم أئمة ويورثهم الجاه والسلطان، ويمكِّن لهم في أرض فرعون، ويوقع بفرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يخشونه من أمر هذا الطفل الذي سيزيل ملكهم.

يقول تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾

(الآيات: ٣-٦)

أقف قليلًا عند قوله تعالى: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فالمفسرون يذكرون أنهم يرثون أرض مصر، وأن الله يُمكن لهم في أرض مصر والشام، ولكن حقائق التاريخ لا تثبت أن بني إسرائيل ورثوا شيئًا من أرض مصر، أو كان لهم فيها سلطان، وأرى معنى الآية أنهم سيرثون ملكًا مستقلًا يتصرفون فيه كما يتصرف فرعون في ملكه، وهو ما حدث لهم بعد ذلك في أيام داود وسليمان.

وألهم الله أم موسى أن تضع وليدها، فإذا خافت عليه من أعوان فرعون فلنلقه في نهر النيل، وألا تخاف عليه، ولا تحزن من أجله، فقد تعهد الله بحفظه ورعايته، وأنه سيرده إليها، وسيجعله بعد ذلك نبيًا مرسلًا.

أطاعت أم موسى الأمر وألقته في النهر، فألقى النهر بالصندوق الذي فيه موسى قريبًا من قصر فرعون، فالتقطه آل فرعون غير دارين بأنه سيكون عدوًا لهم، وسببًا في أحزانهم.

لقد كان فرعون ووزيره هامان خاطئين في تقديرهم وتدبيرهم حينما ظنوا

أن قتل الأطفال الذكور من بني إسرائيل سيحمى ملكهم من الخطر المحدق الذي تنبأ به لهم الكهنة، وكان من سخرية القدر بهم أن وضع في أيديهم الطفل الذي كانوا يقتلون أطفال بني إسرائيل خوفًا أن يكون أحدهم.

يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ (الآيات: ٧-٨).

عندما رأت زوجة فرعون الطفل رق قلبها له، وألقى الله محبته في قلبها، ولما أحست أن أعوان فرعون يريدون قتله؛ لأنهم تأكدوا أنه طفل إسرائيلي، قالت لزوجها: لقد جاءنا هذا الطفل ليكون قرة أعيننا، فلا ينبغي أن تقتلوه، وقد يكون فيه نفع لنا في مستقبل الأيام، ولعلنا نتبناه فيصير ابننا، والقوم لا يشعرون بخطورة الطفل على مستقبل ملكهم- وأُبقِي على حياة الطفل، وهكذا تحقق الجزء الأول من الوعد الإلهي وهو حفظه، وبقي الجزء الثاني من الوعد وهو رده إلى أمه.

وقد تحقق الجزء الثاني بعد وقت قصير، لقد انتاب الهم فؤاد أم موسى، وأصبح فارغًا من كل أمر إلا التفكير في ابنها، وما سيئول إليه أمره، وقد كاد يفضحها هذا الانشغال به، وتُعرَف حقيقةُ أن الطفل الذي التقطه آل فرعون هو ابنها لولا أن الله ثبت قلبها، وأفرغ عليها ضبرًا حتى يكتمل إيمانها.

طلبت أم موسى من ابنتها- أخت موسى- أن تتبع أثره، وتأتيها أخباره، فأبصرته من مكان بعيد، وأعوان فرعون لا يعرفون أنها أخته وهم لا يعرفونها- لتخبرهم أنها تستطيع أن تدلهم على أسرة تقوم على إرضاعه وكفالته، وستكون لهم من المخلصين، فأعطوه إياها.

وهكذا رُدَّ الطفل إلى أمه لتسعد به، وتزول أحزانها، وتتأكد من أن وعد الله حق، وإن كانت هذه الحقيقة خافية على كثير من الناس.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الآيات: ٩-١٣).

وعندما بلغ موسى الشباب، ونضج جسمه، منحه الله العلم والحكمة؛ لأنه كان محسناً في إيمانه وعمله والله يجزي المحسنين، وقد وقعت له حادثة كان لها أكبر الأثر في حياته، فقد دخل المدينة- مدينة فرعون- (ولعله كان خرج منها لأمر ما ثم عاد إليها)، وكان الوقت وقت هدوء وغفلة، والطرقات خالية من الناس، فوجد أمامه رجلين يتشاجران: أحدهما إسرائيلي

من قبيلته والآخر قبطي من سكان مصر، فاستغاث الإسرائيلي بموسى لينصره على عدوه القبطي، فضربه موسى يجمع يده ضربة قوية كان فيها القضاء على القبطي، فندم موسى على سرعة غضبه، واستجابته للإسرائيلي، وقال: إن هذا العمل ناتج عن الشيطان، فهو العدو القديم للإنسان، الذي لا يمل من إغوائه وإضلاله، ثم اتجه إلى ربه معلنًا ندمه على ظلمه لنفسه بارتكاب هذا الفعل، واستغفر الله، فغفر الله له لأنه هو الغفور الرحيم، ولما أوحى الله غليه بغفر أنه لما عاهد الله- بسبب هذه النعمة- ألا يكون عونًا للمجرمين.

وأصبح موسى في اليوم التالي خائفًا من وقع انكشاف سر الجريمة التي كان طرفًا فيها، وإيقاع العقاب به، ففوجئ بالإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس يتشاجر مع مصري آخر ويستغيث به، فاستشاط موسى غضبًا على الإسرائيلي وصاح فيه، إنك كثير الغواية، ظاهر العدوان، ومع ذلك اتجه نحوهما ليبطش بعدوهما المصري، فلما رأى الإسرائيلي غضب موسى وسخطه عليه ظن أنه متوجه نحوه ليقتله، فصاح في موسى أتريد قتلي كما قتلت نفسًا بالأمس- يعني القبطي الذي قتله موسى- إنك يا موسى تريد أن تكون من المتجبرين، ولا تريد الإصلاح، التقط المصري هذه الكلمة وذهب إلى شرطة فرعون ليخبرهم بقاتل المصري أمس.

كان في مجلس فرعون رجل محب لموسى، فلما سمع ما أخبر به المصري وعلم أنهم يدبرون لقتل موسى ذهب مسرعًا وأخبر موسى بذلك،

ونصحه بالخروج من مصر مبينًا له إخلاصه له في هذه النصيحة.

خرج موسى من مصر خائفًا يتوقع في كل لحظة أن تدركه الشرطة لقتله، ولم يكن أمامه إلا أن يتوجه إلى الله ليجيره من القوم الظالمين.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الآيات: ١٤-٢١)

وفر موسى من مصر، وأبعد في فراره، فغادر أرض مصر جميعها وتوجه إلى مدين جنوبي الشام، لكن لماذا اختار مدين بالذات ولم يهرب إلى بلد في مصر، وما أكثر بلادها؟ ربما اختار هذا البلد بوحي أوحاه الله إليه، وربما اختارها لسابق معرفة بها عن طريق السماع من القادمين إلى مصر منها، وأيًا ما كان

السبب فقد توجه إليها وهو يدعو الله أن يهديه إلى الطريق الصحيح.

وأخيرًا وصل إلى مدين، فوجد عند عين الماء التي يسقى منها الرعاة مواشيهم زحامًا شديدًا على البئر لسقى المواشي، ووجد فتاتين تمنعان غنمهما من الوصول إلى الماء فسألهما ما شأنهما، ولماذا تمنعان غنهما عن الماء فأجابتاه بأنهما لا تسقيان أغنامهما حتى ينصرف الرعاة، اتقاء للزحام، وأن أباهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي بنفسه، فهما تقومان مقامه، فتولى السقي عنهما وانصرفتا بأغنامهما.

ثم أوى موسى إلى ظل شجرة جلس تحتها، وأخذ يناجي ربه أنه في أشد الحاجة إلى طعام ومأوى، ويسأل الله أن ييسرهما له فسرعان ما عادت إحدى الفتاتين وهي تمشي في حياء وخفر قد أسدلت خمارها على وجهها، فأقبلت عليه تخبره أن أباها يريده ليكافئه على صنعه معهما، فذهب معها وقابل أباها وقص عليه قصته فطمأنه على حياته، وقال له: لا تخف من شيء لقد نجوت من أولئك الظالمين فأنت في مكان لا سلطان لهم عليه.

وانتهزت إحدى الفتاتين الفرصة لتقترح على أبيها أن يستأجره ليرعى بدلها وأختها لما يمتاز به من قوة وأمانة، فقد لاحظت عليه ذلك في أثناء سقيه لهما، وما بدا من قوته في هذا العمل، وكذلك ما لاحظته من أمارات أمانته في تعامله معها ومع أختها، ولم يفصل ذلك القرآن فنكتفي بإشارته.

استجاب الأب لهذا الاقتراح مضيفًا عليه اقتراحًا آخر بشأن الأجرة التي

يتقاضاها، وهو أن يزوجه إحدى ابنتيه، على أن يعمل أجيرًا عنده ثماني سنين، فإن أتمها عشرًا فهو فضل منه، وأخبره أنه سيعامله برفق، ولن يحاول تكليفه أعمالًا مرهقة، وأن موسى سيجد فيه رجلًا صالحًا.

وافق موسى على الاقتراح، وبين له أنه لن يكون ملزمًا بإتمام العشرة إذا لم تساعده ظروفه على ذلك، وأنه عند انتهاء أي الأجلين فقد برئت ذمته وجعلا الله وكيلًا على أقوالهما.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (الآيات: ٢٢-٢٨).

وتستمر السورة في الحديث عن موسى، ولكني أرجئ الكلام عن هذا؛ لأنه يدخل في المرحلة الثانية مرحلة البعثة.

لقد فصلت سورة القصص الحديث عن مولد موسى ونشأته تفصيلًا لم يرد في سورة أخرى، فما ورد في سورة طه عن ذلك كان موجزًا كما رأينا، فقد ورد في سورة طه بإيجاز: إلقاؤه في التابوت، وإلقاء التابوت في أليم، وعثور آل فرعون عليه، ثم اقتراح أخته عليهم أن يرضعوه عند أمه، وعودته إلى أمه، وأشارت سورة طه إشارة عابرة إلى قتله نفسًا ونجاته من عواقبه، وذكرت قضاءه سنين في مدين، ولكنها لم تذكر شيئًا عن حادثة البئر، ولا عن استئجاره وتزوجه إحدى ابنتي الشيخ، ولكن سورة القصص فصلت كل ذلك فهي إذن سورة فذة في وصف هذه المرحلة.

وأقف قليلًا عند الشيخ أبي البنتين... من هو؟ لم تهتم الآيات بذكر اسمه؛ لأن القصص القرآني لا يهتم بأي تفصيلات لا علاقة لها بالعظة والعبرة المرادة من القصة، كما لاحظنا وكما سنلاحظ في أحداث القصص القرآني.

ويقول المفسرون: إنه شعيب، وربما رجح هذا عندهم أن موسى ذهب إلى مدين، ومدين هي بلد شعيب، فقد يكون هذا صحيحًا وقد لا يكون، والقرآن- كما قلت- لم يهتم بذلك، فلا داعي للاهتمام به.

البعثة ومواجهة فرعون:

ذكر البعثة- بعثة موسى إلى فرعون- ورد في سور كثيرة، جاء في بعضها موضحًا زمان ذلك ومكانه، والملابسات التي أحاطت به، وفي بعضها الآخر جاء في صورة تكليف فقط لموسى بأن يذهب إلى فرعون رسولًا من الله، أو إخبار عن هذا الإرسال.

فالسور التي تعرض لزمان البعثة ومكانها وملابساتها ثلاث هي: طه، والنمل، والقصص.

في سورة طه: (٤٥):

يسأل الله رسوله محمدًا ﷺ سؤالًا تشويقيًا: هل جاءه خبر موسى؟ ثم يبدأ في تفصيل الخبر وذلك أنه رأى نارًا، وكان في طريق عودته من مدين إلى مصر، وكان الوقت ليلًا، ولعل البرد كان شديدًا فهو يريد نارًا يستدفئ بها هو وزوجه، فقال لامرأته: انتظريني حتى أذهب إلى هذه النار فأحضر شعلة منها، وقد أجد عندها من يدلني على الطريق الصحيح الذي يوصل إلى مصر.

ذهب موسى إلى مصدر النار، فناداه الله سبحانه، وأخبره بأنه ربه وطلب منه أن يخلع نعليه إجلالًا للمكان الذي هو فيه، فهو في الوادي المقدس المعرف بـ «طُوى» وأخبره بأنه اختاره من عباده لحمل الرسالة، وطلب منه أن يستمع إلى ما يوحى إليه، وكان ما أوحى إليه: أنه هو الله لا إله إلا هو، فعليه أن يعبده، وأن يتقرب بالصلاة لذكره، وذكر الله له أن الساعة- أي القيامة- آتية لا محالة، وإني أخفيها عن الخلق حتى يعملوا لها، ثم أجزيهم بعد ذلك على عملهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ونهاه عن أن ينحرف عن الإيمان بها اتباعًا لغير المؤمن بها الذي أضله عنها هواه فيهلك موسى.

يقول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ

يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ (الآيات: ٩-١٦).

ثم يسأله الله سؤالًا تمهيديًا لإظهار المعجزات التي سيمنحها إياه هذا السؤال هو: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ فيجيب موسى ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ ولا يكتفي بهذه الإجابة المقتضبة، بل يأخذ في بيان وظائفها، فهو يتوكأ عليها في مشيه، ويضرب بها فروع الأشجار لتتساقط أوراقها فتأكلها غنمه، ولها أغراض أخرى نافعة لموسى.

يقول البلاغيون: إن سر إطالة موسى إجابته هو تلذذه بالكلام مع المولى سبحانه، فهو لا يريد أن ينقطع الكلام بينهما.

فيريد الله سبحانه أن يبين له الوظيفة العظمى لهذه العصا بطريقة عملية، فيقول له: ألقها يا موسى في الأرض، فألقاها موسى، ففوجئ بها حية تمشي، فيقول الله له: خذها يا موسى بيدك ولأن موسى لابد أن يخاف من هذا الأمر العجيب يشفع الله أمره له بطمأنته قائلًا: لا تخف فسأردها كما كانت عصا، ثم يأمره أمرًا أخر لإظهار معجزة أخرى، فيطلب منه أن يضع يده تحت إبطه ثم يخرجها، فيفعل ذلك فتخرج يده بيضاء ناصعة من غير مرض، فهاتان معجزتان ستتبعهما معجزات أخرى أعظم.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾[1] (الآيات: ١٧--٢٣).

بعد أن سلَّح الله موسى بهاتين المعجزتين طلب منه أداء المهمة الكبرى التي ندبه لها، واختاره من أجلها، وهي الذهاب إلى فرعون، فقد طغى وجاوز الحد في عدوانه، ولكن موسى يعرف من هو فرعون، وما هي سطوته، وما هو سلطانه ونفوذه، فيطلب من الله أن يمده بوسائل قُوَى أخرى معنوية تعينه على مواجهة هذه المهمة الصعبة: الوقوف أمام جبار عاتٍ شديد البطش، فيطلب من الله أن يشرح صدره، فيهبه الحلم والصبر والحماسة والرضا وأن ييسر له كل أمر عسير، وأن يزيل الحبسة التي كانت في لسانه حتى يفهموا ما يقول، ولا يكتفي بهذا بل يطلب من الله سبحانه أن يجعل أخاه هارون وزيرًا له ومشيرًا، ليقوى به، وأن يشركه في هذه المهمة فيكون مسئولًا مع موسى في إنجازها، أي يجعله رسولًا مثله، وذلك أدعى إلى أن يزاد تسبيحنا لك، ويكثر ذكرنا لك، فإنك تعلم ما في نفوسنا وما نكنه لك من إجلال وتمجيد، فيستجيب الله رجاءه ويقول له: لقد أعطيت ما سألت.

---

(١) اضرب بها فروع الأشجار ليتساقط الورق لغنمه.

يقول تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (الآيات: ٢٤-٣٦)

وقبل أن يشرح الله له تفاصيل المهمة التي سيقوم بها يذكره بما مَنَّ عليه من قبل من إنقاذه من الذبح وهو طفل، بإلقائه في أليم، وأخذ فرعون له، ثم رده إلى أمه لترضعه... إلخ (وقد مر تفصيل ذلك من قبل).

ويكلف الله موسى وهارون الذهاب إلى فرعون لوقف طغيانه وعتوه ويطلب منهما أن يكلماه بطريقة لينة رقيقة لا تستفزه ولا تثيره فهذا شأن الداعية الذي يريد لدعوته أن تنجح، فإن المواجهة الخشنة تؤدي إلى الرفض والعناد، وقد أكد الله ذلك حينما اتبع أمرهما بالقول اللين ببيان سبب ذلك ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (الآية: ٤٤)، أي رجاء أن يتعظ، ويتذكر برهان الله على ربوبيته المغروس في كل نفس، أو يخشى عقاب الله له على طغيانه، فيرجع إلى الحق، ولكن موسى وهارون لم يزالا خائفين من بطش فرعون بهما فيناجيان الله بهذا الخوف فقد يعجل فرعون لهما العقوبة، أو يجاوز الحد في تعذيبهما، فيطمئنهما الله بأنه لن يتخلى عنهما فسيكون معهما؛ لأنه في كل مكان، وسيسمع ما يقال لهما، ويرى ما يفعل بهما فهو لا تخفى عليه خافية، ثم يزيد الأمر إيضاحًا لهما فيقول لهما: اذهبا إليه وقولا له إن الله قد أرسلنا

إليك، ووضحا له ما هو مطلوب منه الآن، وهو أن يخلي سبيل بني إسرائيل، ويسمح لهم بالذهاب معهما، وأن يكف عن تعذيبهم وإن معنا المعجزة التي تثبت صدق ما نقول، والسلام على كل من يسلك طريق الهداية، فقد أوحى الله إلينا أن العذاب جزاء كل من يكذب بآياته ويعرض عنها.

يقول تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1] (الآيات: ٤٢-٤٨)

في سورة النمل: (٤٨):

والسورة الثانية التي ذكرت حادثة البعثة وملابساتها هي سورة النمل، ولكنها ذكرتها في إيجاز، فموسى يقول لأهله: إنه أبصر نارًا وأنه سيذهب ليستطلع خبر هذه النار ليخبرهم به أو يأتيهم بشعلة من هذه النار لعلهم يستدفئون، فلما وصل إلى مكان النار سمع مناديًا: يا موسى لقد بورك من في النار، ومن حول النار، وسبحان الله رب العالمين، ثم يخبره المنادي بأنه هو الله العزيز الحكيم، ويطلب منه رمى عصاه على الأرض، فرماها فلما رآها تهتز كأنها حية، فر هاربًا ولم يرجع، فقال الله: لا تخف لأنك رسول ولا يخاف

(١) تقصرًا.

الرسل عندي، لكن من ظلم نفسه، ثم تاب فإني أغفر له، فرجع موسى فطلب منه أن يدخل يده في طوق قميصه تخرج بيضاء ناصعة من غير مرض- ولم يكن موسى أبيض- في تسع معجزات أخرى سأمدك بها لتظهرها أمام فرعون كي يصدقوا رسالتك إليهم؛ لأنهم كانوا قومًا فاسقين.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ (الآيات: ٧-١٢).

لم تتحدث الآيات في سورة النمل إلا عن رؤية النار، وذهاب موسى إليها وتجلى الله له، وإظهار خوفه من فرعون، وطلبه من الله مده بهارون ليكون عونًا له، وقد حددت هذه الآيات عدد المعجزات التي أمد الله بها موسى وهي تسع سنعرفها بعد.

في سورة القصص: (٤٩):

وهي السورة التالية للنمل في ترتيب النزول، والتي ذكرت باستفاضة خبر مولده ونجاته من قتل فرعون له، ورجوعه إلى كفالة أمه، وبعض الأحداث التي وقعت له في شبابه، وذهابه إلى مدين وزواجه كما بينت في المرحلة الأولى.

تتحدث الآيات عن أن موسى بعد أن أتم المدة التي اتفق عليها مع شيخ مدين في العمل كمهر لزوجه وتركه عائدًا إلى مصر بأهله، أبصر نارًا من جانب جبل الطور، فطلب من أهله أن ينتظروا حتى يتبين حقيقة هذه النار، ثم يعود بخبرها، أو بشعلة من النار يستدفئون بها، فلما وصل إلى مكان النار سمع مناديًا ينادى من جانب الوادي عن يمين موسى في البقعة التي باركها الله بكلامه لموسى فيها من الشجرة التي ظهرت فيها النار: يا موسى إنني أنا الله رب العالمين، ثم طلب منه سبحانه أن يرمي عصاه في الأرض، فلما رآها تهتز بعد أن ألقاها كأنها حية فر هاربًا ولم يرجع، فناداه الله لا تخف لأنك من الآمنين، وطلب منه أن يدخل يده في طوق قميصه، تخرج بيضاء ناصعة من غير مرض، ثم طلب منه ضم يده إلى جناحه إذا ملأ الخوف قلبه من رؤيتها بهذا البياض الشاهق، فتعود إلى حالتها الأولى.

هاتان المعجزتان: العصا واليد البيضاء دليلان إلى فرعون وقومه حينما يبلغهم رسالة ربه إليهم، فإنهم كانوا قومًا فاسقين.

خاف موسى من الذهاب إلى فرعون وحيدًا، فقد قتل منهم نفسًا، ويخاف أن يقتلوه قصاصًا، ويطلب من الله سبحانه أن يمده بأخيه هارون، فهو أفصح منه لسانًا ليكون عونًا له يصدقه فيما يبلغ عن ربه فهو يخشى أن يكذبوه.

يستجيب الله طلبه، ويخبره أن سيؤيده بأخيه، يشد من أزره، وفوق ذلك سيمده بقوة من لدنه فلا يستطيعون الوصول إليه وإيذاءه، وستكون له ومن اتبعه الغلبة بما يمده به من آياته ومعجزاته.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (الآيات: ٢٩-٣٥)

وتستمر السورة في سرد القصة ولكن هذا يتصل بمواجهة فرعون التي سأفصلها بعد قليل.

هذه السور الثلاث تناولت زمان ومكان وملابسات الموقف كما بينت، وإذا قارنا بينها نجد أكثرها تفصيلًا هي سورة طه، وتشترك معها سورة القصص في كثير من التفصيلات، فهما يشتركان في رؤية موسى النار وذهابه إلى مصدرها، وتجلى الله له، وإظهار معجزتيه: العصا واليد البيضاء، وتكليفه الذهاب إلى فرعون، وخوف موسى أن يذهب وحده إلى فرعون، وطلبه من الله إمداده بأخيه.

وتنفرد سورة طه ببعض التفصيلات كسؤال الله موسى عن عصاه، وإجابة موسى المستفيضة عنها وذكر الله مننه السابقة على موسى، وتوجيه موسى وهارون إلى مخاطبة فرعون، وطمأنتهما لما خافا بأنه سيكون معهما يسمع ويرى.

وتنفرد سورة القصص بذكر سبب وجود موسى في هذا المكان وهو أنه كان عائدًا إلى مصر بعد انقضاء مدة إجارته، كما أنها تحدد موقع النار وهي أنها كانت عند شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، كذلك تذكر فرار موسى لما رأى العصا تهتز كالحية وعدم رجوعه حتى طمأنه الله، وبذلك تشترك مع سورة النمل في هذا التفصيل، كما تبين سورة القصص سبب خوف موسى من فرعون؛ لأنه قتل منهم نفسًا فيخاف أن يقتلوه، فهو ليس خائفًا، بسبب الرسالة.

وهناك سورة أخرى تحدثت عن البعثة دون ذكر لملابساتها وتحديد لزمانها ومكانها، وإنما تحدثت عن تكليف موسى الذهاب إلى فرعون تلك هي:

سورة الشعراء: (٤٧):

فالله سبحانه وتعالى يأمر موسى أن يأتي القوم الظالمين وهم قوم فرعون فيرد موسى مبديًا خوفه من تكذيبهم، وخشيته من أن يضيق صدره ويفقد صبره بسبب ذلك، كما أن لسانه ليس قادرًا على إبلاغ الرسالة كما يجب،

ويطلب من الله سبحانه أن يرسل معه أخاه هارون، كما يذكر سببًا آخر لخوفه وهو أنه ارتكب ذنبًا- يشير إلى قتله المصري – فيخاف أن يقتلوه، فيجيبه الله نافيًا كل هذه المخاوف، وطالبًا منه ومن أخيه أن يذهبا إلى فرعون بما أعطاهما من معجزات وهو معهما يسمع إلى ما يقال، ويطلب منهما أن يأتيا فرعون فيقولا له إننا رسول رب العالمين، وعليك أن ترسل معنا بني إسرائيل، وتحررهم من نير استعبادك.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الآيات: ١٠ – ١٧).

فهذه السورة لم تتناول رؤيته النار وذهابه إليها، ولا ذكرت ما منحه الله من معجزات، واكتفت بتكليفه الذهاب إلى فرعون، وتشترك مع السور السابقة في إظهار موسى خوفه من فرعون لأسباب قريبة مما ذكر في السور الأخرى، وطلبه أن يمده الله بأخيه هارون، وإعلان الله لهما أنه لن يتخلى عنهما.

وبقية السور التي ذكرت فيها قصة موسى وهي كثيرة تكتفي بتكليف موسى الذهاب إلى فرعون، أو الإخبار عن إرساله إلى فرعون.

المواجهة:

تزخر مواجهة موسى إلى فرعون بالمواقف الصعبة، والحوارات المفحمة من جانب موسى والمتهافتة من جانب موسى والمتهافتة من جانب فرعون، وتتفاوت السور التي تضمنت هذه المواجهة بين التفصيل والإجمال، وبين الشمول والتركيز، وسأعرض أولًا هذه المواجهة في السور التي عنيت بالتفصيل والشمول، وهذه السور هي: الأعراف، وطه، والشعراء، ويونس، وغافر.

في سورة الأعراف: (٣٩):

تبدأ الآيات في سورة الأعراف بالحديث عن إرسال موسى بالمعجزات إلى فرعون وكبراء قومه- وذلك في سياق الحديث عن تكذيب الأقوام لرسلهم- فقد أرسل الله موسى إلى فرعون وملئه فكذبوه ظالمين أنفسهم بهذا التكذيب، فانظر يا محمد كيف كانت نهاية هؤلاء المفسدين.

بعد هذا الإجمال تبدأ الآيات في تفصيل ما دار بين موسى وبين فرعون وقومه، فقد قال موسى لفرعون: إنه رسول رب العالمين إليهم، وإنه جدير- طالما قد حمل هذه الرسالة- ألا يكذب على الله الذي أرسله بالمعجزة الصادقة ويبلغهم أن رسالته إليهم تتضمن شيئًا واحدًا هو أن يسمح لبني إسرائيل بالخروج معه إلى الشام أرض أجدادهم، كي يتخلصوا من ظلم فرعون وأعوانه.

يجيبه فرعون: إن كان معك برهان يدل على صدقك فأظهره، فيلقى موسى

عصاه، فتتحول إلى ثعبان واضح ظاهر، وأخرج يده من تحت إبطه فرأوها بيضاء بعد أن كانت سمراء يراها كل ناظر، قال كبراء القوم المحيطون بفرعون إن هذا العمل من فعل ساحر عظيم يعلم فنون السحر، وهدفه من سحره إخراجكم من أرضكم، وإفساد أمركم عليكم.

قال فرعون: فماذا تشيرون في شأنه، فأشاروا بأمر يكشفون به سحر موسى، وذلك أن يمهلوه وأخاه حتى يرسلوا إلى كل المدن كي نبعث إليهم بمن فيها من السحرة المشهورين بعلمهم في فنون السحر.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾

(الآيات: ١٠٣-١١١)

وجُمع السحرة العظماء من كل المدن المصرية، وجاءوا إلى فرعون واشترطوا أن تكون لهم مكافأة إذا غلب سحرهم سحر موسى، فيستجيب فرعون لهذا، ويزيد عليه أنهم سيصبحون من المقربين إليه.

اتجه السحرة – يوم المباراة– إلى موسى قائلين له: هل تبدأ بإلقاء عصاك أو نبدأ نحن بإلقاء عِصيُنَا، فطلب منهم موسى أن يلقوا أولًا، فألقوا عصيهم وأحدثوا من التخييل والحيل ما جعل أعين المشاهدين تتخيل أن عصيهم انقلبت حيات وكان سحرهم عظيمًا في باب السحر.

أوحى الله إلى موسى أن يلقى عصاه، فألقاها فتحولت حية عظيمة ابتلعت كل ما ألقاه السحرة، وما أحدثوه من أكاذيب، وانتصر الحق، وبطل الزيف الذي جاء به السحرة، وأحس فرعون وحاشيته بمرارة الهزيمة، وتجرعوا ذلها، وأما السحرة الذين يعلمون فنون السحر وحيله، فأيقنوا أن ما فعله موسى لا يدخل في باب السحر، بل هي قدرة إلهية ساحقة، فلم يملكوا أنفسهم من أن يخروا ساجدين تمجيدا لهذه القدرة الإلهية، وأعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون.

استشاط فرعون غضبًا، وقال للسحرة موبخًا أتؤمنون به دون أن آذن لكم؟ إن هذه مؤامرة دبرتموها مع موسى لتفسدوا الأمر في المدينة، وهددهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أي قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس، ثم صَلبهم جميعًا، ولكن اليقين بنبوة موسى قد ملأ قلوب السحرة، فلم يأبهوا لتهديد فرعون، بل وبخوه قائلين: إن مرجعنا إلى الله سواء أقتلتنا أم أبقيتنا، وما الذي تنكره من أمرنا؟

لقد رأينا أمامنا المعجزة الناطقة بوجود الله ووحدانيته وقدرته، فآمنا بربنا،

ثم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يملأ قلوبهم صبرًا على ما سوف يلقون من أذى فرعون، وأن يثبت قلوبهم على الإيمان ويتوفاهم مسلمين.

يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الآيات: ١١٣-١٢٦).

التقت كبار حاشية فرعون إليه محرضين له على موسى، ونافخين في جذوة حقده وغضبه، وقالوا له: هل تترك موسى بعد هذا حرًا طليقًا هو وقومه ليفسدوا في بلادنا، ويترك عبادتك وعبادة آلهة مصر المقدسة؟ فأجابهم بلهجة حاسمة: سأقتل الذكور من أبنائهم، وأترك الإناث أحياء (وهذا هو التقتيل الثاني، فالأول كان قبل ولادة موسى عندما نجا من هذا المصير بإرادة الله الذي ألهم أمه أن تلقيه في النيل كما سبق ذكره) وإننا لمنتصرون عليهم ولنا اليد العليا فوقهم.

أخذ موسى يطمئن قومه بعد صدور هذا الأمر المرعب داعيًا إياهم إلى الاستعانة بالله، والصبر على قضائه؛ فهو وحده مالك الملك، وبيده ملك الأرضين جميعًا، وهو الذي يمنحها لمن يشاء من عباده، وقد قضى أن يكون الفوز في النهاية دائمًا لمن يتقونه، ويخشون مخالفته، فأجابوه – في حزن – لقد لحقنا الأذى من فرعون وأتباعه من قبل مجيئك إلينا، وبعد مجيئك، فواساهم بقوله: إني أرجو أن يهلك الله عدوكم ويجعلكم خلفاء من بعده في الأرض لكم فيها الحرية والسلطان، ووقتها سيراقب أعمالكم ليجزيكم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الآيات: ١٢٧-١٢٩).

لم يتخل الله عن موسى، وإزاء ما هدد به فرعون موسى قومه، أنزل الله بفرعون وقومه ألوانًا متعاقبة من العذاب لكي يرعَوُوا ويثوبوا إلى رشدهم، فبدأهم الله بالجدب والقحط ونقص الحاصلات الغذائية، فكانوا إذا أخصبت أرضهم سنة قالوا هذا بسبب جهدنا وما نستحقه من خير، وإذا

أتاهم الجدب سنة تشاءموا من موسى وأتباعه وأرجعوا ما هم فيه من قحط وشدة إلى شؤم موسى وأتباعه، فيقول لهم موسى: إن الشر الواقع عليكم ليس مني، وإنما هو من الله، ولكن أكثرهم لا يعلمون هذه الحقيقة، ثم جابهوا موسى بإصرارهم وتعنتهم فأعلنوا له أنهم لن يؤمنوا به أبدًا مهما توالت فنون سحره عليهم (فهم ما زالوا يظنون أن هذه المعجزات فنون من السحر) فتوالت عليهم صنوف العذاب الدنيوي، فأرسل الله عليهم الطوفان فغاصت الأنهار حتى أغرقت الزرع والضرع والبلاد، والجراد الذي يأكل زروعهم وثمارهم، والقمل- يقول المفسرون[١]: إنه نوع من السوس أو القراد يأكل كل ما أبقاه الجراد- والضفادع فملأت بيوتهم، ونزلت في طعامهم، والدم الذي ملأ أنهارهم، وأفسد حياتهم.

وكل هذه معجزات واضحات، ولكنهم استمروا في استكبارهم وكفرهم؛ لأنهم كانوا مجرمين، وكلما كان يشتد وقع العذاب بهم كانوا يستغيثون بموسى يناشدونه أن يدعو ربه ليزيل عنهم العذاب، ويعدونه بأنه إن فعل ذلك فسيؤمنون به، ويرسلون معه بني إسرائيل، وعندما يكشف الله عنهم العذاب ينكثون عهدهم ويظلون على كفرهم، وتسلطهم على بني إسرائيل.

لم يعد هناك جدوى من الاستمرار في دعوتهم، فانتقم الله منهم وأغرقهم في البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله، وغفلتهم عن الحقيقة الناصعة فيها التي تدل

---

(١) انظر تفسير القرطبي.

على وجود الله ووحدانيته وقدرته، وكافأ الله بني إسرائيل الذين استضعفوا كثيرًا على صبرهم بأن مهد لهم الطريق إلى دخول الأرض المباركة أرض الشام، والتملك فيها، ودمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه من عمارات، وما كانوا يرفعون من بنيان.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(الآيات: ١٣٠-١٣٧)

وهكذا تنتهي المواجهة مع فرعون بغرقه مع قومه الكافرين، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة موسى سأتكلم عنها في حينها.

١ - غلب على المواجهة في هذه السورة طابع الحركة والعمل، فلما دعا موسى فرعون إلى الإيمان برسالته، وأظهر معجزاته، دعا فرعون السحرة، ثم بدأ الاضطهاد، والانتقام الإلهي المتدرج إلى أن وصل إلى ذروته بإغراق فرعون في البحر.

٢ - لم تفصل الآيات هنا كيف غرق فرعون بل ذكرت ذلك في جملة واحدة: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾.

٣- في سورة النمل ذكرت الآيات أن الله أعطى موسى تسع معجزات منها: العصا، وبياض اليد، وذكرت الآيات هنا ست معجزات أخرى هي: الأخذ بالسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وبقيت واحدة سيأتي ذكرها في سورة يونس وهي الطمس على أموالهم.

٤ - أظن أن فرعون ليس علمًا على شخص بعينه بل هو لقب لملك مصر أيًا كان، وعلى هذا فلا مانع أن يكون موسى عاصر أكثر من فرعون، فقد يكون فرعون الذي واجهه غير فرعون الذي تبناه، والله اعلم.

في سورة طه: (٤٥):

بينت قبلُ أن الله خاطب موسى في الوادي المقدس طوى، وكلفه الذهاب إلى فرعون، كما فصَّلت سورة طه، ثم تنتقل السور إلى مواجهة موسى لفرعون، فحذفت إيجازًا ذهاب موسى وأخيه هارون إلى فرعون، وإبلاغه رسالة ربهما التي فصلتها السورة قبل ذلك.

وابتدأت المواجهة بسؤال فرعون لهما بعدما سمع ما قالا، وهذا أسلوب معهود في البلاغة القرآنية.

يسأل فرعون موسى وأخاه متعجبًا أن يكون هناك إله غيره فيقول لهما: فمن ربكما يا موسى، لم يقل و«هارون» اكتفاء بالأهم منهما، فأجاب موسى بذكر جانب من فضل الله وإنعامه على عباده، وهو أنه هو الذي منح مخلوقاته كل شيء يحتاجون إليه، وهداهم إلى طريقة الانتفاع به.

يسأل فرعون سؤالًا آخر: فما شأن الأمم الماضية التي ظلت تعبد الأوثان ولم تؤمن بإله، فيجيب موسى: الله يعلم أمرها، وقد سجل أعمالها الصَالحة والفاسدة في كتاب عنده، والله ربنا لا يغيب عنه شيء أو ينساه، فهو سيحاسبهم على ما قدموا من عمل، ثم يذكر أن من فضل الله على عباده أنه جعل لهم الأرض ممهدة، وشق فيها طرقًا ليسيروا فيها، ويسعوا إلى معايشهم وهو الذي أنزل المطر- ويكمل الله السياق بقول مباشر منه جل وعلا- فأخرجنا لكم بسببه أصنافًا متنوعة من النبات والثمار ينتفع بها الإنسان والحيوان، فلتأكلوا منها ولترَعَوا أنعامكم فيها، وفي ذلك عظات وعبر لأصحاب العقول الراجحة.

ولقد خلقناكم من هذه الأرض، فقد خلق آدم من تراب، وسنعيدكم إلى هذه الأرض تدفنون فيها بعد موتكم، ثم نخرجكم منها مرة أخرى يوم البعث للحساب والجزاء.

يقول تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

(الآيات: ٤٩-٥٥)

يبين الله بعد ذلك أن موسى لم يدخر جهدًا في دعوة فرعون وإظهار المعجزات كلها له- المعجزات التي أخبر عنها- على امتداد فترة مواجهته، ولكنه كذب ورفض الإيمان، واتهم موسى بالسحر، وقال له: هل جئت غلينا بسحرك لتخرجنا من أرضنا- أرض مصر- لكي يخلو لك الجو ولقومك فيها، فلأحضرن سحرتي ليطلعوك على ما لديهم من أفانين السحر مما لا يقل عن سحرك.

ثم طلب فرعون من موسى أن يحدد موعدًا للقائه بالسحرة لا يخلفه فرعون ولا موسى، وأن يكون اللقاء في مكان متوسط يستطيع جميع الناس حضوره، قال موسى: الموعد يوم الزينة- وهو يوم عيد عندهم- وأن يجتمع الناس وقت الضحى ليتابعوا ويفرقوا بين حيل السحرة ومعجزات موسى.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا

نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴾

(الآيات: ٥٦-٥٩)

ذهب فرعون يعد العدة لهذا اليوم الحاشد، فجمع السحرة القادرين على الكيد والمكر، وأتى بهم إلى قصره، ولما رأى موسى تجمع السحرة عند فرعون أخذ يعظهم مخوفًا إياهم بالهلاك الذي يحل بهم إن افتروا على الله كذبًا، ويحذرهم من ذلك حتى لا يستأصلهم الله بعذابه، ويذكرهم بأن من يكذب على الله فمصيره الخيبة والخذلان.

اجتمع فرعون بالسحرة وبمعاونيه، وأخذوا يتشاورون في جلسات سرية، وكان من بين ما قرروه أن موسى وهارون ساحران أتيا بسحرهما ليخرجا فرعون وحاشيته من أرضهم التي يتسلطون فيها، ويزيلا الطريقة القويمة والمنهج الأحسن الذي يسير عليه فرعون ومن معه- في رأيهم- لذلك يجب أن يبذل السحرة كل جهد، ويجمعوا كل ما لديهم من حيل وفنون، وأن يكونوا متعاونين متساندين، فالذي يغلب ويعلوا سحره يحوز قصب السبق.

يقول تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ (الآيات: ٦٠-٦٤)

وجاء يوم الزينة، وبرز سحرة فرعون مزهُوِّين واثقين، قالوا لموسى اختر ما تشاء: إما أن تبدأ بإلقاء عصاك أو نبدأ نحن، فقال لهم: بل ابدءوا أنتم فألقى السحرة ما معهم من حبال وعصى، فخلى إلى موسى أنهم حيات تمشي على بطونها بسبب سحرهم، فأحس بالخوف من أن يظن الناس- حينما يلقى موسى عصاه- أن سحره لا يزيد عن سحرهم في شيء، وأنه ليس إلا واحدًا مثلهم ولكن الله يطمئنه ويقول له: لا تخف فأنت الأعلى، وأنت الأعظم، ارم عصاك على الأرض وسوف تبتلع كل ما أتوا به من أكاذيب، فكل ما صنعوه لا يعدو أن يكون سحر ساحر، ولا يمكن للساحر أن يفلح في إضفاء الحقيقة على سحرة، ولن يطول تأثيره.

وعلى طريقة القرآن من الإيجاز لم يذكر أن موسى ألقى عصاه، وأنها ابتلعت عصيهم وحبالهم اكتفاء بالأمر الإلهي الذي لابد أن ينفذه موسى، وإنما ذكر أثر فعله وهو أن السحرة خروا ساجدين، معلنين إيمانهم بالله رب هارون وموسى.

استشاط فرعون غضبًا، قد خذله من استعان به لقهر موسى وجلجل صوته كالرعد منذرًا ومُوعِدًا: أتؤمنون به قبل أن آذن لكم فقد اعتاد فرعون من رعيته السمع والطاعة، واستئذانه في هذا الموقف يثير السخرية، فهل سيأذن لهم أن يكفروا به ويؤمنوا بعدوه. ولكنه بخار الغيظ المكتوم يصدر في شكل ألفاظ أي ألفاظ- إنه إذن كبيركم الذي علمكم السحر، ثم يصدر

حكمه عليهم بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم يصلبهم في جذوع النخل، ليعرفوا بهذه الطريقة العملية أيهما أشد تعذيبًا وإيلامًا، وأيهما الأبقى سلطانًا، فرعون أم موسى.

لم يأبه السحرة لهذا التهديد؛ فقد ملأ الإيمان قلوبهم، وكان ردهم على هذا التهديد: لن نفضلك على ما شاهدناه بأعيننا من آيات الله الصادقات الدالة على عظمته وقدرته، وعلى الذي خلقنا، فافعل بنا ما تشاء، لن يتجاوز قضاؤك فينا هذه الحياة الدنيا. لقد آمنا بربنا لكي يغفر لنا معاصينا الكثيرة، وعلى رأسها السحر الذي أكرهتنا على ممارسته، والله خير وأبقى من كل مغرياتك وتهديداتك.

ثم يتحول السحرة الذين لم يؤمنوا إلا منذ لحظات إلى هداة يدعون الناس إلى الإيمان، ويخوفونهم عذاب الله ويرغبونهم في نعيمه فيقررون أن الكافر الذي يأتي ربه بجريمة كفره لم يتب منها، فمصيره جهنم يُعَذّب فيها، لا يموت من العذاب، بل يتجرع الآلام دون راحة، ولا يحس بالحياة التي يعشها في جهنم، فقد حرم راحة الموت، وطعم الحياة.

أما المؤمن فحين يلقى ربه يرفعه الله الدرجات العلى، التي تتمثل في جنات عدن التي تجري من تحتها الأنهار ويكتف لهم فيها الخلود، وذلك جزاء إيمانهم، وطهارة قلوبهم.

يقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ

﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (الآيات: ٦٥-٧٦).

بعد هذا المشهد الإيماني الرائع الذي تضمن صلابة إيمان السحرة، وحبهم للاستشهاد في سبيل هذا الإيمان تسكت السورة عما أعقب ذلك من اضطهاد فرعون لموسى وأتباعه، ونزول ألوان من العذاب به وبقومه، وتنتقل إلى المشهد الأخير من المواجهة، فقد أوحى الله إلى موسى أن يجمع بني إسرائيل ومن آمن من غيرهم ويسير بهم ليلًا، وأن يضرب لهم طريقًا يابسًا في البحر بقوة الله، وطمأنهُ أن فرعون وجنوده لا يستطيعون إدراكه، وألا يخاف شيئًا من غرق أو أية عوائق.

يسكت القرآن أيضًا عن تنفيذ الأمر إيثارًا للإيجاز، فمن البديهي أن موسى قد نفذ ما أُمِر به، ويتكلم عن ملاحقة فرعون لهم فقد سار في إثره- عندما

علم- بجنوده فأطبق عليهم موج البحر فأغرقوا وهكذا كان فرعون سببًا في إضلال قومه وإهلاكهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ (الآيات: ٧٧-٧٩)

وتنتهي قصة المواجهة بين موسى وفرعون بهذه السورة بغرق فرعون وقومه ونلاحظ أنه على الرغم من اتفاق العناصر الرئيسية في القصة في سورتي الأعراف، وطه، فإن لكل منهما مذاقًا خاصًا وطابعًا خاصًا.

في سورة طه سأل فرعون موسى بعض أسئلة تتصل بربه الذي جاء رسولًا منه قبل أن يسأله عن برهان رسالته، على عكس ما جاء في سورة الأعراف من مبادرة فرعون إلى طلب البرهان، وكان الحال يقتضي هذا في سورة الأعراف، فإن موسى أخبر فرعون في بداية كلامه أنه جاءه ببرهان على صدق رسالته، فكان من الطبيعي أن يسأل فرعون عن طبيعة هذا البرهان.

وفي سورة الأعراف حدد المعجزات التي أتى بها موسى، وفي أولها العصا واليد، وذكرت السورة صراحة أنه أظهرهما أمام فرعون وملته، ولكن في سورة طه أجمل ذلك وأشار إلى معجزاته بأنه أراه آيات الله كلها.

وفي سورة طه لم يشترط السحرة الأجر قبل البدء في السباق، كما صرح بذلك في سورة الأعراف، وليس في سورة الأعراف وعظ من موسى للسحرة

كما في سورة طه، وفي سورة الأعراف لم يذكر خوف موسى من السحرة صراحة، وصرح بذلك في سورة طه، وفي سورة طه تحديد لمكان الصلب وهو جذوع النخل، كذلك في سورة طه تفصيل أكثر لرد السحرة على تهديد فرعون.

ونترك سورة طه مؤقتًا لنعود إليها مرة أخرى عند الحديث عن مرحلة ما بعد النجاة من فرعون، وننتقل إلى سورة الشعراء.

في سورة الشعراء: (٤٧):

بعد دعوة الله سبحانه موسى أن يذهب إلى قوم فرعون، ويبلغهم رسالته كما عرفنا في مرحلة البعثة- تجاوز البلاغة القرآنية ذهاب موسى وتبليغه الدعوة إلى رد فرعون على موسى، فقد سأله موبخًا: ألسنا أولياء نعمتك الذين تربيت بعنايتهم، ومكثت ردحًا من الزمان بينهم، وفعلت فعلتك النكراء بقتل المصري، فكنت بذلك جاحدًا لنعمتنا.

يرد موسى على هذا التوبيخ بادئًا بالتهمة الأخيرة، وهي قتل المصري، فيقول: لقد فعلتها غير متعمد، لقد كنت مخطئًا في ضربه ولكني لم أقصد قتله، وقد هربت منكم خوفًا على نفسي فعوضني الله خيرًا، فوهبني النبوة والحكمة واختارني رسولًا، ثم يرد على مَنِّه عليه بتربيته واستضافته، فيقول: أتعد هذه نعمة؟ وكيف وقد استعبدت بني إسرائيل جمعهم، فما قيمة ما أحسنت به إلى فرد، إلى جانب ما أسأت به إلى جماعة.

يعود فرعون إلى لب الرسالة التي جاء بها موسى، فيسأله عن هذا المرسل متهكمًا: وما رب العالمين؟ فيجيبه موسى بأنه رب الكون كله سماواته وأرضه وما بينهما، وهذا أمر واضح جلي لذوي القلوب المؤمنة.

يلتفت فرعون إلى حاشيته ويقول لهم في سخرية: ألا تسمعون ما أسمع؟ وكأنه يُعجِّبهم من إجابة موسى التي لا توافق السؤال فهو يسأل عن إله، فيجيبه بكلام عام.

يزيد موسى في تحديد الإله بذكر صفات أقرب إليهم، فهو ربهم ورب آبائهم الأولين، فيصفه فرعون بالجنون، فيزيد موسى في ذكر مجال قدرة الله وعظمته فهو رب المشرق والمغرب، أمر ظاهر ملموس بينهم يوميًا، فالشمس تشرق من الشرق، وتغرب من الغرب، فمن يفعل ذلك؟ إن أي إنسان لديه عقل غير متحيز يدرك هذا.

عاد فرعون إلى طبيعته الاستبدادية بعد أن خشي أن الاستمرار في الحوار قد يقنع من حوله بصدق قوله، فأصدر رأيه القاطع لئن عبدت إلهًا غير لأسجننك.

يقول تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (الآيات: ١٨-٢٩).

بعد أن انتهى هذا الحوار المنطقي الذي لم يؤثر في فرعون، بل أثار ثائرته، حاول موسى أن يوجه الحوار وجهة أخرى، وجهة عملية، فقال لفرعون: أتظل على رأيك لو جئتك بدليل قوي واضح على صدق ما أقول؟ قال فرعون: فأظهره سريعًا إن كنت صادقًا في قولك، فألقى موسى العصا على الأرض فتحولت إلى حية عظيمة، وأخرج يده من طوق قميصه فإذا هي بيضاء ناصعة البياض يرى نصاعة بياضها كل من ينظر إليها.

أُخِذ فرعون بما شاهد، ولكنه لم يظهر اقتناعًا بما رآه أمامه، بل أخذ يكابر، فالتفت إلى كبراء الحاشية من حوله، قال لهم: إن هذا الرجل ساحر ماهر يريد أن يستغل سحره لإخراجكم من بلادكم، فأشيروا عليَّ بالرأي السديد، فكان رأيهم أن يمهله وأخاه، وأن يرسل إلى كل مدن مصر من يجمع له كل من اشتهر بالسحر وتفوق فيه.

ونُفِّذ الاقتراح، فجمع السحرة لموعد محدد، اتفقوا عليه، وأخذ اتباع فرعون يحضون الناس لحضور الحفل حتى تنكشف أمامهم حيل موسى وخداعه، ويتبعوا مذهب السحرة بعد غلبتهم.

وحضر السحرة إلى فرعون، وسألوه هل سيكون لهم أجر إذا غلبوا، فقال لهم: نعم، وستكونون من المقربين عندي (ولنلاحظ إصرارهم على طلب الأجر، فهم محترفون، لا يهمهم انتصار دين على دين، أو مذهب على مذهب، ولنقارن ذلك بما سيحدث منهم عندما يدخل الإيمان قلوبهم) قال لهم موسى: ألقوا حبالكم وعصيكم أولًا، فألقوها وصاحوا فرحين- حينما رأوها تهتز أمامهم كالحيات بتأثير سحرهم- وأقسموا بعزة فرعون: إنهم هم الفائزون فألقى موسى عصاه فتحولت إلى حية عظيمة تلتهم ما خيلوه للناس من أكاذيب.

عرف السحرة أن ما فعله موسى لا يدخل في فنون السحر التي أتقنوها كلها، وإنما هو بفعل القدرة الإلهية التي لا يغلبها غالب، فخروا ساجدين لرب موسى وهارون، وأعلنوا أمام الملأ إيمانهم به.

ملأ الغيظ قلب فرعون، وصب جام غضبه على السحرة كيف يعلنون إيمانهم دون استئذانه (وكأنه كان من الممكن أن يأذن لهم) وتوعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم صَلبِهم جميعًا، أجابوه- غير مكترثين- لن يصيبنا ضرر من فعلك، فإذا متنا سنرجع إلى ربنا الذي يجزينا خير الجزاء، لقد آمنا بربنا، ونطمع أن يغفر لنا خطايانا التي ارتكبناها من قبل، فقد كنا أول المؤمنين به.

يقول تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ

لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الآيات: ٣٠-٥١).

ومضت سنون، وموسى يحاول هداية فرعون وقومه، فلم يزدادوا إلا عتوًا واستكبارًا، على الرغم مما رأوه من معجزات موسى، فلم يبق إلا أن ينفذ قضاء الله فيهم، وينزل بهم عذابه، فأوحى الله إلى موسى أن يجمع المؤمنين به، ويخرج بهم ليلًا متجهًا إلى أرض الشام، وانبأه أن فرعون سيتبعهم- كأن الله يريد أن يطمئنهم حتى لا يخافوا إذا رأوه في أثرهم؛ لأن الله لن يتخلى عنهم.

علم فرعون بقرار موسى ومن معه، فأرسل في كل مدن مصر من يجند له الجنود ليلحق بهم، ويردهم على أعقابهم، وكان يقول للناس: لا تخشوا منهم

فما هم إلا شرذمة قليلة، ولقد استفزونا، وملأوا قلوبنا غيظًا من أفعالهم، فلابد من الانتقام منهم وإننا لمستعدون لذلك.

وهكذا خرج فرعون من بلده العامر الذي يفيض بالخير ورغد العيش، والرخاء ورفاهية العيش، بما فيه من حدائق وأنهار وكنوز من الذهب والفضة، أخرجهم الله منه ليقتفوا أثر موسى ومن معه، ولن يعودوا إليه ثانية، وسيورث الله موسى وأتباعه مثل هذا الخير والرفاهية- عندما يطيعون أمر ربهم، ويتبعون نهج نبيهم.

يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الآيات: ٥٢-٥٩).

فخرج فرعون وجنوده في أثر موسى وقومه مع شروق الشمس، فلما اقتربوا منهم، وأصبحوا في مرأى عيونهم، خاف أصحاب موسى وقالوا: لابد أن يدركونا، فطمأنهم موسى قائلًا لهم، لا يمكن ذلك فإن الله معي وسيهدي طريقي، ولما وصلوا إلى ساحل البحر أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر، وأصبحت المياه فرقًا متباعدة بين كل منها قطعة ضخمة من اليابسة كأنها الجبل العظيم، فسار أصحاب موسى عليها لا يخشون الغرق، واقترب فرعون يريد أن يلحق بهم في البحر، ولكن البحر

أطبق عليه وعلى قومه، ونجا موسى ومن معه، وغرق فرعون ومن معه، وتختم القصة في هذه السورة بما ختمت به كل قصة في هذه السورة، وهو أن في ذلك عبرة لمن آمن، وإن كان أكثرهم غير مؤمن، وإن الله هو العزيز الغالب، الرحيم لمن تاب.

يقول تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَاءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الآيات: ٦٠-٦٨)

قصة موسى في هذه السورة تتفق مع سورة الأعراف اتفاقًا كبيرًا في جزء المواجهة المتصل بمعجزتي موسى: العصا واليد، ففي كلتا السورتين يتشابه المشهدان تشابهًا كبيرًا في كل التفصيلات من ادعاء فرعون أن ما أتى به موسى سحر، وجَمع السحرة، وطلبهم الأجر من فرعون، وانتصار موسى عليهم، وسجودهم وإيمانهم برب موسى وهارون، وتهديد فرعون للسحرة بتقطيع أيديهم وأرجلهم، وصلبهم أجمعين، وعدم اكتراث السحرة بتهديده... خلاف لفظي واحد وقع في المشهد، ففي سورة الأعراف يقول تعالى- بعد أن ألقى موسى عصاه أمام فرعون: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، وفي سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ

عَلِيمٌ﴾ أي أن الملأ في سورة الأعراف هو الذي قال. وأرى أنه لا تعارض، فالقول صدر من الجميع عندما رأوا هذا الأمر المعجز.

فإذا انتقلنا إلى الجزء التالي بعد إيمان السحرة نجد أن سورة الأعراف فصلت بعض المواقف التي حدثت قبل إغراق فرعون، مثل شكوى قوم موسى له من إيذاء فرعون لهم، ودعوته إياهم إلى الاستعانة بالله والصبر، ونزول الرجز بفرعون وقومه من الطوفان إلى الجراد والقُمَّل والضفادع والدم، وقبل ذلك الجدب والقحط، وأما سورة الشعراء فقفزت بعد إيمان السحرة وتهديد فرعون إياهم إلى خروج موسى ومن معه إلى البحر ومطاردة فرعون لهم، ثم إغراقه، دون إشارة إلى ما حدث قبل ذلك مثلها في ذلك مثل سورة طه.

وتنفرد سورة الشعراء بتفصيل مطاردة فرعون وتجنيده الجند لملاحقة موسى ومن معه، دون خوف أصحاب موسى من أن يدركهم فرعون، ثم فلق البحر، وتحوله إلى أجزاء من اليابسة كل جزء كأنه الجبل، وأما سورة الأعراف فقد أجملت الأمر كله في جملتين قصيرتين: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، وأما سورة «طه» فقد فصلت بعض التفصيل حيث ذكرت وحي الله لموسى بضرب البحر ليظهر لهم طريق في اليابسة، وطمأنتهم إلى أنهم لن يدركوا، وأن فرعون اتبعهم بجنوده، فلاقوا من هول الموت ما لاقوا.

في سورة يونس: (٥١):

وفي سورة «يونس» منحى مختلف عن السور الثلاث السابقة، في طريقة عرض قصة المواجهة مع فرعون سيتضح لنا بعد شرح الآيات، فالله تعالى يذكر أنه بعث موسى وهارون مصحوبين بالأدلة الصادقة على دعوتهما إلى فرعون وكبراء قومه، فكذبوهما استكبارًا واستعلاء؛ لأنهم كانوا قومًا مجرمين، فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة على صدقه قالوا: ليس هذا إلاّ سحرًا شديد الوضوح والظهور، يرد عليهم موسى مستنكرًا: هل تصفون الحق البين الذي جاءكم بأنه سحر؟ فهل ما شاهدتموه بأعينتكم سحر. إن السحرة مآلهم الخيبة والفشل، فيجيبونه موبخين: هل جئت إلينا لتصرفنا عن طريقتنا المثلى في العبادة التي وجدنا عليها آباءنا، لكي يصبح لكما الجاه والسلطان في هذا البلد، إننا لن نؤمن لك أبدًا.

يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآيات. ٧٥-٧٨).

لقد أجملت هذه الآيات أمام فرعون وقومه بل اكتفت بوصف معجزته بالحق، وذكر رد فعل فرعون وقومه عليها، وهو اتهامه بالسحر، واستنكاره دعوته.

بعدما رأى فرعون ما رأى من معجزات موسى أمر أتباعه أن يحضروا له كل ساحر ماهر في فنون السحر، وعندما حضر السحرة طلب إليهم موسى أن يلقوا ما يريدون إلقاءه، فلما ألقوا ما معهم قال لهم موسى: هذا هو السحر بعينه الذي صنعتموه، وإن الله سيمحق سحركم؛ لأنكم مفسدون بسحركم، والله لا يساعد على إنجاح عمل المفسدين، وسوف يظهر الحق بقدرته رغم كره المجرمين لذلك.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [illegible].

واضح الإجمال في هذا الموقف أيضًا، ففرعون يطلب السحرة فيحضرون، ويطلب منهم موسى إلقاء ما معهم فيلقون، ولا تذكر الآيات ماذا ألقوا، ولا ما صار إليه ما ألقوه كما في السور السابقة، وإنما تذكر تعقيب موسى، كما لا تذكر الآيات إلقاء موسى عصاه، ولا وقع فعله على السحرة، وإيمانهم به.

بعد هذا المشهد، تنتقل الآيات إلى النتيجة: فلم يؤمن إلا نفر قليل من قومه- بني إسرائيل- مع تخوفهم من فرعون وكبار قومهم إن يفتنوهم عن دينهم؛ لأن فرعون عاتٍ في الحكم في بلاده، يجاوز الحد في معاقبة مخالفيه، ويحاول موسى أن يثبت قلوب المؤمنين به، فيدعوهم إلى التوكل على الله،

والاطمئنان لوعده بنصرهم إن كانوا مؤمنين حقًا، ومستسلمين لحكم الله ومشيئته، فيستجيبون لقوله، ويعلنون توكلهم على الله، ويدعونه يحميهم من عذاب فرعون وقومه، حتى لا يصيبهم الضر، ويشمت فيهم قوم فرعون، ويظنوا أن دينهم ليس حقًا، فلو كان حقًا- في رأيهم- لما أصابهم ما أصابهم، كما يدعونه أن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين.

يقول تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

(الآيات: ٨٣-٨٦)

نفهم من هذه الآيات أن الذين آمنوا بموسى كانوا نفرًا قليلًا من قومه، وأن كبار بني إسرائيل كانوا ممالئين فرعون، بدليل خوف المؤمنين بموسى منهم في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وإن كان للمفسرين آراء أخرى تستبعد هذا الفهم، وتؤول فتجعل الضمير في «ملئهم» يعود على فرعون، ولكني أرى أنه لا مانع من الفهم الذي ذكرته، بل إنه يتماشى مع طبائع الأمور، فبطش فرعون بهم لسنين عدة أخاف بني إسرائيل، فلا يعاب عليهم أن يمالئوه خوفًا على أنفسهم، وحرصًا على رئاستهم في قومهم، وقد قرأنا كثيرًا في قصص الأنبياء أن الملأ كانوا دائمًا هم المعارضين.

أوحى الله إلى موسى وأخيه هارون أن يتخذا لقومهما المؤمنين بيوتًا يجعلونها للصلاة والعبادة، وأن يجعلوا بيوتهم مصلًّى للخائفين الذين لا يستطيعون إعلان صلاتهم وعبادتهم خوفًا من بطش فرعون، وأن يقيموا جميعًا الصلاة، ولا يتهاونوا في شيء منها، وطلب من موسى أن يبشر المؤمنين بنصر الله لهم وحسن ثوابه.

ولما ضاق صدر موسى من تعنت فرعون وقومه، وشدة إيذائهم له ولأتباعه اتجه إلى الله مخاطبًا إياه- في ضراعة وخشوع- لقد أعطيت يا رب فرعون وكبراء قومه أموالًا يستمتعون بها، ومظاهر الحياة المترفة، فماذا فعلوا في مقابل ذلك، لقد أضلوا الناس عن سبيل الحق، ومنعوهم الإيمان بك، يا رب أهلك أموالهم وبددها، وقس قلوبهم أكثر مما هي قاسية حتى لا يدخلها الإيمان، فيستوجبوا رحمتك، ويفلتوا من عقابك، بل يذوقون العذاب الأليم، فأخبره الله أنه قد استجاب دعاءه ودعاء أخيه، فاستمرا على نهجكما المستقيم، ولا تتبعا سبيل المنحرفين عن الحق، الجاهلين لحق الله عليهم.

يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الآيات ٨٧-٨٩)

وحقق الله وعده لموسى فمكنه من النجاة من فرعون، ومن عبور البحر، وقد أراد فرعون أن يعيد لموسى ومن معه إلى سلطانه، فاتبعهم بجنوده ظلمًا وعدوانًا، فلما أطبق البحر عليه، وأدرك أنه غارق لا محالة أخذ يصيح: آمنت بالله الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين.

يهزأ الله به، ويسخر من هذا الإيمان الذي ليس له دافع إلا الخوف من الموت، ويقول له: الآن تعلن الإيمان، وقد تماديت في عصيانك سنين طويلة، وكنت من المفسدين في الأرض، لقد صدر الحكم بهلاكك وإغراقك، ولكننا سنجعل البحر يلفظ بدنك إلى الشاطئ حتى يراه الناس، ويتأكدوا من غرقك، ويكون لهم من ذلك عظة وعبرة وإن كان أكثر الناس في غفلة من هذه العظات والعبر.

يقول تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

(الآيات: ٩٠- ٩٢)

وتنتهي قصة موسى في سورة يونس، وتنفرد هذه السورة عن السور الثلاث السابقة في عدة أمور:

١- الإجمال في وصف مشهد مواجهة موسى لفرعون، كما فصلت فيما سبق.

٢- التصريح بقلة المؤمنين من قوم موسى وعدم الإشارة إلى إيمان السحرة.

٣- إيحاء الله إلى موسى وأخيه أن يتخذوا بيوتًا للصلاة والعبادة لقومهم بمصر وأن يجعلوا بيوتهم مصلى.

٤- دعاء موسى على فرعون وقومه، إهلاك الأموال وألا يدخل الإيمان قلوبهم.

٥- ذكر إيمان فرعون عندما أدركه الغرق.

٦- إعلان الله إنجاء جسد فرعون من مخاطر الغرق وتشويهاته ليشاهده الناس فيكون لهم عبرة.

في سورة غافر: (٦٠).

يطالعنا في هذه السور جانب جديد تمامًا لم تتعرض له السور السابقة، فمعظم ما يذكر في هذه السورة هو حديث رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه كما سنرى.

تبدأ الآيات بذكر إرسال موسى إلى فرعون وهامان وقارون، وتذكر المعجزات والأدلة القوية (وهذه أول مرة يذكر فيها هامان وقارون، وأن موسى مرسل إليهما مع فرعون)، ودون ذكر لأية تفصيلات تذكر الآيات أن القوم قالوا عن موسى: إنه ساحر كذاب، ثم لما اتضح الحق أمام أعينهم لجأوا إلى استعمال القوة، وقرروا أن يقتلوا الذكور من أولاد بني إسرائيل

الذين اتبعوه ويتركوا الإناث أحياء، وهذا مكر الكافرين، ولن يفلح مكرهم.

ثم استشاط فرعون غضبًا وقال لمن معه: اتركوني أقتل موسى، وليستنجد بربه إن شاء، فإن أخشى أن ينجح في تغيير دينكم، وإحلال دينه مكانه، أو أن يملأ البلاد بالفتن إن فشل في تحقيق هدفه الأول.

استعاذ موسى بالله من ضلالهم واستكبارهم، فهم لا يخشون العاقبة، لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من حساب.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (الآيات: ٢٣-٢٧)

بعد ذلك يبدأ دور الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه فيلقى كلمة مؤثرة ملؤها الإيمان والحكمة والمنطق السليم، فيقول لهم: لماذا تريدون قتل هذا الرجل؟ وما جريمته؟ إنه لم يفعل شيئًا إلا أن قال لكم ربي الله، فهل تقتلون رجلًا لأن يقول ربي الله؟! وهو قد أتاكم بالأدلة الواضحة التي أمده الله بها لتكون برهان صدقه، ومع ذلك فلنفترض أنه كاذب فلن يضر كذبه أحدًا غيره، لكنه إذا كان صادقًا يصيبكم ما وعدكم به من ثواب

حسن إذا آمنتم، ومن سوء العذاب إذا كذبتم، وفوق كل هذا فإن الله لا يوفق المجاوز الحد في أباطيله الكذاب في أقواله، ويستمر في خطابهم قائلا: يا قوم إنكم تتمتعون الآن بما حباكم الله به من ملك عريض، ونصر على الأعداء، فإذا خالفتم موسى، وكذبتم برسالته، فمن يستطيع حمايتكم من بطش الله بكم إذا أنزل عليكم عذابه، فما كان جواب فرعون على هذا المنطق السليم إلا جواب كل طاغية مستبد: ليس لكم رأي إلا ما أراه، وإن مذهبي الذي أهديكم هو المذهب الراشد.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (الآيات: ٢٨-٢٩)

لا يعقب مؤمن آل فرعون على مبدأ فرعون الاستبدادي وإنما يستمر في حديثه المُتسِم بالمنطق والحجة القوية، فيحذر قومه من سوء العذاب الذي سيلقاهم إذا استمروا في كفرهم وعنادهم، فهو يخشى عليهم أن يواجهوا يومًا ينزل العذاب بهم فيه، كما نزل بالمتحزبين ضد رسلهم، ويعدد لهم قبائل يعرفون مصيرها مثل قوم نوح وعاد، وثمود ومن أتى بعدهم من المكذبين

برسلهم، لقد لاقوا جزاءهم العادل على تكذيبهم رسلهم، ولم يظلمهم الله، فالله لا يريد إيقاع الظلم بعباده.

وبعد أن حذرهم من عذاب الله لهم في الدنيا، أخذ يحذرهم عذاب الله لهم في اليوم الآخر، يوم يحشرون جميعًا للحساب، وينادي المجرمون بالويل والثبور توقعًا لما سيصيبهم من عذاب ذلك اليوم الذي لن يطيقوا مواجهته، فيفرون هاربين، ولكن إلى أين؟ ليس لهم حام يحميهم من عذاب الله.

إن الله يرشدكم إلى طريق الهدى، فإذا لم تتبعوه فلن تجدوا هاديًا يهديكم غيره؛ لأن من يضله الله- بسبب سوء طويته، وانحرافه عن الحق- فليس هناك هاد يهديه، ثم يذكرهم موقف آبائهم حينما جاءهم يوسف برسالة التوحيد من ربهم ومعه الأدلة الساطعة، والبراهين الناصعة، فتشككوا فيما جاء به، وظلوا كذلك حتى مات، فقالوا- فرحين لموته- لن يرسل الله إلينا رسولًا بعده، ولكن ها هو ذا الرسول قد جاء، فإذا استمروا على كفرهم، فقد وقعوا في الضلال كأسلافهم؛ لأن الله لا يهدي المسرف في عناده، المتشكك فيما جاءه من عند الله.

إن الذين يتشككون في البينات الواضحة التي يأتي بها الرسل من عند الله من حجة أو دليل جاءهم من عند الله، فما أعظم غضب الله عليهم، وكرهه لهم، وكذلك غضب المؤمنين وكرههم لهم! وسيختم الله على كل قلوب المتكبرين المتجبرين بسبب ما اتصفوا به من مكابرة وعناد لما أنزل الله عليهم- على يد رسله- من الآيات البينات.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ (الآيات: ٣٠-٣٥).

لا يأبه فرعون لهذا المنطق، ويحاول أن يقارع الحجة بالحجة، بل يخطر بباله أمر غريب يدل على سذاجته وسطحيته وغروره، فهو يقول لوزيره هامان: ابن لي صرحًا شاهقًا يطاول السماء، فأقف فوقه، لعلي أتمكن من دخول السماوات فأنظر إلى إله موسى نظر عيان، لأتأكد هل هو موجود أو غير موجود، وأكبر ظني أنه غير موجود، وأن موسى كاذب، وأن لا إله غيري.

وهكذا خيل إلى فرعون بسبب سوء عمله وسقم تفكيره، أن هذا الاقتراح شيء جيد، وأنه سيحق الحق، ويبطل الباطل في زعمه، ولكن مكر فرعون وتدبيره لا عاقبة لهما إلا هلاكه وخسرانه.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ

لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ (الآيتان: ٣٦-٣٧)

ونسأل هل نفذ هامان هذا الأمر الساذج المضحك؟ أو أنه أقنع سيده بسخف هذا التفكير؟ أو أنه بدأ التنفيذ وأخفقت الفكرة إخفاقًا مخزيًا؟ لم يهتم القرآن بهذا، فهذا أمر أهون من أن يقف القرآن عنده.

يعود الرجل المؤمن إلى حديثه، فيدعو قومه إلى اتباع رأيه والإيمان بموسى فهذا وحده سبيل الرشاد، لا ما يراه فرعون، ثم يعظهم ببيان تفاهة هذه الحياة، وزوال متاعها مهما طال، وإنما الآخرة وحدها هي التي ينبغي للعاقل أن يعمل من أجلها، فهي دار الخلود والاستقرار.

إن كرم الله اقتضى أن يجازي عن السيئة بسيئة مثلها، وأما الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان سواء أكان ذكرًا أم أنثى، فسيضاعف لها الثواب، ويدخل الجنة دون أن يحاسبه الله على ما فرط من هفوات.

ويتساءل متعجبًا من قومه هؤلاء؛ إنه يدعوهم إلى طريق الفوز والنجاة، وهو الإيمان برسالة موسى التي أرسلها الله إليهم، بينما هم يدعونه إلى طريق الهلاك والخسارة، طريق النار في الآخرة، وهو الكفر بما جاء به موسى، وعبادة فرعون، إنهم يدعونه إلى الإشراك بالله بعبادة آلهة غيره معه لا علم له بها، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله المستحق للعبادة، المتصف بالعزة، وغفران الذنوب.

حقًا إن الذي تدعونني إلى عبادته من هذه الآلهة لا يمكن لعاقل أن يعبدها فهي لا تنفع شيئًا، ولا تضر شيئًا في الدنيا، وفي الآخرة، وإن مرجعنا جميعًا إلى الله، وأن المجاوزين للحد في كفرهم هم أصحاب النار لا يفارقونها، وستذكرون ما أقوله لكم عندما يحل بكم العذاب.

ثم يختم كلامه بتفويض أمره كله إلى الله فهو البصير بعباده، العليم بأحوالهم، فنجاه الله مما حاولوا إلحاقه به من عذاب لتجرئه على مقام فرعون، ومخالفته، وفي القبر فهم يعرضون فيه على النار صباحًا ومساءً، ثم عذاب الآخرة، فسيدخلون أشد أنواع العذاب.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (الآيات: ٣٨-٤٨)

وهكذا انتهت هذه الملحمة الإيمانية، لرجل صادق الإيمان، حريص على

دعوة الناس، على الرغم مما قد يصيبه من ضرر، ولكن صدق إيمانه لا يجعله يفكر في العواقب، وبانتهاء هذه الملحمة تنتهي قصة موسى في سورة «غافر» التي تسمى أيضًا بالمؤمن نسبة لهذا الرجل.

وتدور في النفس بعض الخواطر حول «قصة موسى» في هذه السورة أجملها فيما يلي:

انفردت هذه السورة عن السور الأربع السابقة بأشياء:

١ - ذِكر أن رسالة موسى كانت موجهة إلى فرعون وهامان وقارون، بينما نجد السور السابقة تذكر فرعون فقط.

٢ - كما انفردت بذكر هذه الموعظة القوية التي ألقاها الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه فلم يرد لها ذكر في أي سُوَر القرآن.

وأحب أن أقف وقفة عند هذا الرجل دفعَ إليها التأمل، فهذا الرجل لابد أن يكون من كبار قوم فرعون حتى يتسنى له حضور مشاورته مع أصحابه، وأن يسمح له بإبداء الرأي، وأن يصبر عليه فرعون حتى قال ما قال، وقد يرد إلى الذهن افتراض ربما يوضح جرأة الرجل على كل هذا الكلام المصادم لفرعون ودينه.

فأنا أزعم أن هذا القول لم يُقل أمام فرعون، وإنما قاله الرجل المؤمن لحاشية فرعون في جلساتهم الخاصة، وهم يناقشون هذه النازلة التي نزلت بهم، وإلا فكيف نفسر صبر فرعون عليه وهو يهاجم دينه، ويكيل الثناء لدين

موسى، مهما كان لهذا الرجل من منزلة في بلاط فرعون، وأظن أنه ليس في الآيات ما يناقض هذا الافتراض.

بقيت كلمة تتصل ببعض ما قاله الرجل المؤمن، ففيه عبارة ربما تكون من قول الله عز وجل هي قوله تعالى- في ثنايا كلام الرجل المؤمن: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الآية: ٤٠).

فهذا التقرير أشبه ما يكون بقول الله، جاء اعتراضًا بين كلام الرجل المؤمن، لتأكيد هذه الحقيقة للمؤمنين، على أنه لا يستبعد أن يكون هذا كلام الرجل المؤمن تعلمه من موسى، ومثل هذا ما قاله سحرة فرعون بعد إيمانهم في سورة طه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾(سورة طه: ٧٤).

٣ـ كما انفردت بذكر الطلب الغريب الذي طلبه فرعون من هامان بأن يبني له صرحًا ليطلع إلى إله موسى في وهمه، فهذا الطلب لم يذكر في السور الأربع السابقة، وإن كان ذكر في سورة أخرى هي سورة «القصص» كما سأذكر ذلك في حينه.

وإلى جانب انفرادها بهذه الأمور فقد أوجزت إيجازًا شديدًا في أمور فصلتها السور الأخرى: الأعراف، الشعراء، طه، من مهرجان السحرة وإيمانهم، وذكر غرق فرعون...الخ.

وقبل أن نطوي صفحة القصة في هذه السورة نتحدث عن «هامان» لقد زعم المستشرقون أنه فارسي ولا علاقة له بفرعون وقد رد عليهم الدكتور

عبد الرحمن بدوي في كتابه: « دفاع عن القرآن ضد منتقديه» فذكر أن الاسم مأخوذ من «آمون» الإله الأكبر عند المصريين، ولا سيما أن نطقه الصحيح «أمان» وكاهنه الأكبر كان وزير فرعون، فهو ليس علمًا على شخص بعينه، بل المراد كاهن آمون، ثم حذفت كاهن اختصارًا، فأصبح آمان أو هامان.

وثمة سور أخرى تناولت قصة مواجهة موسى لفرعون بطريقة أقل تفصيلًا من السور الخمس السابقة، وهي «القصص والزخرف».

في سورة القصص: (٤٩):

وقد مر بنا من قبل في سورة «القصص» تفصيل شامل لمولد موسى، ومواقف من حياته من قبل البعثة، ثم فصلت ملابسات البعثة، ولكنها أوجزت الحديث عن مواجهته فرعون، فموسى عندما جاء إلى فرعون بما معه من المعجزات كان جوابهم ما هذا إلا سحر اخترعه موسى، وأنهم لم يسمعوا بمثل دعوة موسى في آبائهم الأولين، فأجابهم بأن الله يعلم الذي جاء بالهدى والرشاد- يقصد- نفسه- والذي سيتحقق له الفوز في النهاية، ولا يمكن أن يفوز الظالمون.

يقول فرعون ويعلن للملأ أنه لا يعلم لهم إلهًا غيره، ثم يأمر هامان أن يهيئ له مواد قوية للبناء، فيوقد على الطين حتى يحترق ويَصلُب، فيجعل منه صرحًا شامخًا فيصعد عليه فرعون لينظر إلى إله موسى (سذاجة وبله) ثم يعقب- كي لا يكون كلامه اعترافًا بوجود إله غيره- فيقول: وإني شديد الظن بأنه من الكاذبين، وتجمل الآيات اضطهاد فرعون لموسى ومن معه بعد

ذلك، فتذكر أنه استكبر هو وجنوده بغير حق يؤيدهم ظنًا منهم أنهم لن يرجعوا إلينا في اليوم الآخر فأغرقناهم جميعًا في البحر.

فانظر- يا محمد – مصير كل ظالم كيف يكون. لقد كان فرعون وحاشيته في الدنيا أئمة يقتدى بهم في الضلال والكفر الذي يؤدي إلى النار، ويوم القيامة لن يجدوا لهم نصيرًا، وإن اللعنة حَلت بهم في الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين، ويوم القيامة سيكونون من المبعدين المطرودين من رحمة الله.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾

(الآيات: ٣٦-٤٢)

فهذه السورة أوجزت كل المواقف التي حدثت في أثناء جهاد موسى ضد فرعون، وقد اشتركت مع سورة غافر في ذكر أمر فرعون لهامان أن يبني له

صرحًا لينظر إلى إله موسى، وإن كانت حددت المادة التي طلب بناء الصرح بها، وهي الآجر- أو الطوب الأحمر- إذ لم يذكر باسمه وإنما ذكر بمكوناته، وهي طين توقد عليه نار حتى يحترق.

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فكلمة الأرض كناية عن مصر، وقد تكرر ذكر الأرض كناية عن مصر في أكثر من سورة، ولعل سر ذلك هو ما كانت تتمتع به مصر من اتساع وعمران وحضارة، فكأنها هي الأرض كلها.

وقد يكون من المفيد أن نذكر الآيات التالية للقصة، ففيها الهدف من ذكر القصة، وهو توكيد نبوة محمد ﷺ فهو لم يكن حاضرًا حينما خاطب الله موسى وهو بجانب الجبل الغربي فأوحى إليه برسالته، فلقد مضت على ذلك قرون طويلة عاشت فيها أمم متعددة، وأجيال متعاقبة، كما أنك لم تكن مقيمًا مع موسى في مدين، فتعلم خبره معهم، ثم تعود لتتلوه على أهل مكة، ولكنا أرسلناك إليهم، وأوحينا إليك بهذه المغيبات، كذلك لم تكن بجانب جبل الطور حينما كلم الله موسى بعد ذلك، ولكن الله أرسلك رحمة لتنذر أقوامًا لم يأتهم رسول من قبلك يقص عليهم مثل هذه الأخبار لعلهم يتعظون.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ

ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الآيات: ٣٦-٤٢)

في سورة الزخرف: (٦٣):

وفي سورة الزخرف ذِكر لبعض المواقف التي حدثت في أثناء المواجهة مع فرعون، ولكن في إيجاز، فموسى عندما جاء فرعون وملأه بما معه من معجزات مقدمًا نفسه لهم بأنه رسول رب العالمين، أخذوا يضحكون بسخرية واستهزاء به، وقد أخذهم الله بألوان من العذاب- التي فصلت في سورة الأعراف كما مر من قبل- وهي في الوقت نفسه معجزات دالة على صدق موسى، وكان كل معجزة تتلوها معجزة أقوى منها: فمن الجدب إلى الطوفان إلى الجراد....إلخ، وذلك رجاء أن يرجعوا عن غيهم، فلما اشتد بهم العذاب قالوا له: يا أيها الساحر- وهو في هذا الموقف ليس لفظ ذم، وإنما هو قرين العالم في عرفهم- ادع إلهك أن يكشف هذا العذاب عنا حتى نؤمن بك، فاستجاب الله دعاء موسى وكشف عنهم العذاب، فإذا بهم ينقضون عهدهم ولا يؤمنون.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾(الآيات: ٤٦-٥٠).

في أثناء ذلك وجه فرعون إلى قومه خطابًا ملؤه التباهي والتفاخر يقول لهم: أليس لي ملك مصر العظيمة، أتصرف في أمورها كما أشاء، وتحيط بقصوري وجناتي الأنهار الكثيرة- المتفرعة من النيل- أفلا تشاهدون بأعينكم كل ذلك؟

ألست خيرًا وأعظم من هذا العَيِيّ الذي لا يحسن التعبير عن نفسه، ولا يكاد يفهم سامعه شيئًا مما يقول، فلو أنه كان رسولًا حقًا، أفما كان إلهه قادرًا على أن يظهره في مظهر العظمة والجلال، فيحليه بأساور من ذهب، أو يرسل معه الملائكة ملازمين له، وما دام شيء من هذا لم يحدث فهو ليس نبيًا.

وكان لمثل هذا الكلام أثره في قومه، فأطاعوه في رفضه دعوة موسى؛ لأنهم كانوا قومًا فاسقين، فلما تمادوا في استكبارهم أثاروا غضبنا عليهم، فانتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين.

يقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فهذه السورة لم تشر إلى معجزات موسى صراحة، وإنما ذكرت أنه جاءهم بآيات وكانت كل آية أكبر من السابقة، فإذا قرأنا ما جاء عن ذلك في سورة العراف عرفنا المراد بالآيات هنا.

تكشف هذه الآيات عن اعتزاز فرعون بملك مصر، ومباهاته بأنهارها، وله الحق في ذلك، فمصر في وقته كانت من أعظم بلاد العالم، وقد انفردت الزخرف بذكر ذلك، كما انفردت بذكر تعيير فرعون لموسى بالعيب الذي كان في لسانه، والذي دعا الله موسى ربه أن يمده بهارون تلافيًا لهذا العيب، وبذكر استنكار فرعون أن يكون موسى رسولًا دون أن يتحلى بمظاهر الثراء، أو تحيطه الملائكة.

وهناك سور أخرى أشارت إشارات عابرة إلى إرسال موسى إلى فرعون وما لاقاه منه، وكانت أكثر إيجازًا أو تركيزًا من غيرها من السور السابق ذكرها وهي: (على حسب ترتيب النزول):

سورة الفرقان: (٤٢):

فقد ذكرت أن الله أعطى موسى الكتاب، وهو التوراة، وجعل هارون وزيرًا له، وطلب منهما أن يذهبا إلى القوم المكذبين بآيات الله الدالة على وجوده وقدرته، فدمرهم الله تدميرًا لما كذبوهما ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (الآيات: ٣٥-٣٦).

فالآيات لم تذكر شيئًا من موقفهم من موسى، وإنما ذكرت عاقبتهم وهي الدمار، ولم تذكر وسيلة الدمار وهي الغرق، كما أنها لم تصرح بذكر فرعون وملئه وإنما كَنَت عنهم بالقوم المكذبين.

سورة مريم:

تذكر هذه السورة تكريم الله لموسى، والإشادة به فهو مُخلَص اختصه الله لنفسه، وخلصه من كل دنس، وناداه من الجانب الأيمن من جبل الطور، وقربه إليه وناجاه ووهب له الكثير من رحمته بأن جعل أخاه هارون معه يشد من أزره.

يقول تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾

(الآيات: ٥١-٥٣).

فهذه الآيات لم تذكر شيئًا عن فرعون ومواجهته، واكتفت ببعثته ومدح الله له وجعل أخيه هارون نبيًا معه.

سورة النمل: (٤٨):

مر بنا في سورة النمل الظروف التي كلف الله فيها موسى الذهاب إلى فرعون، فلما ذهب موسى إلى فرعون وأظهر أمامه المعجزات واضحة بينة، كذب بها هو من معه ورفضوها مع أن قلوبهم كانت موقنة منها، وذلك بسبب ظلمهم واستكبارهم، فانظر- يا محمد- كيف كانت عاقبة هؤلاء المفسدين.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

(الآيتان: ١٣-١٤)

وقد ذكرت هذه الآيات أمرًا جديدًا، وهو أن كفر القوم لم يكن عن اقتناع بل كان اقتناعهم بصدق موسى، وأما تكذيبهم فبسبب الاستكبار والظلم.

سورة الإسراء: (٥٠):

تذكر الآيات أن الله قد أعطى موسى تسع آيات (قد ذُكر منها ثمان في سورة الأعراف وهي السنين- ونقص الثمرات – العصا – اليد – الطوفان – الجراد – القُمَّل – الضفادع – الدم – وذكر في سورة يونس التاسعة وهي الطمس على أموالهم).

وهنا يلتفت الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ فيقول له: فاسأل بني إسرائيل الموجودين في يثرب ليصدقوا قولك، فهو قول حق، لقد قال فرعون لموسى لما جاءه بهذه الآيات إني أظنك يا موسى مسحورًا قد خُدعِت وغُرِّرَ بك، فيجيبه موسى: لقد علمت أن الله رب السماوات والأرض هو منزل هذه الآيات للعظة والعبرة، وإني أظنك يا فرعون على خطر الهلاك بتكذيبك، فأراد فرعون أن يحملهم على الخروج من أرض مصر، فأغرقناه ومن معه أجمعين، وقلنا لبني إسرائيل بعد ذلك لقد أصبحتم أحرارًا تسكنون أي أرض شئتم، فإذا قامت القيامة فستجتمعون جميعًا للحساب.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن

يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (الآيات ١٠١-١٠٤)

وفي هذه الآيات ما يؤكد تيقن فرعون بصدق موسى، وفي قول موسى له: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كما جاء في سورة النمل.

سورة هود: (٥٢):

وأما في سورة هود فتتحدث الآيات عن أن الله أرسل موسى إلى فرعون وملئه بالحجة القوية، والمعجزات الصادقة، فلم يؤمنوا به، وانحياز الملأ إلى رأي فرعون الذي تصفهن الآية بأنه غير رشيد، وما دام قادهم في الدنيا إلى الضلال فسيقودهم يوم القيامة إلى النار، وبئس المكان الذي سيئولون إليه، وحلت عليهم اللعنة في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ (الآيات ٩٦-٩٩)

سورة الصافات: (٥٦):

يشيد الله بموسى وهارون، ويذكر أنه من عليهما، بالنجاة مع قومهما من الكرب العظيم، أي اضطهاد فرعون لهم، وأن الله نصرهم فكانت لهم الغلبة،

وأنزل على موسى وهارون الكتاب المبين، وهداهما إلى طريق الحق والرشاد، وترك لهما ذكرًا في الآخرين، ثم يحييهما الله بالسلام، ويبين الله أن هذا الجزاء يجزى به المحسنين، وقد كان موسى وهارون من عباده المؤمنين. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الآيات ١١٤-١٢٢)

سورة الدخان: (٦٤):

تأتي قصة موسى مع فرعون بإيجاز في هذه السورة في معرض تهديد كفار مكة لكفرهم بمحمد ﷺ وإيذائه، فتذكر الآيات أن الله سبحانه وتعالى ابتلى قبلهم قوم فرعون بإرسال موسى إليهم يدعوهم إلى عبادة الله، ولم يذكر اسمه وإنما نعته بأنه رسول كريم، وقد طلب إليهم أن يتركوا بني إسرائيل ليخرجوا معه إلى أرض يستطيعون فيها عبادة الله دون اضطهاد، ولم يصرح بذكرهم أيضًا، وإنما كني عنهم «بـ «عباد الله»»، وأخبرهم أنه رسول أمين في تبليغ دعوة الله إليهم دون زيادة أو نقصان، وطلب منهم ألا يتجبروا في الأرض، ويتمردوا على دعوة الله لهم، فقد أتاهم بحجة ساطعة هي معجزاته ولعلهم قد هددوه بالرجم، فاستعاذ بالله ربه وربهم من أن يفعلوا به ذلك، وقال: إذا

كنتم لا تريدون الإيمان بي فلتعتزلوني، وتكفوا أذاكم عني، فلما وجد إصرارهم على الكفر، دعا ربه أن يهلكهم فإني مجرمون، واستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه أن يأخذ عباده- بني إسرائيل- ليلًا ويتجه إلى البحر، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه حتى يكون على علم حتى لا يضطرب إذا فوجئ بهم من خلفه؟ وطلب منه بعد عبور البحر أن يتركه ساكنًا على حاله عند عبوره، حتى يُطمع ذلك فرعون وقومه فيعبروا وراءه، فينطبق عليهم البحر فيغرقوا، فقد حكم الله بذلك.

يقول الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾(الآيات: ١٧- ٢٤).

الإيجاز واضح في هذه الآيات، ومن مظاهره هنا أن الحديث اقتصر على موسى فهو يخاطب آل فرعون، ولكن لا يذكر ردهم، وكذلك حذف بعض العبارات التي يمكن أن يفهم معناها من سياق الكلام، كالحذف بعد قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ فمفهوم الكلام أن الله استجاب دعاءه فقال له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ فحذف هذه الجمل للإيجاز البليغ.

تستمر الآيات في التنديد بآل فرعون، واستحضار العبرة من هلاكهم، فقد

تركوا الكثير من مظاهر الترف الذي كانوا يعيشون فيه، من الحدائق الغناء، وعيون الماء المتدفقة، والزروع الناضرة، والمنزلة العالية التي كانوا يحتلونها، وسائر النعم التي كانوا يستمتعون بها، وماذا كان مآل كل تلك النعم العظيمة التي استمتعوا بها، ذهبت إلى غيرهم، وحرموا منها بتمردهم على الله وإهلاكه إياهم، فلم يأبه لهلاكهم أحد لا في السماوات ولا في الأرض، وما كان الله ليمهلهم ويؤخر هلاكهم لأنه حق عليهم القول، واستوجبوا عذاب الله.

يقول الله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾(الآيات: ٢٥-٢٩).

يقصد الله تعالى بقوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ بني إسرائيل؛ لأنه صرح بذلك من قبل سورة الشعراء، كما مر بنا من قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(الآية: ٥٩).

وهنا يرد على الخاطر سؤال: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾؟ هل المراد أن موسى وبني إسرائيل ورثوا ملك مصر، وأصبحوا ملوكًا لها؟

الحقائق التاريخية المؤكدة تنفي ذلك، فلم يعد بنو إسرائيل إلى مصر، بعد خروجهم منها، بل كان مقصدهم الأساسي أرض كنعان، والقرآن نفسه- وهو المرجع الأعلى لكل ما أكتب، ولو عارض صريحه بعد ما أكده التاريخ أقول: صدق الله وكذب التاريخ- القرآن لم يذكر شيئًا عن عودتهم إلى مصر، بل ذكر عكس ذلك، وهو أنهم حاولوا دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله

لهم ولكنهم جبنوا عن دخولها على الرغم من محاولات موسى معهم، وتشجيعه لهم بوعدهم بنصر الله الذي لا يتخلف، فحكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة في صحراء سيناء، وكانوا لا يستطيعون الحصول على الطعام المألوف للبشر- كما سأذكر بعد- فتمنوا أن يجدوا هذا الطعام، فقال لهم موسى ساخرًا: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾ (البقرة: ٦١) ومصر هنا تعني المدينة الكبيرة وليس المقصود «مصر» المعروفة، بدليل تنوينها، ومن يذكر أنها «مصر» يعتبر الأمر هنا للتيئيس، أي أنهم لن يحصلوا على مثل هذا الطعام؛ لأنه في بلاد ليس في مقدورهم دخولها.

إذن فما المراد بقوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ أرى – والله أعلم- أن الضمير هنا يعود إلى «الحالة التي كان فيها فرعون من ترف ومكانة».

يأتي سؤال آخر وهو: هل تحققت هذه الحالة لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر مع ما نعرفه من الحياة الخشنة التي عاشوها في التية؟

أقول- والله أعلم- إنه تحقق لهم جزء منها، وهو الحرية التي تمتعوا بها بعد الاضطهاد والأذى اللذين كانا يلحقهما بهم فرعون، وأجل الله تحقيق بقية الحالة من ترف ومكانة، إلى أن أصلحوا حالهم، فكان لهم ذلك في عهد داود ثم سليمان.

ويختتم الله آيات سورة الدخان بذكر: أنه نجى بني إسرائيل من العذاب المذل من فرعون الذي كان متجبرًا، ومجاوزًا للحد في تعذيبهم، وأنه قد

اختارهم على كل أجيال زمانهم لحمل هذه الرسالة، وهو يعلم قدرتهم على ذلك (ولعل هذا الاختيار راجع إلى أنهم كانوا ورثة أنبياء عظام تتابعت فيهم النبوة أجيالًا بعد أجيال، فكانوا أقدر على حمل عبئها من غيرهم من عباد الأوثان) وأظهر لهم من المعجزات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر جلي لمن أعمل عقله وتبصر، وسنرى بعد ماذا كان موقفهم منها.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ (الآيات: ٣٠-٣٣)

سورة الذاريات: (٦٧):

في ثلاث جمل فقط تشير السورة إلى قصة موسى مع فرعون: فالله أرسله إليه بحجة قوية على صدق دعواه- يقصد المعجزات- فأعرض فرعون عنها هو وأعوانه، واتهموا موسى بالسحر والجنون، فأخذه الله هو وأعوانه فألقاهم في البحر، وهو مستحق للوم على سوء عمله.

يقول الله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الآيات: ٣٨-٤٠)

سورة المؤمنون: (٧٢):

بنفس الإيجاز، وفي جمل قليلة، تتحدث سورة «المؤمنون» عن هذه القصة، فالله قد أرسل موسى وأخاه هارون بالمعجزات والحجة القوية إلى فرعون

وملئه، وصدهم استكبارهم وتجبرهم عن الإيمان، وسخروا من دعوتهما، فكيف يؤمنون بهما وهما بشران مثلهم، وقومهما- بنو إسرائيل- يعبدون فرعون مثل المصريين، فكذبوهما فأهلكهم الله (ولم تحدد الآيات نوع الهلاك، وإما ذكرت نتيجته وهو الإهلاك).

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ (الآيات: ٤٥-٤٨).

وقد أضافت هذه الآيات معنى لم يذكر من قبل، وهو أن بني إسرائيل في مصر كانوا يعبدون فرعون، ربما تقية أو مجاراة للمصريين، وقد يؤيد ذلك الآية التي جاءت في سورة يونس وبينت أن المؤمنين بموسى كانوا يخشون فرعون وكبار قومهم.

سورة النازعات: (٨١):

وأما سورة النازعات فقد أوجزت معظم عناصر قصة البعثة والمواجهة في ألفاظ قليلة، وجملة قصيرة، فالآيات تبدأ بسؤال رسولنا ﷺ هل علم بخبر موسى، عندما ناداه الله بالوادي المقدس المسمى «طوى» وطلب منه أن يذهب إلى فرعون؛ لأنه جاوز الحد في استبداده، وطلب منه أن يدعوه إلى تطهير نفسه بالإيمان، ويخبره بأنه جاءه ليهديه إلى طريق الله حتى يعرف عظمة الله، فيخشى بأسه، فلا ينحرف عن الجادة، وأظهر له موسى معجزته

الكبرى: العصا، واليد، فكذب فرعون وعصى أمر الله، ثم ترك موسى وأخذ يسعى في جمع السحرة لمقاومة سحر موسى- في زعمه- فجمع السحرة، ثم نادى معلنا في الناس أنه هو ربهم الأعلى، فأنزل الله عليه عذاب الدنيا- بالغرق- والآخرة بجهنم.

يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾(الآيات: ١٥-٢٥).

فمعظم عناصر المواجهة مع فرعون تضمنتها هذه الآيات بإيجاز شديد، فقد حددت مكان خطاب الله موسى، وتوجيهات الله له بشأن ما يقوله لفرعون، ثم ذكرت معجزة موسى التي أظهرها لفرعون، ومحاولة فرعون إبطالها بالسحر، ثم إعلانه الألوهية وقسر الناس عليها، وأخيرًا إهلاك الله له، كل هذا في أوجز عبارة.

بهذه السورة تنتهي هذه المرحلة من حياة موسى، وقد كانت ملحمة كبرى حفلت بالمعاناة والصبر والجهاد حتى تحقق الفوز لموسى ومن آمن معه، ثم تبدأ ملحمة أخرى لا تقل عنها معاناة وصبرًا وجهادًا وهي مرحلة: «ما بعد النجاة من فرعون» التي سأعرض لها الآن:

موسى وبنو إسرائيل بعد نجاتهم:

لم يكد موسى ينجو بقومه من فرعون، ويخرج بهم من مصر إلى أرض المعاد حتى بدأت معاناته مع قومه، فقد ظهرت جلافة أخلاقهم، ونكرانهم لجميل ما صنع الله بهم، وطلباتهم التي لا تنتهي من موسى، وقد تضمنت سور عدة الحديث عن هذه المعاناة وهي: الأعراف، طه، إبراهيم، البقرة، الصف، المائدة.

في سورة الأعراف: (٣٩):

ولعل سورة الأعراف هي أشمل سورة لوصف سلوكهم مع موسى، وقد شغل الحديث عن ذلك حوالي ثلث سورة الأعراف، وهي من طوال السور.

ميلهم إلى عبادة الأصنام:

لم تكد أقدامهم تطأ البر، ويتجولون في أرض سيناء، متجهين إلى الشام، حتى مروا بقوم يعبدون الأصنام، فأسرعوا إلى موسى يطلبون منه أن يخصص لهم صنمًا يتخذونه إلهًا لهم كما يفعل هؤلاء القوم، ونسوا فضل الله عليهم، ومعاونته لهم، وإنقاذه إياهم من فرعون، نسوا كل هذا وحنوا إلى عبادة الأصنام.

ذهل موسى لهذا الطلب، فقال لهم: إن الجهل طبيعة فيكم، ولولا ذلك لكنتم عرفتم عظمة الله، واستحقاقه وحده للعبادة، إن عبادة هؤلاء القوم للأصنام باطلة، ومصيرهم ومصيرها للدمار والهلاك، ويسألهم هذا السؤال

الاستنكاري أتطلبون مني أن أجعل لكم آلهة غير الله، وفضله عليكم لا يستطيع أحد منكم إنكاره، فقد فضلكم على كل الأمم المعاصرة لكم.

ويتدخل الله سبحانه في الحديث فيخاطبهم- على لسان موسى- واذكروا فضلي عليكم حين أنجيتكم من فرعون وقومه الذين أنزلوا بكم أسوأ ألوان العذاب، فقد كانوا يقتلون الذكور من أولادكم، ويبقون الإناث أحياء، وفي هذا العذاب اختبار عظيم لإيمانكم، وقد نجاكم الله منه.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ (الأعراف: ١٣٨-١٤١)

مناجاة الله موسى وإعطاؤه الألواح:

وعد الله موسى أن يناجيه، وأن تكون هذه المناجاة بعد مضي ثلاثين ليلة، ثم زاد الله عليها عشرًا فتمت أربعين ليلة، ناجاه الله بعدها- وكان الهدف من هذه المدة أن يعد موسى نفسه لمناجاة ربه، فيطهرها من كل مشاغل الدنيا، ويعتزل فيها الناس، ويتفرغ لعبادة ربه.

ثم ذهب موسى إلى ربه بعد انتهاء هذه المدة، وقد أوصى أخاه هارون أن

يكون خليفته في قومه، وأن ينهج معهم نهج الإصلاح، وألا يسير بهم في طريق المفسدين، فلما سمع موسى كلام ربه أطمعه هذا فيما هو أعظم، فتضرع إلى الله أن يمن عليه برؤية ذاته- طلب مستحيل، ولكن الشوق غلاب- لم يغضب الله على موسى لتجرئه على هذا الطلب؛ لأنه يعلم قصده، وإنما قال له: لا يمكن أن تراني، وأراد أن يوضح له أن رؤيته لا يتحملها كائن من الكائنات مهما بلغت ضخامته، فقال له: انظر إلى هذا الجبل- وهو الجبل الذي كان يناجي موسى ربه عنده- فسأتجلى له، فإذا تحمل رويتي ووجدته مستقرًا في مكانه فسوف تراني، فلما ظهر الله للجبل أندكَّ الجبل، وسوى بالأرض، فلما رأى موسى منظر الجبل، لم يستطع تمالك نفسه، فخر مغشيًا عليه، فلما أفاق من غشيته أخذ يستغفر الله وينزه ذاته العلية عن أن يراها بشر، ويعلن توبته لله، ويجدد إيمانه به، وأنه أول المؤمنين.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الآيتان: ١٤٢-١٤٣).

بعد أن استغفر موسى ربه من تجرئه على طلب الرؤية، أراد الله تسليته

فأخبره بأنه اصطفاه على خلقه بأمرين: هما الرسالة، وكلام الله إياه، فلتهنأ بما أعطيت، ولتقنع به واشكرني على ما أنعمت به عليك، ولا تطمع في طلب المستحيل.

ويخبرنا الله سبحانه أن الألواح التي أعطاها الله موسى قد كتب له فيها كل شيء يحتاجه بنو إسرائيل من المواعظ والحكم، وتفصيل الأحكام المطلوبة منهم، ثم طلب الله من موسى أن ينفذ ما في هذه الألواح بكل جد واجتهاد، لا يقصر في شيء منه، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسن ما فيها، فإذا خيروا بين أمرين، فليفعلوا الأفضل منهما، وسأطلعكم على ما حل بأعدائكم- فرعون وجنوده- حيث خربت ديارهم ودمرت ممتلكاتهم، لما كانوا يتصفون به من فسق.

وتستطرد الآيات إلى ذكر موقف الله سبحانه من المتكبرين في الأرض بغير الحق، فهو سيطمس على قلوبهم، فلا يتعظون بما يرون من مظاهر قدرة الله في الكون، بل ينصرفون عن التأمل فيها، وإذا مروا بآية من آيات الله الكاشفة عن وجوده وقدرته، أغلقت قلوبهم دونها، فلا يؤمنون بها، وإذا اتضح لهم طريق الحق والهدى لم يسلكوه، وإن يروا طريق الضلال والغواية سارعوا إليه ، وما ذلك إلا لأنهم أصموا آذانهم عن سماع دعوة رسلهم إلى الإيمان، وأغمضوا أعينهم عن رؤية مظاهر القدرة الإلهية في الكون التي بصرهم بها رسلهم، فكذبوهم وغفلوا عما جاءوا به، وقد حكم الله بأن كل من يكذب بآياته، ولم

يؤمن باليوم الآخر لن يقبل الله أعمال الخير التي يقوم بها في حياته، ويبطلها ولن يجزيه عنها خيرًا؛ لأنها فقدت شرط الإيمان، وسيجزيه على سوء علمه من صد عن سبيل الله، وكفر به، وهو جزاء عادل يستحقونه بعملهم.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الآيات: ١٤٤-١٤٧)

بنو إسرائيل يعبدون العجل:

عجيب أمر بني إسرائيل، لم يمض إلا قليل على طلبهم من موسى أن يصنع لهم صنمًا يعبدونه، وتوبيخ موسى لهم على تفكيرهم هذا- حتى صنعوا هم لأنفسهم صنمًا على صورة عجل، صنعوه من حليهم، فكان عجلًا ذهبيًا (وستفصل سورة طه قصة هذا العجل) فعلوا ذلك عندما ذهب موسى لمناجاة ربه، وكانت الريح تدخل من فم هذا العجل وتخرج من دبره أو العكس، فتحدث صوتًا كخوار العجل، يعيب الله عليهم سقم تفكيرهم، أفلم

يخطر ببالهم أن هذا العجل لا يستطيع أن يكلمهم، ولا يرشدهم إلى أي مَنهَج في حياتهم، لقد ظلموا أنفسهم بصنع هذا العجل وعبادته.

ولما أدركوا خطأهم الفادح، واشتد ندمهم على فعلتهم، وتأكدوا أنهم ضلوا ضلالًا كبيرًا، لجأوا إلى الله يستغفرونه، ويتوبون إليه، ويعترفون بأن الله لو لم يغفر لهم فمآلهم الخسران.

ولما رجع موسى إلى قومه، وهو يلتهب غضبًا وغيظًا مما فعلوه- فقد أخبره الله بذلك في أثناء مناجاته، كما ذكرت سورة طه- قال لهم بئس هذا الذي فعلتموه في أثناء غيابي، فكنتم أسوأ خلفاء لي، أتعجلتم صنع هذا الأمر الشائن قبل أن أعود إليكم من عند ربي؟ ورمى الألواح التي أتى بها على الأرض من شدة غضبه، وأمسك رأس أخيه، وأخذ يجذبه نحوه، فيستعطفه هارون، مذكرًا إياه بأنه أخوه ابن أمه، ويبدي له عذره، فقد استضعفه قومه، وكادوا يقتلونه لما وبخهم على فعلتهم، ونهاهم عنها، ويرجو ألا يجعل أعداءهم من عبدة العجل يشمتون به، وألا يساويه بالقوم الظالمين الذين عبدوا العجل.

قبل موسى عذره، فصفح عنه، ثم اتجه إلى ربه مستغفرًا لهما جميعًا ودعاه أن يدخلهما في جنته فهو خير من يغفر الذنوب، وهو أرحم الراحمين.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ

ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٨-١٥١).

حكم الله في عَبَدة العجل:

يقرر الله سبحانه أن عبدة العجل سينزل عليهم غضب الله ونقمته في الحياة الدنيا (وستبين سورة البقرة مظهرًا من مظاهر هذا الغضب وهو أن يقتل بعضهم بعضًا) وسيعيشون أذلاء مستعبدين لغيرهم، محتقرين من مخالطيهم إلى يوم القيامة- كما ورد في هذه السورة بعد ذلك: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ (الأعراف: ١٦٧).

وهذا الجزاء بسبب افترائهم على الله بعبادتهم غيره ولكن باب التوبة مفتوح ويقبل الله توبة التائبين، ممن علموا الأعمال السيئة المخالفة لأمر الله؛ إذا ندموا على فعلهم، وآمنوا بربهم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الأعراف: ١٥٢-١٥٣)

اعتذار وسوء أدب:

ولما هدأ غضب موسى على أخيه وقومه، أخذ الألواح التي ألقاها من الأرض، تلك الألواح التي تتضمن هدايتهم وإرشادهم، وفي اتباعها رحمة لهم ولكن لن ينفع ذلك إلا من ملأ قلبه الخوف من الله، وخشية عقابه.

وقد اختار موسى من قومه سبعين رجلًا من أفضل بني إسرائيل، ليذهبوا معه إلى الجبل مكان المناجاة مع الله، في وقت حدده الله لحضورهم، فذهبوا إلى هذا اللقاء العظيم، ولما أصبحوا عند الجبل، غلب عليهم سوء أدبهم، وفساد طبعهم، فطلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة ما رآه- في وهمهم- ولم يكادوا يتفوهون بهذا القول حتى زلزلت الأرض زلزالها وصعقوا، فارتاع موسى لذلك وأخذ يتضرع إلى الله، وقد ملأ الخوف قلبه خشية أن يهلكه الله وبني إسرائيل جميعًا، ويقول: يا رب أنت مالك أمرنا، المتصرف في حياتنا وموتنا، فلو شئت أهلكتهم قبل هذا الوقت وأنا معهم لم يقف شيء أمام مشيئتك.

أتهلكنا يا رب بسبب سوء أدب هؤلاء السفهاء وجهلهم، إني أعرف أنه امتحان منك لبني إسرائيل، يفوز فيه من شئت له الهداية، واستجاب لإرشادك، ويخسر فيه مَن شئت له الضلال؛ لأنه انحرف عن طريقك، ولم يستجب لهداك، أنت يا الله ولينا وحامينا وناصرنا فاغفر لنا وارحمنا فأنت خير من يغفر الذنوب، وآتنا في هذه الدنيا حسنة، وفي الآخرة سنرجع إليك ترى فينا رأيك.

بين الله لموسى أنه ينزل عذابه على من يشاء ممن لم يسلك طريق الهداية، وانحرف عامدًا عنه، ورحمته واسعة تسع كل شيء، ولكن لها شروطًا فلن ينالها إلا الذين يتقونه، ويخشون عقابه، ويؤدون فرائضه مثل الزكاة وغيرها، وهم مؤمنون به وبرسله وآياته على امتداد العصور والأجيال حتى عصر محمدﷺ فيتبع الموجودون منهم ذلك النبي الأمي الذي أنزلت إليكم في التوراة صفته، وكذلك الإنجيل، والذي سيجيء ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات من مأكل ومشرب، ويحرم عليهم المطاعم والمشارب الخبيثة، ويرفع عنهم القيود التي كبلت حياتهم من تعاليم مشددة، شددت عليهم بسبب تمردهم وعصيانهم فمن يؤمن بهذا الرسول ويؤيده، وينصر دينه، ويتبع المنهج الذي رسم الله له فأولئك هم الفائزون.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ (الأعراف: ١٥٤-١٥٨)

نعم الله على بني إسرائيل:

لقد أنعم الله على بني إسرائيل نعمًا كثيرة وهم في مواجهة فرعون، وأعظمها نجاتهم منه، وتحررهم من ربقته، ولما عبر بهم البحر توالت نعمة عليهم وهم في الصحراء، وأولى هذه النعم إدخال النظام في حياتهم، حتى تستقر أمورهم، فقسمهم اثنتي عشرة قبيلة، كل قبيلة منها تنتمي إلى رجل من أبناء يعقوب الاثني عشر، وثانية هذه النعم: إنقاذهم من العطش في صحراء جرداء يكادون يهلكون من العطش- فقال له الله: اضرب بعصاك الحجر، ففعل موسى ما أمره الله به، ففوجئ بتفجير اثنتي عشرة عينا تفهق بالماء، لكل قبيلة من القبائل الاثنتى عشرة عين خاصة بها كي لا يتنازعوا ويختلفوا، فهل بعد هذه نعمة؟

لقد كان يرضيهم أن يجدوا عين ماء واحدة، فإذا أمامهم اثنتا عشرة عينًا، فهل حمدوا الله على هذه النعمة؟ لا كما سنرى.

النعمة الثالثة: تظليل الغمام لهم، فالصحراء شمسها ساطعة لا تغيب، وهي شمس محرقة، فيمن الله عليهم بإرسال سحب مستمرة تظللهم.

بقيت مسألة الطعام، فكيف يحصلون عليه، وهم في هذه الصحراء المجدبة؟ لقد كفاهم الله مئونته، فجعل الشجر يفرز مادة حلوة لذيذة الطعم، وأرسل إليهم طير السماني بوفرة، يسقط بين أيديهم فيصيدونه، وأمرهم أن يأكلوا من هذه الطيبات.ولا حرج عليهم في شيء منها، لأنها رزق ساقه الله إليهم.

فهل شكروا هذه النعم؟ يفهم من الآية أنهم لم يشكروا الله عليها بل جحدوا نعمه فكانوا ظالمين بذلك، ولكنهم لم يظلموا إلا أنفسهم؛ لأن وبال هذا كله واقع بهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ (الأعراف: ١٦٠)

تمرُّدهم على التكاليف الإلهية:

لقد أنزل الله على موسى التوراة، وفيها هدى ورحمة، ومواعظ وأحكام وأوامر ونواه، وطلب من بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها، ولكنهم استثقلوها ووصل بهم الأمر إلى رفض معظم ما فيها، فما العمل معهم، وهم قوم غلاظ الرقاب- كما تقول التوراة عنهم- في طبيعتهم العناد والمكابرة؟

أراهم الله معجزة من معجزاته مثل تلك التي كان يظهرها لفرعون، فرفع فوقهم الجبل المحيط بهم، فقد شاهدوا الجبل ينتقل من مكانه، ثم يرتفع حتى يصير فوق رءوسهم كالمظلة، ولم يبق إلا أن يسقط فوقهم فيسحقهم، ففزعوا ولجئوا إلى موسى يستغيثون به ليدعوا الله أن يرفع عنهم العذاب، وسيؤدون ما طلب منهم، فأمرهم الله أن يأخذوا كل ما جاء في التوراة بجد واجتهاد، وأن يذكروا ما فيها من أوامر ونواه، ليعملوا بها، لعل قلوبهم تخشع لله وتتقيه.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧١).

وإلى هنا تنتهي قصة موسى مع قومه في هذه السورة، ولكن لا تنتهي قصص بني إسرائيل فيها، وسنعود إليها بعد.

وسورة الأعراف كما قلت استوعبت معظم الأحداث التي جرت بين موسى وقومه، لا تنافسها في ذلك إلا سورة البقرة، ولكن سورة البقرة توجز في الحديث عنها؛ لأنها تذكرها في معرض تذكير بني إسرائيل المعاصرين للرسول ﷺ بسوء طباع أسلافهم، وعصيانهم وتمردهم.

في سورة طه: (٤٥):

بعد إغراق الله فرعون يمتن الله على بني إسرائيل ببعض النعم التي أنعم بها عليهم، فيذكرهم بإنجائهم من عدوهم، ومواعدته موسى جانب الطور الأيمن، لينزل عليه التوراة التي فيها صلاحهم في دنياهم وأخراهم، وإنزاله

عليهم المن والسلوى، ودعاهم إلى ن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، وألا يكفروا هذه النعم، فيحل عليهم غضب الله، ومن يحل عليه غضب الله فقد سقط في هاوية العذاب، وكي لا ييأس المذنب، فيزيد المعاصي، وعد الله من تاب إليه بعد عصيانه بالمغفرة بشرط أن يؤمن ويعمل صالحًا، ثم يستمر في هداه وإيمانه.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢ ﴾ (الآيات: ٨٠-٨٢).

ثم تبدأ في سرد قصة عبادتهم للعجل، فحينما ذهب موسى إلى وعد ربه سأله الله سبحانه: لماذا تعجلت في حضورك تاركًا وراءك بني إسرائيل؟ فيجيبه موسى إن قومه قريبون منه وإنهم سيتبعونه بعد قليل، وقد جئت مسرعًا لأنال رضاك، فيخبره الله بالخبر المزعج: لقد أوقع الله بني إسرائيل في اختبار رهيب على يد السامري- أحد أتباع موسى- وقد نجح في إضلالهم وإغوائهم.

عاد موسى إلى قومه يملؤه الغضب والحزن، وتوجه إلى قومه يخاطبهم في حدة وغيظ، ماذا صنعتم؟ هل نسيتم أن الله وعدكم وعدا فيه خيركم، وهو أن ينزل علينا التوراة التي فيها هدانا وصلاحنا؟ فهل طالت مدة غيابي عنكم؟ (غاب عنهم مدة أربعين يومًا قضاها في التطهر تمهيدًا للقاء الله) أم وقعتم في

الضلال الذي سيؤدي إلى أن يحل عليكم غضب من ربكم، فلم تحضروا ورائي لتكونوا معي في المكان الذي سيناجيني الله فيه؟ فأجابوه- مبررين إثمهم- بأنهم لم يخلفوا موعدهم معه بإرادتهم، فقد زين لهم السامري أن يحضروا كل الحلي التي استعاروها من المصريين قبل خروجهم (وكانت كل امرأة قد استعارت من جارتها ما استطاعت من حليها بزعم أنها محتاجة إليه لحضور حفل) ثم يلقوها في الأرض، وفعل هو مثلهم، ثم شكل هذا الذهب في صورة عجل، ثم ألقى عليه السامري قبضة من تراب كانت معه (سنعرف قصتها بعد) فتحول العجل الذهبي إلى عجل متجسد بلا روح، وله خوار كخور العجل الحقيقي، وقال لهم السامري وأتباعه: هذا العجل هو إلهكم وإله موسى، ونسي الله وعبادته.

يوبخهم الله على عبادتهم هذا العجل، أفلم يفكروا في أمره وقدرته؟ هل يستطيع أن يجيبهم على ما يقولون له؟ هل يستطيع أن يضرهم أو أن ينفعهم وقد نبههم هارون إلى خطئهم الفادح، وبين لهم أن هذا العجل اختبار من الله لإيمانهم، وأن الجدير بالعبادة وحده لا شريك هو الرحمن، وأن عليهم أن يتبعوا هارون، وأن يطيعوا أمره، ولكنهم أصموا آذانهم عن نصحه، وأصروا على أن يظلوا عن عبادته حتى يرجع إليهم موسى.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾

فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

(الآيات: ٨٣- ٩١).

في هذه الآيات سرد شامل، ولكنه مركز لقصة عبادة بني إسرائيل للعجل، وقد استخدم القرآن فيها أسلوب التشويق الذي يثير خيال القارئ، ويمكن المعنى من نفسه، فالآيات لم تخبر – أول الأمر- بعبادة قوم موسى للعجل، وإنما ذكرت أن الله فتنهم والسامري أضلهم، ثم يعطي فكرة موجزة بعد ذلك تتمثل في إلقاء حليهم وصوغها في صورة عجل، ثم يتحول إلى عجل متجسد له خوار، ولكن كيف؟ تؤخر الآيات كشف السر إلى آيات تالية ستذكر بعد.

نلاحظ أن بني إسرائيل ما زالوا متأثرين بعبادة المصريين الذين كانوا يقدسون العجل ويعبدونه، وكان معروفًا عندهم بالعجل «إبيس» يرون أن روح الإله حلت فيه، وكان تأثر بني إسرائيل بعبادة العجل شديدًا، وأصدق تعبير عن هذا التأثر ما قاله القرآن في هذا المعنى ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡ﴾(البقرة: ٩٣).

ونتساءل كيف أباح بنو إسرائيل لأنفسهم أن يخدعوا المصريين ويستولوا على حلي نسائهم، وكانت قدرًا عظيمًا من الذهب مكنهم من صنع عجل ذهبي.

لقد استعارت كل امرأة إسرائيلية حلي جارتها المصرية، وحدث ذلك في وقت واحد، لابد – إذن – أن يكون أمرًا مدبرًا من قادة بني إسرائيل، وقد استباحوا ذلك لاعتبارهم المصريين أعداءهم، وأن كل ما يملكونه فهو غنيمة حرب.

ونتساءل مرة ثانية: كيف خدع المصريون بهذه السهولة؟!

إن الجواب يكشف عن طبيعتين: طبيعة جبلت على الخسة والغدر والجبن هي طبيعة بني إسرائيل، وطبيعة جبلت على السماحة والكرم وحسن الظن بالناس هي طبيعة المصريين، ولا عجب- بعد ذلك- أن يرد الله كيد بني إسرائيل إلى نحورهم، فيتحول الذهب المسروق إلى لعنة تنصب عليهم؛ فقد صنعوا منه صنمًا يعبدونه من دون الله، وصدر الأمر الإلهي أن تكون كفارة هذه الجريمة أن يقتل بعضهم بعضًا كما سنرى- في سورة البقرة.

ثم اتجه موسى إلى هارون يعاتبه في حدة، ويجذبه من رأسه ولحيته قائلًا له: ما الذي منعك حينما رأيتم ارتكبوا هذا الضلال- أن تلحق بي وتخبرني بما قد حدث ، وتبتعد عن هذا الشرك؟ فكيف عصيت أمري؟ فيجيبه هارون مستعطفًا ومبررًا سلوكه: ،، أخي يا ابن أمي، اترك لحيتي ورأسي، فما وقفت هذا الموقف، وتركت اتباعك إلا خشية لومك لي لو فعلت، وأن تعتبره تفريقًا

بين بني إسرائيل؛ لأني لو اتبعتك كما أردت كان سيأتي معي جمع من بني إسرائيل الذين لم يضلوا فيعبدوا العجل، وينقسم بنو إسرائيل إلى فريقين: فريق معنا، وفريق عاكف على عبادة العجل، أفما كنت تلومني حينئذ، وتقول لي: لِم لَم تنتظر حتى أخبرك برأيي؟

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ (طه: ٩٢-٩٤)

انكشاف سر العجل:

اتجه موسى إلى السامري مبتدع هذه البدعة، وقال له: ما شأنك يا سامري؟ وما الذي دفعك إلى هذا العمل؟ قال السامري: لقد رأيت ما لم يره أحد، لقد رأيت جبريل يمتطي حصانًا، ويسير به، فقبضت قبضة من أثر حافر حصان «الرسول جبريل» فألقيتها على العجل، فسرت فيه الحياة وهكذا زينت لي نفسي، فالشواهد التي رأيتها دلتني على أن في حافر الحصان سرًا يبعث الحياة في كل ما يلمسه (يقول المفسرون إن حافر الحصان ما كان يطأ شيئًا إلا ظهر مكانه النبات)، وقد علمت أن بني إسرائيل تواقون إلى تخاذ إله يعبدونه، فصنعت لهم ذلك العجل.

طرد موسى السامري بعد أن أبلغه بعقاب الله الذي سيوقعه به في الدنيا، وهو أن يبتلى بمرض جسمي أو نفسي يجعله لا يطيق أن يمسه أحد أو أن يمس هو أحدًا، وأن عذاب الآخرة لن يتخلف عنه.

وأمر موسى بذبح العجل، وإحراقه وتذرية رماده في الهواء، فعل ذلك وهو يقول للسامري: انظر إلى إلهك الذي عكفت على عبادته فترة متصلة كيف فعلنا به.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

(الآيات: ٩٥-٩٨)

وأنهى موسى هذه المأساة أو المهزلة التي ارتكبها الجاحدون من بني إسرائيل بهذه القولة الحاسمة الجازمة: ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ليس لكم إلا إله واحد هو رب الكون كله الذي يحيط علمه بكل شيء.

وهكذا انتهت قصة موسى مع قومه في سورة طه، وهي كما رأينا تركز على أمر واحد هو: عبادة بني إسرائيل العجل، وإن كانت أشارت في الآية (٨٠) إلى بعض نعم الله عليهم وأما سورة الأعراف، فقد فصلت عدة مواقف لبني إسرائيل مع موسى، كما أشارت إلى قصة العجل، وفصلت بعض جوانبها، وسكتت عن السامري، وعن سر الأثر الذي قبض منه قبضة كانت سر حياة العجل وعن ذكر العقاب الذي عوقب به.

نقف وقفة قصيرة عند عجل السامري، وروايته عن هذا العجل، الجزء المتيقن هو أنه أخذ الحلي، وصاغ منها عجلًا، وأن هذا العجل كان يصدر منه صوت فهل كان العجل حيًا لا يختلف عن أي عجل طبيعي آخر؟

القرآن لم يقرر هذا، وإنما وصفه بأنه جسد، أي متجسد في صورة العجل، وأن له خوارًا، وعلى هذا فلنا أن نقول: إنها حيلة من حيل السامري استطاع صوغ العجل بطريقة تجعل منافذه يتقابل فيها الهواء بطريقة تصدر صوتًا كخوار العجل، وأما روايته عن أثر الرسول فهو قول قاله ليس عليه دليل، ولماذا لم يشاهد هذا الأثر غيره من بني إسرائيل؟ وهل هو نبي فيرى ما لا يراه إلا الأنبياء؟ إننا نستطيع أن نرجح كذب السامري، ومن كذب على الله أفلا يكذب على الناس؟ لقد قال هذا القول تبريرًا لفعلته ليخدع موسى، ولكن موسى لم يأبه لهذا القول، ووجد أنه أهون من أن يناقشه، والله أعلم.

في سورة إبراهيم:

في سورة إبراهيم لمحة عابرة عن موسى مع قومه، فهو يذكرهم بنعم الله عليهم؛ لأنه نجاهم من قوم فرعون الذين أذاقوهم سوء العذاب، وكانوا يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ثم وعظهم داعيًا إياهم أن يشكروا نعم الله عليهم؛ لأن الله وعد الشاكرين بزيادة نعمه والجاحدين بالعذاب الشديد، ثم بين لهم أنهم لو كفروا نعم الله عليهم وجحدوا فضله، وليسوا وحدهم بل كل من في الأرض معهم فلن يضروا الله شيئًا، فإن الله غني عن سائر خلقه، مستحق للحمد لذاته.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

(الآيات: ٦-٨)

في سورة البقرة:

وأما في سورة البقرة فقد سرد الله فيها بعض نعمه على بني إسرائيل، وقد جاء ذلك في معرض دعوتهم إلى الإيمان بمحمدﷺ فالخطاب موجه إلى بني إسرائيل المعاصرين للرسول محمدﷺ، والنعم المذكورة هي النعم التي أنعم الله بها على آبائهم كي يتعظوا ويعتبروا، ويعرفوا أن الذي أنعم على آبائهم يمكن أن ينعم عليهم إذا ساروا في طريقه المستقيم.

وأول النعم التي ذكرتها الآيات بعد بيان أن الله فضلهم على جميع الأمم المعاصرة لهم، هي إنجاؤهم من فرعون الذي كان يذيقهم أسوأ ألوان العذاب، ويأمر بذبح الذكور من أبنائهم، ويستبقى الإناث، وكان في هذا العمل اختبار عظيم من الله لقوة إيمانهم.

النعمة الثانية: هي شق البحر لهم ليعبروا عليه فينجوا، ثم إغراق فرعون وقومه، وكانوا يشاهدون هذه المعجزة بأعينهم.

النعمة الثالثة: العفو عنهم بعد عبادتهم العجل، عندما ذهب موسى إلى موعد ربه بعد اعتزال قومه أربعين ليلة يتطهر فيها تمهيدًا للقاء ربه، وقد ظلموا أنفسهم بهذا العمل، وقد عفا الله عنهم من أجل أن يشعروا بهذا الفضل العظيم فيشكروا الله على قبوله إياهم ثانية في ساحة رحمته.

النعمة الرابعة: هي إيتاء موسى التوراة التي فيها هداهم، وبيان ما يحتاجون إليه في دنياهم وأخراهم.

وتعود الآيات إلى بيان عقاب الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل فقد صدر الأمر بقتلهم، وأن يتولى القتل الأبرياء منهم، الذين رفضوا هذا الشرك وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ وهذا القتل فيه خير لهم، سينتفع به القاتل والمقتول، فالقاتل لم يراع حق القرابة والمودة فيمن قتله إرضاء لله، والمقتول لم يقاوم قاتله، بل تقبل ذلك إرضاء لله أيضًا، وقد عمت التوبة الجميع؛ لأن الله هو الذي يقبل توبة عباده، وهو الرحيم بهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الآيات: ٤٩-٥٤)

وتتوالى النعم والمواقف التي يذكر الله بها بني إسرائيل المعاصرين للرسول محمد ﷺ فيذكرهم بما فعل آباؤهم الذين اختارهم موسى للاعتذار لربهم عن عبادة بعض قومهم للعجل، فغلب عليهم سوء أدبهم، وجلافة طباعهم، فطلبوا رؤية الله عيانًا، فأرسل الله عليهم صاعقة أهلكتهم، ثم تداركتهم نعمته فبعثهم من بعد موتهم لكي يشكروه على عظيم نعمائه.

نعمة أخرى عظيمة حباهم لهم وهي تظليل الغمام لهم ليحميهم من حر الشمس، ثم إنزال المن والسلوى عليهم ليطعموا في هذه الصحراء المجدبة، ثم تأتي نعمة الله حينما طلبوه من موسى، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بعدد قبائلهم.

ولكن بني إسرائيل لا يكفون عن طلباتهم، فقد ملوا أكل المن والسلوى وأعلنوا عدم صبرهم على هذا الطعام لموسى، وطلبوا منه أن يدعو الله ليخرج لهم مما تنبت الأرض من أنواع البقول والخضر المتنوعة مثل: القثاء والعدس والبصل والحنطة، فيرد موسى عليهم- وقد ضاق صدره من كثرة طلباتهم- أتطلبون التافه من الطعام وتتركون الطعام الشهي الذي اختاره الله لكم، ويسخر منهم قائلًا: اذهبوا إلى إحدى المدن الكبرى تجدوا فيها مبتغاكم، وهو يعلم أنهم محصورون في هذا التيه لا يمكنهم مفارقته.

ونتيجة لكفرهم كل هذا، وتمردهم على نبيهم موسى، ومن أتى بعده من أنبيائهم وقتلهم بعض أنبيائهم بغير حق، حكم الله عليهم بالذل الأبدي، وأن يعيشوا في مسكنة وسوء حال حتى لو كانوا أغنياء، وحل عليهم غضب الله.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (الآيات: ٥٥-٥٧).

ثم يقول تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الآيتان: ٦٠-٦١).

ثم تمضي الآيات لتذكر بني إسرائيل المعاصرين للرسول ﷺ ببعض مواقف آبائهم الدالة على التعنت، وغلظ القلوب، فذكرت موقفين، أحدهما مر بنا في سورة الأعراف وهو أخذ العهد عليهم أن يعملوا بما جاء في التوراة

من التكاليف، ولكنهم استثقلوها، فقلقل الله جبل الطور من مكانه ورفعه فوقهم، ليسقطه فوقهم فيسحقهم إذا لم يعملوا بما جاء في التوراة بجد واجتهاد، وإذا لم يتذكروا دائمًا ما فيها ليعملوا به، لكي تدخل تقوى الله قلوبهم، ولكنهم أعرضوا بعد ذلك عن هذه الهداية، فلولا رحمة الله بهم وفضله عليهم بإرساله أنبياء هداة بين الحين والحين يصححون لهم المسار لأصبحوا من الخاسرين.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (الآيتان: ٦٣-٦٤).

فهذا الموقف الذي ذكرته هاتان الآيتان ذكر من قبل في سورة الأعراف بألفاظ مختلفة بعض الشيء، فذكر «نتقنا» بدل «رفعنا» وأوضحت آية الأعراف رفع الجبل فوقهم فشبهته بالمظلة التي تستر ما فوقهم ولم تذكر سورة الأعراف إعراضهم بعد ذلك عن الهداية، وفضل الله عليهم.

وأما الموقف الثاني فهو موقف يدل على لجاجة بني إسرائيل في الطلب والسؤال، وتعنتهم مع نبيهم موسى، وعدم ثقتهم بأقواله، وهذا الموقف لم يذكر من قبل في آية سورة، ولم يذكر إلا في هذه السورة، وهو الموقف الذي يقص قصة البقرة، فموسى يقول لقومه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلا يقبلون الأمر بالسمع والطاعة، بل يظنون أن موسى يهزأ بهم ويسخر، ويعاتبونه على ذلك، فيستعيذ بالله أن يفعل معهم ذلك، فهو فعل

جهال لا يليق به، وحينما يتأكدون أنه جاد في قوله يطلبون منه أن يدعو الله ليبين لهم ماهية هذه البقرة وصفاتها، فيجيبهم أن الله يقول لهم: إنها غير مسنة ولا صغير السن إنما هي وسط بين ذلك، ثم يحثهم على فعل ما أمروا به، فيطلبون من موسى أن يدعو ربه ثانية أن يبين لهم لونا فيجيبهم أنه يقول إن لونها أصفر فاقع، وأن الناظر إليها يسر بها، لما تتميز به من صحة وحيوية ونشاط وجمال لون، فيلحفون في الطلب فهم يريدون أن يتبينوا طبيعتها بطريقة أوضح، فيسألونه أن يدعو ربه ليزيدهم إيضاحًا حول طبيعتها فقد تشابه البقر أمام أعينهم فلا يستطيعون تمييز المطلوبة، وكأنهم خجلوا من كثرة الأسئلة حول البقرة، فذكروا له أنهم- إن شاء الله- سيهتون لهذه البقرة، فيجيبهم موسى بأن الله يقول لهم إنها بقرة غير مدربة على العمل، فهي لا تعمل في حرث الأرض، ولا في الري، وأنها سليمة من كل شائبة، ومن كل علامة مميزة، عندئذ فقط أعلنوا أنهم اقتنعوا وعلموا أن ما ذكره موسى لهم من صفات البقرة هو الحق، وكأنهم لم يقتنعوا بأن ما ذكره لهم من قبل حق، فذبحوا البقرة، وقد كان يظن لكثرة أسئلتهم أنهم لن يفعلوا ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا

تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الآيات: ٦٧-٧١).

فهذه الآيات تبين بوضوح السمات الأساسية لبني إسرائيل من لجاجة في الطلب وتعنت في القبول، وإلحاح في السؤال، وإيمان منقوص، فأمر الله لهم على لسان موسى، لا يقنعهم، بل يريدون تأكيدًا أكثر، ونظرتهم إلى الله سبحانه أنه ليس ربهم بل هو رب موسى ولذلك تكرر منهم القول: ﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾.

ونلاحظ في هذه الآيات الإيجاز القرآني البليغ فهو يحذف كل التفصيلات التي يمكن أن تفهم من السياق، فلم تذكر الآيات أنهم بحثوا عن بقرة حتى وجدوا الصفات المطلوبة فيها، فاشتروها ثم ذبحوها، ولكنها ذكرت النتيجة فقط وهي أنها ذبحت.

وحتى نهاية الآيات السابقة لا يعرف القارئ السر في طلب ذبح البقرة، ويظل متشوقًا لمعرفة هذا السر إلى أن تجيء الآيات التالية فتوضح السر وهو أن قتيلًا قُتِل فتخاصموا فيه، وتدافعوا واتهم بعضهم بعضًا، ظنًا منهم أن الحقيقة لن تعرف ولكن الله يعلم ما يكتمه بعضهم من القيام بقتله أو معرفة قاتله، وسيظهر الله هذه الحقيقة، فطلب الله منهم أن يضربوا القتيل بجزء من جسم هذه البقرة المذبوحة فيحيا ويذكر القاتل، ويمثل هذه الطريقة اليسيرة يحيي الله الموتى، ويظهر معجزاته لكم أن تعقلوا وتستمسكوا بالإيمان بالله، ومع كل هذه الآيات والعبر يبقى بنو إسرائيل على ما هم عليه من قسوة القلب، وغلظ المشاعر، فتصبح قلوبهم أقسى من الحجارة، فقد رأوا بأعينهم

كيف أن الحجارة يتفجر منها الأنهار وكيف أن الجبل هبط من خشية الله حينما تجلى له، ثم يحذرهم الله أنه مطلع على أعمالهم ليس بغافل عنها.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الآيات: ٧٢- ٧٤).

وبانتهاء قصة البقرة ينتهي الحديث عن عناد بني إسرائيل لموسى، ومعاناته منهم – في سورة البقرة – وقد تكرر ذكر بعض المواقف في السورة نفسها لتأكيدها فقد تكرر ذكر العجل، ورفع الطور فوقهم – بعد ثلاثية آية في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الآيتان: ٩٢- ٩٣).

إيذاء قوم موسى له:

ورد في سورتي الأحزاب (٩٠) والصف (١٠٩) حديث عن إيذاء قوم موسى له.

في سورة الأحزاب:

ورد الحديث عن إيذاء موسى في هذه السورة في معرض نهى الله للمسلمين أن يؤذوا رسولهم كما آذى بنو إسرائيل موسى، فألصقوا به بعض التهم التي برأه الله منها، وكان ذا منزلة عظيمة عند الله، وما التهمة التي ألصقها بنو إسرائيل بموسى؟ وكيف برأه الله منها؟ سكت القرآن عن ذلك، ولكن روى البخاري ومسلم حديثًا عن الرسول ﷺ يقول: «كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستر كثيرًا ويخفى بدنه، فقال قوم هو آدر – أي بره مرض في خصيته – أو أبرص أو به آفة، فانطلق ذات يوم يغتسل في عين بأرض الشام وجعل ثيابه على صخرة، ففر الحجر بثيابه، واتبعه موسى عريان يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر (أي يا حجر) حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فنظروا إليه وهو من أحسنهم خلقًا، وأعدلهم صورة وليس به الذي قالوا، فذلك معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾»، وعلى أية حال فالمؤكد حقًا أن بني إسرائيل آذوا موسى، واتهموه ببعض التهم فبرأه الله من ذلك، وكان ذا وجاهة عند الله.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩﴾ (الآية: ٦٩).

في سورة الصف:

وأما في سورة الصف فقد عاتب موسى قومه على إيذائهم له مع علمهم بأنه رسول الله إليهم، فلما أصروا على إيذائهم له، ولم يحترموا مقام النبوة صرف

الله قلوبهم عن الحق؛ لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾ (الآية: ٥).

أعود مرة أخرى إلى إيذاء بني إسرائيل لموسى، فليس بلازم أن يكون إيذاؤه في شخصه، فالرسول لا يأبه لشخصه بقدر ما يأبه لرسالته، وعلى هذا يكون المراد بالإيذاء هو انحرافهم عن دعوة الحق، وعن عبادة الله الواحد، وفيما مر بنا من مواقفهم معه ولجاجتهم وعنادهم وتعنتهم إيذاء له أي إيذاء.

جبن بني إسرائيل وعصيانهم الأمر بدخول بيت المقدس:

القصة الأخيرة التي ذكرت في القرآن عن معاناة موسى من قومه قد وردت في سورة المائدة، وهي من السور المتأخرة في النزول فترتيبها (١١٢) أي قبل السورة الأخيرة بسورة.

وتتلخص القصة كما روتها السورة في أن موسى طلب من قومه أن يذكروا ما أنعم الله عليهم به من نعم لا تحصى، فقد جعل منهم أنبياء، وجعلهم يحيون حياة الملوك، فليس هناك أحد يتسلط عليهم، ورزقهم يأتيهم رغدًا مضمونًا من المن والسلوى، وأعطاهم الله ما لم يعط أحدًا من العالمين، مثل فلق البحر لهم لإنجائهم من فرعون، وإخراج الماء لهم جداول من الصخر بعدد قبائلهم وغير ذلك، بعد تذكيرهم بهذه النعم العظيمة الذي جاء تمهيدًا

لدعوته لهم بدخول الأرض المقدسة، وهي أرض الشام (فهو يعرف مدى جبنهم، وتمردهم على كل ما فيه تكليف بمشقة، فأراد أن يؤكد لهم أن الله لن يتخلى عنهم، فقد سبقت نعماؤه الكثيرة إليهم) بعد هذا طلب إليهم دخول الأرض المقدسة وأغراهم بذكر أن الله قد كتبها لهم ونهاهم عن أن ينكصوا عن دخولها فيحيق بهم الخسار.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ (المائدة: ٢٠- ٢١).

لم يأبهوا لقول موسى، ولم يخجلوا من إظهار جبنهم، بل صارحوا موسى بأن فيها جبابرة لا يقوون على قتالهم، وأعلنوا إصرارهم على أنهم لن يدخلوا هذه الأرض إلا بعد أن يخرج منها الجبابرة الذين يحكمونها (ويعجب المرء كيف يخرجون منها دون أن يضطرهم أحد إلى الخروج، لعلهم تعودوا المعجزات، وأن الله يقوم عنهم بكل شيء) ولكن كان هناك رجلان من قوم موسى ممن يخافون الله – ومن يخف الله لا يخف مخلوقًا غيره – وقد أنعم الله عليهما بنعمة الإيمان والثقة به.

قال هذان الرجلان ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتم عليهم فقد تحقق لكم النصر، وعليكم أن تتوكلوا على الله وتثقوا بنصره إن كنتم مؤمنين به

(وهكذا ذكر هذا الرجلان أهم شرطين من شروط النصر وهما: المبادرة بمهاجمة الأعداء، وأخذهم على غرة، فهذا يحدث ارتباكًا في صفوف الأعداء يؤدي إلى هزيمتهم، والثاني: التوكل على الله والثقة بنصره، فهذا يرفع الروح المعنوية، ويؤدي إلى النصر).

لم يؤثر هذا فيهم بل أصروا على رأيهم، وأكدوا موقفهم لموسى وهو أنهم لن يدخلوها أبدًا ما دام الجبارون فيهم، فإذا كنت يا موسى تريد دخول هذه البلاد فلتذهب إليها بمفردك، وأصحب معك ربك وقاتلا هؤلاء القوم فإنا قد عزمنا على القعود (نلاحظ مرة ثانية قولهم لموسى (ربك) وكأنه ليس ربهم).

يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الآيات: ٢٢- ٢٤).

لم يبق أمام موسى إلا أن يعتذر عن تقاعس قومه، فيقول لربه: إني لا أملك السيطرة إلا على نفسي وأخي، ونحن لا نغني شيئًا في هذا الموقف، ويسأل الله سبحانه أن يفصل بينه وبين قومه الفاسقين، فيصدر الله حكمه عليهم وهو أن يحرموا من دخول هذه الأرض أربعين سنة، لا يكتب لهم فيها استقرار بل يظلون تائهين لا يهتدون سبيلًا.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾(الآيتان: ٢٥- ٢٦).

وبهذا الموقف تنتهي قصة موسى في القرآن الكريم، ولا يبقى إلا موقف واحد لا علاقة له بالمراحل التي مر بها موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل، بل هو موقف لم يكن فيه موسى أستاذًا أو قائدًا أو داعيًا إلى الله، وإنما كان فيه تلميذًا ومتعلمًا أمام من وضعه الله في طريقه ليعلم منه أنه فوق كل ذي علم عليم، ويدرك على يديه طرفًا من أسرار حكمة الله في خلقه، هذا الموقف هو موقف موسى والعبد الصالح.

موسى والعبد الصالح:

وقد ورد هذا الموقف في سورة الكهف، ولم يرد في أية سورة أخرى يبدأ الموقف بذكر موسى لفتاه (تابعه وخادمه) إصراره على بلوغ مجمع البحرين ولو ظل سنين طويلة سائرًا في سبيل تحقيق الهدف - هذا الهدف الذي لم يذكره موسى ولا يعرف القارئ عنه شيئًا، وأخيرًا بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين، فيفاجأ القارئ بأنه كان معهما حوت، وأنهما نسيا حوتهما عند مجمع البحرين، ولم يذكراه إلا بعد مجاوزتهما هذا المكان، وعندما بلغ بهما الجوع والتعب مداهما، طلب موسى من فتاه أن يحضر لهما غداءهما ليخففا به من عناء مشقة السفر المجهد، ويبدو أن الحوت كان طعامهما للغداء،

فعندما بحث عنه الفتى تذكر أنه عندما أوى هو وموسى إلى الصخرة بمجمع البحرين نسى الحوت، فانزلق في البحر، وقد تعجب الفتى من هذا الأمر المذهل: أن يقفز الحوت من المكتل بعد قضائه وقتًا طويلًا حبيسًا فيه، فنسى بفعل الشيطان الذي عقل لسان الفتى فلم يخبر موسى بما حدث - يعلم موسى أن هذا هو هدفه الذي يسعى إليه، فقد كان نسيان الحوت، ودخوله البحر علامة على مكان وجود من تجشما كل هذه المشقة في سبيل لقائه.

وقبل أن نستمر في سرد الأحداث نذكر حديثًا للرسول ﷺ رواه البخاري يلقى ضوءًا على هذا الأمر.

يروى ابن عباس عن أبي كعب «أن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل، ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر.

يكفى هذا القدر من الحديث للكشف عن سر إصرار موسى على بلوغ مجمع البحرين، لما علم موسى بفقد الحوت رجع مع فتاه إلى المكان الذي فقد فيه الحوت ليجدا العبد الصالح.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ

أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾﴾

(الكهف: ٦٠- ٦٤)

لقيا العبد الصالح الذي وصفه الله بأنه قد وهبه رحمة من عنده (ما هذه الرحمة؟ يقول بعض المفسرين: إنها النبوة، ويقول آخرون: إنها الولاية والله أعالم) وعلمه تعليمًا ربانيًا ليس من علم البشر (وهنا ينتهي دور الفتى فلا يرد له ذكر في القصة، هل صرفه موسى ليعود بعد أن وصل موسى إلى هدفه؟ أو بقي معهما دون أن يكون له دور؟ الله أعلم).

طلب موسى من العبد الصالح أن يسمح له باتباعه ليتعلم منه الرشد والصواب، فأجابه العبد الصالح أنه لن يستطيع صبرًا على تلقى هذا العلم، فهو ليس علم ظواهر الأمور بل بواطنها التي تخفى حتى على الأنبياء، إذا لم يرد الله أن يدلهم عليها، وكيف يستطيع موسى أن يصبر على ما يراه، ومظهر الأمر يخفي مخبره، فلا يستبين إلا بكشف سره، ولكن موسى متلهف على التعلم، وسيحمل نفسه على الصبر على ما يرى بمشيئة الله، يعاهده أنه لن يعصى له أمرًا، فشرط عليه ألا يسأله عن شيء حتى يخبره هو به.

يقول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا

عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الآيات: ٦٥- ٧٠).

بدأت التجربة وسار العبد الصالح وموسى، فأراد أن يعبرا البحر فركبا سفينة فوجئ موسى بالعبد الصالح يحاول ثقب السفينة، وخرقها وأحدث بها تشوهات.

ارتاع موسى كيف يفعل هذا الرجل بالسفينة ما فعل، ونسى ما اتفقا عليه، فصاح في العبد الصالح: كيف تقدم على هذا العمل، وتخرق السفينة؟ ألا تعرف أن ذلك قد يؤدي إلى غرق أهلها؟ لقد فعلت شيئًا عظيمًا منكرًا، التفت إليه العبد الصالح في هدوء وذكره برأيه فيه من قبل، وهو أنه لن يستطيع الصبر على ما سيراه، ثاب موسى إلى رشده، وتذكر عهده، فأخذ يعتذر إلى العبد الصالح بأنه نسى، وطلب منه ألا يشدد عليه في العتاب فيزيده ضيقًا على ما به مما رآه من حادثة السفينة.

سامحه العبد الصالح وسارا معًا، فمرا على غلام، ففوجئ موسى بالعبد الصالح يذبح الغلام، فلم يتمالك نفسه وصاح: هل قتلت نفسًا طاهرة بريئة بغير جرم أتته، إن هذا شيء يستحق الإنكار من كل من يراه، ينظر إليه العبد الصالح، ويذكره مرة ثانية برأيه فيه بأنه لن يستطيع معه صبرًا على ما يراه.

لا يجد موسى مفرًا من الاعتذار، ويعد العبد الصالح أنه لن يسأله عن شيء بعد ذلك، وإذا سأله فمن حقه أن يقطع صحبته، ويكون له العذر الكافي في ذلك.

استأنف العبد الصالح وموسى المسير، حتى بلغا قرية وقد بلغ الجوع منهما مبلغه، فدارا على القرية يستجديان أهلها بعض الطعام، فرفضوا جميعًا أن يطعموهما، لما كانوا يتصفون به من بخل وشح، وجد العبد الصالح في هذه القرية اللئيمة منزلًا أحد جدرانه آيل للسقوط فشمر العبد الصالح عن ساعده، وأخذ يبنيه، تعجب موسى من فعله، كيف يرفض أهل هذه القرية كلهم إطعامهما، ويحاول هو إصلاح أحد منازلها، ولكنه لم يعترض وإنما اقترح على العبد الصالح أن يأخذ أجرًا على فعله يطعمان به ولكن العبد الصالح اعتبر هذا الاقتراح نقضًا لما بينهما من عهد فقال لموسى: إن تدخلك هذا ينهي ما بيننا من عهد، فالآن نفترق، وسأخبرك بتفسير ما عجزت عن الصبر عليه.

يقول الله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ۝٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ۝٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ۝٧٤ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ۝٧٨﴾ (الآيات: ٧١- ٧٨)

وبدأ العبد الصالح يكشف السر لموسى، وهو سر يسير لمن لديه علم ببواطن الأمور وخفاياها فالسفينة أصحابها قوم مساكين، يرتزقون من العمل عليها، وكان في طريقها ملك مستبد ظالم، يأخذ كل سفينة صالحة تعجبه اغتصابًا، لا يدفع شيئًا في مقابل ذلك، فأردت إحداث بعض العيوب فيها كي يزهد في أخذها، والغلام أبواه مؤمنان صالحان، وهذا الغلام فاسد الطوية، مفطور على الكفر والشر، فإذا بلغ مبلغ الرجال فسيستبد بأبويه، ويحملهما على الكفر، وقد أردنا أن يقي الله هذين الأبوين من شر هذا الغلام، وأن يهبهما عوضًا عنه غلامًا أكثر طهرًا منه، وأحرص على بر والديه وتقاهما.

وأما الجدار الذي قمت ببنائه فهو ملك لغلامين يتيمين في هذه القرية وكان لهما أب صالح وقد وضع لهما أسفل هذا الجدار كنزًا ينفعهما عند بلوغ أشدهما، فلو ترك الجدار يسقط الآن لاستولى أهل القرية على الكنز، وما كان للغلامين قبل بهم، فأراد ربك أن يبنى الجدار إلى أن يكبر الغلامان، ويستخرجا كنزهما وينتفعا به، رحمة من ربك بهما.

ويختم العبد الصالح حديثه بأن ما فعله لم يكن بإرادته أو أمره، وإنما بإرادة الله وأمره، فهذا يا موسى ما لم تستطع الصبر عليه.

يقول الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ۝٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ

فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(الآيات: ٧٩- ٨٢)

هذه القصة أراد الله بها سبحانه أن يعرف عباده أن له في كل أمر يفعله حكمة، وهذه الحكمة قد تخفى عن العقول حتى عقول الأنبياء، ولكن هذا لا يعني أن الحكمة غائبة بل خافية، لا يعلمها إلا الله، وعلى العباد التسليم بذلك.

وقد تضمنت القصة ثلاثة نماذج يرى فيها المشاهد ما يقترب من الظلم والقسوة، ولكنه لو اطلع على الأمر كاملًا لسلم بالحكمة في هذه الأفعال، فهؤلاء المساكين الذين يعملون في البحر، ويرزقون من سفينتهم، كم يخسرون لو صادر الملك الظالم سفينتهم؟ إنهم يخسرون مورد رزقهم الوحيد، ولن يستطيعوا شراء سفينة غيرها فهم مساكين، وأما ما فعله بهم العبد الصالح من خرق السفينة فلن يكلفهم إلا دراهم معدودة لإصلاحها، وإني لأتخيل هؤلاء المساكين وقد عرتهم السعادة - بعد ما نجت سفينتهم من قبضة الملك الظالم - ولعلهم دعوا كثيرًا لهذه العبد الصالح.

وأما النموذج الثاني فهو فاجع في رأي العين، وبتفكير اللحظة الحالية، ولعل أبويه ذاقا من مرارة الثكل ألوانًا تحرق الكبد، وتدمى الفؤاد، ولكن قرت أعينهم بعد قليل حينما رزقهم الله بغلام غيره، فبدأت لواعج الحزن

تخف شيئًا كلما نما الغلام، واشتد عوده، وبدت عليه مخايل الطيبة والصلاح، وتعالوا نتأمل حالهما، وهذا الغلام حي لم يقتل، وقد تلبسته الشياطين، وتمرد على خالقه، وأخذ يجرف أبويه معه في مهاوى الكفر، وهما لا يملكان من أمرهما شيئًا، فابنهما طاغية وكافر أو كما قالت الآية: ﴿ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ وإن من مشاهد حياتنا الحاضرة ما يؤيد ذلك، فبعض الأبناء العاقين في زماننا - كما تذكر الحوادث اليومية - يسيئون إلى آبائهم وأمهاتهم لدرجة تجعل الآباء يلجأون للشرطة لحمايتهم منهم، بل قد يقتل هؤلاء الأبناء آباءهم وأمهاتهم، وكم فرح بهم الآباء والأمهات عندما ولدوا ورأوا فيهم قرة العين وثمرة الفؤاد.

وأما النموذج الثالث ففيه مغزى عميق، يدل على أن العمل الصالح لا يمكن أن يضيع دون مكافأة، وأن عمل الوالدين الصالح يجزى به الأبناء، فهذا أب صالح عاش حياته في استقامة وتقى، ثم مات وترك صغارًا لا يستطيعون تدبير أمور حياتهم، وكان قد ادخر لهم بعض المال في أسفل جدار خوفًا من الظلمة واللصوص، ولكن الجدار، وَهَى بنيانه، وكاد يسقط، أفيتخلى الله عن هؤلاء الصغار، ويخلف ظن الرجل الصالح الذي مات مطمئنًا إلى أن المال الذي تركه سيصل إلى وأولاده في أمان عند حاجتهم إليه؟ لا، بل يهيئ من يذهب إلى هذار الجدار فيبنيه دون أن يتعاطى ثمنًا، وعلى الرغم من بخل أهل القرية وشحهم.

ما الدرس المستفاد من هذه النماذج الثلاثة؟ إنه الرضا بقضاء الله والثقة بحكمته، وعدم تعجل الأمور قبل أن تصل إلى مصيرها التي أرادها الله لها. كل أمر عنده بحكمة، وكل شيء عنده بمقدار، ولقد صدق من قال: «لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع»، ويعجبني تشبيه قرأته لأحد الكتاب، يشبه أحداث بمسرحية متعددة الفصول من اقتصر على فصل منها يحكم عليها بالظلم والقسوة، أو الفساد والانحراف، ولكنه لو اطلع على جميع الفصول استقامت أمامه الأمور، واعتدل الميزان، وكذلك نحن البشر حياتنا قصيرة لا تكفى دائمًا لمعرفة النتائج الأخيرة، ولكن ما يكشفه الله لنا أحيانًا من عواقب الأمور يجعلنا نسلم بحكمته ونرضى بقضائه فيما خفي علينا.

بقيت ملاحظة أخيرة: من هو العبد الصالح؟ وما مجمع البحرين؟ القرآن لم يحددهما؛ لأن تحديدهما لا يفيد شيئًا في مجرى الأحداث، والهدف منها، والحديث الذي أوردت جزءًا منه يذكر أنه الخضر، وأما مجمع البحرين فقد يكون مكانًا في سيناء عند ملتقى البحرين الأبيض والأحمر، والله أعلم.

وبهذه القصة تنتهي ملحمة موسى عليه السلام في القرآن الكريم وهي ملحمة - فيها الإيمان العميق بالله الذي جعله يواجه فرعون وطغيانه وجبروته، ويقف منه موقف الند للند، لا يبالي غضبه أو انتقامه، وقد مرت بنا مواقف كثيرة تؤيد هذا، وفيها الشجاعة والإصرار، وصبره على تعنت قومه، وإيذائهم له، وعلى ما كانوا يخلقونه له من مشكلات ومصاعب تثير الحليم،

وأقرب مثال لذلك لجاجتهم في مسألة البقرة، وأسوأ مثال لذلك عبادتهم العجل.

بنو إسرائيل بعد موسى:

لم تتغير طبيعة بني إسرائيل بعد رحيل موسى، بل ظلوا على ما اتسموا به من لجاجة، وعصيان لأوامر الله والتحايل لفعل ما نهو عنه وقد ذكر القرآن ثلاثة مواقف توضع هذه الطبيعة وهذه المواقف هي:

١ – عصيانهم لأمر الله عند دخولهم القرية.

٢ – اعتداؤهم في السبت.

٣ – حربهم جالوت.

١- عصيانهم أمر الله عند دخولهم القرية:

وهذه القرية لم يسمها القرآن، ولكنها قرية – كما يذكر المفسرون – في الأرض المقدسة – أرض الشام – قد تكون بيت المقدس، أو أريحا، وهي القرية التي جبنوا عن دخولها في حياة موسى، وقالوا: إن فيها قومًا جبارين، وأعلنوا أنهم لن يدخلوها أبدًا ما داموا فيها، وطلبوا من موسى أن يذهب هو وربه ليقاتلا، وقد حكم الله عليهم بالتيه من جراء ذلك أربعين سنة، وقد مات قبل أن تنقضي هذه المدة موسى، فلما انقضت قادهم يوشع بن نون تابع موسى لدخولها، ويسر الله لهم الأمر، وحقق لهم النصر، ثم طلب الله إليهم عند دخول هذه القرية الوافرة الخيرات أن يستمتعوا بما فيها من خير وسعة

عيش، وأن يؤدوا حق الله في الشكر على ما هيأه لهم من نصر، بأن يسجدوا له شكرًا عند دخولهم من باب القرية، إظهارًا لتواضعهم، وعدم استعلائهم، وأن يقولوا كلمة واحدة تعبر عن حاجتهم لله ومعرفتهم قدره، واعترافهم بذنوبهم التي لا يخلو منها بشر، هذه الكلمة هي «حطة» أي حط عنا ذنوبنا يا رب، وفي مقابل هذا يغفر الله لهم خطاياهم ويزيد في الإحسان إليهم، هذا الأمران اليسيران رفضهما بعضهم، ولم يدخلوا الباب سجدًا بل بطريقة تعبر عن استهزائهم بالأمر، ولم يقولوا تلك الكلمة بل حرفوها إلى لفظ استهزاء أيضًا فقالوا - كما يذكر المفسرون - «حنطة» أو حبة في شعرة مما يدل على سخريتهم، وقد وصف الله الذين فعلوا هذا بأنهم ظالمون وأنزل عليهم عذابًا شديدًا من السماء التي اعتادوا خيرها من قبل، ولم يحدد الله نوع العذاب الذي نزل بهم.

وقد ورد ذكر هذه القصة في سورتي الأعراف والبقرة مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ.

يقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الآيتان: ١٦١- ١٦٢).

فالمضمون واحد في كلتا السورتين، والاختلاف اللفظي يكمل بعضه بعضًا في توكيد المعنى، فإذا قال في سورة البقرة: ادخلوا، وفي سورة الأعراف «اسكنوا» فقد اكتمل المعنى وهو أن دخولهم للسكنى وليس للمرور العابر.

وإذا كان قائل القول مجهولًا في سورة الأعراف (قيل لهم) فقد جاء معلومًا في سورة البقرة «وهو الله جل جلاله لنا» وحيًا لنبيهم، وقد بينت سورة البقرة وفرة الخير في القرية «رغدًا» وقد تقدمت «حطة» في سورة الأعراف، وتقدمت «ادخلوا الباب سجدًا» في سورة البقرة ليبين تساوي الأمرين في الأهمية، وإذا جاء قوله «الذين ظلموا» مطلقًا في سورة البقرة، وذلك قد يوحى بأنهم جميعًا خالفوا الأمر فقد جاء مقيدًا في سورة الأعراف بأنهم «منهم» أي أن بعضهم هم الذين ظلموا، وهكذا تكمل الآيات بعضها بعضًا.

٢- الذين اعتدوا في السبت:

طلبت بنو إسرائيل يومًا في الأسبوع يستريحون فيه، فحدد الله لهم يوم السبت، ونهاهم أن يمارسوا فيه أي عمل سوى العبادة، وشدد الله هذا النهي، ولكن بعضهم خالف محاولًا خداع سبحانه، فقد كانت هناك قرية لم يسمها القرآن لعدم أهمية الاسم في هذا المقام، وإنما وصفها بأنها تقع على البحر ويقول المفسرون: إنها مدينة «إيلة» التي تقع على بحر القلزم (البحر الأحمر) وكان أهلها يهتمون بصيد السمك، فأراد الله ابتلاءهم، ليظهر مدى استمساكهم بأوامر الله ونواهيه، فكان يرسل لهم يوم السبت مقادير هائلة من

السمك تظهر أمام أعينهم فوق سطح البحر سهلة المنال، وفي غير يوم السبت يختفي السمك فأغراهم هذا بالخداع - خداع الله سبحانه وتعالى عن خداعهم - فكانوا يحجزون السمك في برك يحيطونها بسدود بحيث لا يستطيع السمك مغادرتها، ثم يصيدونها في يوم آخر، وقد ابتلاهم الله هذا الابتلاء لما كانوا يتصفون به من خروج على مبادئ الإيمان، وقد جاءت هذه القصة مفصلة في سورة الأعراف، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[1] (الآية: ١٦٣).

لم يلجأ أهل القرية جميعهم إلى هذا اللون من الخداع وانتهاك حرمة السبت، وإنما فعل ذلك فريق منه، وأما الباقون فقد انقسموا فريقين: فريقًا غضبوا لانتهاك حرمة السبت، وأخذوا ينهونهم، ويحذرونهم غضب الله، وفريقًا رأى أن وعظ الفريق الأول سيذهب سدى؛ لأن غضب الله حل بهم وسينزل بهم العذاب الشديد، فما جدوى الوعظ؟ فيجيبهم الفريق الأول بأنهم إنما يفعلون ذلك إرضاء لله واعتذارًا إليه في سوء فعل فريق منهم، ولأنهم لم يفقدوا الأمل في رجوعهم عن غيهم واتقائهم الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

---

(١) انظر تفسير القرطبي.

عَذَابًا شَدِيدًاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾(الآية: ١٦٤)

وفي هذه الآية درس قيم للمؤمن الحريص على دين الله، الداعي إلى الاستمساك به وهو ألا ييأس، وألا يدفعه انكباب الناس على المعاصي إلى الانصراف عنهم وتركهم وشأنهم، فهذا هروب لا يرضى الله، بل عليه أن يحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو لم يستجب له أحد، فواجبه الدعوة إلى الله ما أمكنه ذلك دون عنت إعنات، ولقد كنت قبل أن أتدبر هذه الآية أرى أنه لا جدوى من دعوات الإصلاح لقوم لا يأبهون لها، وينغمسون في ماديتهم وشهواتهم، وأتمثل بقول أبي العلاء:

كم وعظ الواعظون فينا   وقام في الأرض أنبياء

وانصرفوا والبلاء باق   ولم يزل داؤك العياء

لكن لا، هناك أمر هام هو الاعتذار لله، وأداء الواجب، والاستمساك بالأمل.

ولما لم يُجْدِ في الفريق الفاسق وعظ الواعظين، ونسوا كل ما ذكروهم به من خشية الله، وطاعة أوامره، نجى الله الفريق الذي قام بواجبه، وأنزل عذابه الشديد بالفريق الفاسق الذي استحل حرمة السبت بسبب فسقهم وخروجهم عن مبادئ الدين، وسكتت الآيات عن الفريق السلبي الذي لم يستحل حرمة السبت، ولم يهتم بوعظ المخالفين يأسًا منهم، فهل عذبهم الله أيضًا؟ يأبى عدل الله ذلك، ولعله سكت عنهم لسلبيتهم فلم يستحقوا الذكر، على عكس

الفريق الإيجابي الذي استحق التحريم من الله، فبادر الله بذكر نجاته قبل أن يذكر هلاك الفاسقين.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾(الآية: ١٦٥)

لكن هذا العذاب البئيس لم يردعهم، واستمروا في عصيانهم، وجاوزوا كل حد في مخالفتهم لأوامر الله، فلا جرم أن يحلَّ بهم غضب الله، فيخرجهم عن طبيعتهم البشرية التي لم يشكروا النعمة فيها، ولم يؤدوا حق الله من أجلها، فكان الأمر الإلهي أخرجوا من صورتكم البشرية إلى صورة القردة المبعدة من رحمة الله، وأنس عباده، يقول المفسرون: إنهم لبثوا في صورة القردة أيامًا قليلة ثم ماتوا.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ (الآية: ١٦٦)

وقد وردت لمحة عابرة في سورة البقرة عن هذه الحادثة لا تتجاوز تذكير بني إسرائيل في عهد الرسول ﷺ بها، وذكر الحكم الإلهي الذي صدر عليهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ (البقرة: ٦٥).

ثم يعقب الله على هذا العقاب الشديد بأنه كان كذلك ليكون رادعًا للأمم المعاصرة لهم، والأمم التي ستأتي بعدهم، ويكون موعظة للمتقين، فيحمدوا عاقبتها، ويثبتوا عليها.

يقول الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٦٦ ﴾ (الآية: ٦٦).

الرغبة في الجهاد والنصر على العدو (حرب جالوت):

وهذا هو الموقف الثالث الذي يصور طباع الكثرة الكاثرة من بني إسرائيل، طباع الجبن واللجاجة، والنكوص عند أول باردة، وقد ورد هذا الموقف في سورة البقرة، ولم يرد في غيرها من السور.

يبدأ الموقف بسؤال الله رسوله ﷺ سؤال تشويق وترقب لما يأتي بعد: ألم يصل إلى علمك حديث الجماعة من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبي لهم لم تسمه الآية - لعدم الجدوى من ذكر اسمه - أن يختار لهم ملكًا يقاتلون تحت قيادته في سبيل الله، ولعلم نبيهم بجبنهم، وطبيعتهم المتقلبة، سألهم هل إذا أصبح القتال مفروضًا تنكصون عنه وتجبنون، فيجيبونه مستنكرين: كيف ننكص عن القتال في سبيل الله وعندما الدوافع القوية التي تحثنا عليه؛ فقد أخرجنا أولئك الظالمون من ديارنا، واستولوا على أموالنا، فكيف لا نستميت في قتالهم، ثم تبادر الآية لتخبر عن موقفهم الجبان حينما كتب عليهم القتال فقد نكصوا عنه ولم يبق منهم إلا القليل، والله يعلم سرائرهم ويعلم الظالمين لأنفسهم بهذا الموقف.

يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ (البقرة: ٢٤٦).

ويستخير النبي الله في شخص الملك الذي يوليه عليهم، فيختار لهم شخصًا اسمه طالوت، ويقول لهم: لقد أرسل الله إليكم طالوت ملكًا عليكم، فتغلبهم طبيعة اللجاجة المتحكمة فيهم، فيعترضون عليه مستنكرين هذا الاختيار، فكيف يكون له الملك عليهم، وهم أحق منه بالملك لعراقة أصولهم، ونبل محتدهم؟

إذن هم كانوا يريدون النبي أن يختار واحدًا منهم، فلما اختاره من غيرهم اعترضوا.

وإذا تنازلوا عن عراقة الأصل ونبل المحتد، فكيف يسكتون عن فقره؛ لأن المال قد يكون عوضًا عن العراقة، فيرد عليهم النبي أن مقاييسهم فاسدة، وإن هذا الشخص اجتمعت فيه ميزات عدة فهو أولًا اختيار الله فقد اصطفاه عليهم، وثانيًا مبسوط الجسم، طويل عريض وهذه من لوازم القيادة، وثالثًا هو يمتاز بالعلم الذي يساند قوته الجسمية، وأخيرًا فإن الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده، وهو واسع عليم، وكي يطمئنهم أكثر – لما يعرف من لجاجتهم وعنادهم – يقول لهم: إن معجزة ستحدث تؤكد لهم اختيار الله له ليكون ملكًا عليهم تلك المعجزة هي أن يأتيهم التابوت الذي كانوا يحتفظون فيه بمقدساتهم، وما تركه لهم آل موسى، وآل هارون من تراث مقدس، وكان أعداؤهم قد استولوا عليه عندما طردوهم من أرضهم، سيأتيهم هذا التابوت

تحمله الملائكة، هذا الأمر سيكون علامة لهم باختيار الله الطالوت ملكًا عليهم إن كان في قلوبهم إيمان بالله، وقد تحقق ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ (الآيتان: ٢٤٧- ٢٤٨).

رضي القوم بطالوت ملكًا عليهم، وسار بهم للقاء عدوهم، ولكنه غير مقتنع بهم، فأراد أن يضعهم أمام اختبار، يعرف به مدى تحملهم واستعدادهم للتضحية، وكان أمامهم نهر فقال لهم: إن من يشرب من هذا النهر فقد أعلن انفصاله عنا ولن نسمح له بصحبتنا وأما من لم يشرب منه فإنه راض عنا، ومستعد لصحبتنا، واستثنى من ذلك الغُرفة التي يغرفها الرجل من النهر، يبل بها ظمأه وكان العطش قد بلغ منهم مداه، فسقط معظمهم في الاختبار، فقد شربوا منه إلا قليلًا منهم، وانفصلوا عن الجيش، ولم يبق مع طالوت إلا قليل من الجند، فلما أحسوا بقتلهم شعروا بالخوف، وقالوا: لن نستطيع مقاومة جالوت وجنوده، ولكن كان من هذه القلة قلة مؤمنة تؤمن بلقاء الله، وتثق

بنصره، فقالوا لهم: إن الأمر لا يدور على القلة والكثرة، ولكن النصر بيد الله يمنحه لعباده الصابرين المخلصين، والشواهد تدل على أن الفئات القليلة العدد ينصرها الله على الكثرة الكثيرة ما دامت صابرة ومخلصة لله، وواثقة بنصره.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ (البقرة: ٢٤٩).

ثم بدأت المعركة، وأخذ الجيش المؤمن القليل يلجأ إلى الله طالبًا منه أن يملأهم بالصبر، وأن يثبت أقدامهم عند لقاء عدوهم، فلا ينهزموا أمامه، وأن ينصرهم على أعدائهم الكافرين بربهم، فتحقق لهم النصر بإذن الله وإرادته، وقتل داود أحد صغار الجند في الجيش المؤمن جالوت الحاكم الجبار الذي ترتعد أمامه الفرائص، وتتزلزل الأقدام، وكان هذا إرهاصًا بنبوة داود الذي أعطاه الله بعدها ملك بني إسرائيل، ومنحه الحكمة وصواب الحكم، وسداد الرأي، وأعطاه الكثير من علمه اللدنى مما يراه ملائمًا له.

ثم يختم الله هذه القصة ببيان حكمته الإلهية في اقتتال الناس بعضهم مع

بعض، فهذا الاقتتال المخرب في ظاهره فيه صلاح الحياة واستقامتها، ففي طبيعة البشر تعارض وحب استئثار بكل ما في الحياة، وطغيان القوى على الضعيف، فلو سكت المقهور على قاهره، لازداد طغيانًا وفسادًا، كما أن الأمم المستسلمة للراحة والرفاهية لو تركت وشأنها لازداد استرخاؤها، وتعفنت منابع الحياة لديها، ولكن حين يعتدي عليها معتد تستثير كوامن القوة فيها وتهب للتخلص من عدوها فتجدد حياتها، ولكن فضل الله الواسع على العالمين يهيئ لهم دائمًا من يجدد عزائمهم وينشط حياتهم.

وأخيرًا يبين الله لنبيه ﷺ أن هذه السطور التي تتناول هذه القصة هي من عند الله حقًا، وإنك يا محمد لمن المرسلين الذين أرسلهم الله إلى خلقه ليكونوا رحمة لهم وهداية.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾(الآيات: ٢٥٠- ٢٥٢).

وتنتهي القصة عند هذا الحد، وبها نترك بني إسرائيل لنعود إليهم ونتحدث عن مكايدهم في عهد الرسول ﷺ ولكن هذا له مكان آخر، ولكن لابد من

وقفة قصيرة أمام هذه القصة لأستخلص منها بعض دروس النصر والهزيمة التي جلتها لنا هذه القصة.

فأولًا: القلة والكثرة ليست هي الشرط الأول للهزيمة أو النصر، ولكن الشرط الأساسي هو الإيمان بالله، والثقة بنصره، وليس الإيمان مجرد كلام يقال، أو شعار يرفع، ولكن لابد أن يتلبس كل تصرفات الشخص فلا يصدر في أي سلوك من سلوكه إلا عن هذا الإيمان.

وثانيًا: لابد من اختبار الجند الذاهبين إلى المعركة اختبارًا يكشف عن مدى إيمانهم وصبرهم وتحملهم.

وثالثًا: التوجه إلى الله بالدعاء أن يحقق لهم النصر، ويهبهم الصبر والثبات، فهذا الدعاء يزيد من شحنة الإيمان في صدورهم.

ثم نلاحظ أن الحديث عن النصر لم يستغرق إلا جملة واحدة: فهزموهم بإذن الله، وكأن الله يريد أن يبين أن العبرة بإعداد العدة المناسبة، واتخاذ الوسائل المتاحة فإذا تحقق هذا فقد أصبح النصر أمرًا مفروغًا منه.

كذلك نلاحظ من قول الله تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ أن من أسباب النصر قتل القائد فهو رأس الجيش، وسقوط الرأس يستلزم فناء البدن.



١٠، ١١- داود وسليمان عليهما السلام

وقد قرنتهما معًا لأن سليمان يعقب داود في كل سورة ورد ذكره فيها كما أنهما والد وولد.

أ- داود عليه السلام

فأما داود فقد مر علينا ذكره في الملحمة البطولية التي دارت بين القلة المؤمنة التي كان يقودها طالوت، والكثرة الكافرة التي كان يقودها جالوت -. وانتصرت القلة المؤمنة بإذن الله، وقتل داود - الفتى الصغير - جالوت الجبار الضخم، فكان هذا إرهاصًا بنبوة داود، وقد أشاد الله بداود وبين فضله عليه حيث أتاه الملك والحكمة وعلمه مما يشاء.

وقد ورد ذكر داود في ثلاث سور مكية هي «ص»، «سبأ»، «الأنبياء» وهي السور التي روت بعض معجزاته وطرفًا مما وقع له وذلك إلى جانب سورة البقرة التي ذكرت قتله جالوت، وأما اسمه فقط فقد ورد في أكثر من ذلك.

في سورة «ص»:

تتناول سورة «ص» بيان فضل الله على داود، وما حباه به من معجزات، ثم تذكر الفتنة التي تعرض لها داود، واستغفاره ربه، وغفرانه له.

وقد جاءت قصة داود في معرض الحديث عن إيذاء المشركين لرسولنا ﷺ واتهامهم إياه بالسحر والكذب، والعجب من جعله الآلهة إلهًا واحدًا، وأن ينزل عليه الذكر دونهم إلى غير ذلك من أباطيلهم، فيدعوه الله إلى الصبر على أقوالهم، ويذكر له طرفًا من قصص الأنبياء لتسليته، يبدؤوها بذكر داود فيصفه بأنه عبد الله «عبدنا» تعظيمًا له، وتكريمًا، كما يصفه بالقوة: القوة في العلم والحكمة، والقوة على العبادة، فقد كان كم يروى الحديث الشريف يصوم يومًا ويفطر يومًا، والقوة في البدن كما رأينا في قتله جالوت، كذلك يصفه بأنه أواب: أي كثير الرجوع إلى الله، ثم يذكر بعض معجزاته، وهي تسخير الجبال، وقد حدد الله طبيعة هذا التسخير، فهو حين يسبح بالعشي والإشراق أي في وقت الأصيل ووقت الضحى تجاوبه الجبال وتسبح معه، كذلك الطير تجتمع إليه حينما يسبح فتردد معه تسبيحه، ولا تتخلف أبدًا عن طاعته في هذا التسبيح، ومع هذه المعجزة قوى الله ملكه فكانت مملكته حصينة لا يستطيع الخلوص إليها أي من أعدائه، لتدبيره إياها بالحكمة ولكثرة جنده وشجاعتهم، وذلك كله بتوفيق الله إياه، كما وهبه الله الحكمة يدبر بها كل أمره، والرأي السديد يواجه به كل معضلة.

يقول الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا

سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (الآيات: ١٧ – ٢٠).

كيف تسبح الجبال؟ وكيف تسبح الطير مع داود؟ هل تسبح بصوت مسموع يسمعه كل من يقترب منه، أو لا يسمعه إلا داود؟ أو أن التسبيح بلسان الحال والدلالة على عظمة الله بما يبدو من ضخامة الجبال، وطيران الطير؟ واضح أنها لكي تكون معجزة لداود لابد أن تكون أمرًا خارقًا للعادة، وأن يكون تسبيحها كالتسبيح المعهود.

يقول المرحوم سيد قطب في هذا: «وقد عرف داود بمزاميره، وهي تسابيح لله كان يرتلها بصوته الحنون، فتتجاوب أصداؤها حوله، وترجع معه الجبال والطير، وحينما يتصل قلب عبد بربه، فإنه يحس الاتصال بالوجود كله، وينبض قلب الوجود معه، وتنزاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التي تميز الأنواع والأجناس وتقيم بينها الحدود والحواجز، وعندئذ تتلاقى ضمائرها، وحقائقها في ضمير الكون وحقيقته، وفي لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها في الكل، واحتوائها على الكل، عندئذ لا تحس بأن هناك ما هو خارج عن ذاتها ولا بأنها هي متميزة عما حولها، فكل ما حولها مندمج فيها وهي مندمجة فيه، ومن النص القرآني نتصور داود وهو يرتل مزاميره، فيسهو عن نفسه المنفصلة المتميزة المتحيزة، وتهيم روحه في ظلال الله في هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء، فيحس ترجيعها ويتجاوب معها كما تتجاوب معه

وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله وحمده ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).

إنما يفقهه من يتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات المتجهة كلها إلى الله»[1].

تنتقل الآيات بعد هذا إلى سؤال الرسول ﷺ هذا السؤال التشويقي: «وهل أتاك نبأ الخصم» لتثير في نفسه الترقب واللهفة، أما هذا الأمر الذي تلفت إليه الآيات نظر الرسول ﷺ فهو الفتنة التي تعرض لها داود، وخلاصتها أن كان جالسًا بمحرابه يعبد الله، وقد أمر ألا يدخل عليه أحد كي لا يقطع خلوته مع الله، ففوجئ باثنين يقفزان من فوق سور المحراب ويدخلان إليه.

أمر يثير الفزع والريبة في نفس أي إنسان، وهذا ما حدث لداود فقد فزع منهما، ولكنهما بادرا إلى طمأنته قائلين له: لا تخف، فما نحن إلا متخاصمان لجأنا إليك لتقضي بيننا في أمر أثار النزاع بيننا، وأخذ يظلم بعضنا بعضًا، فاقض بيننا الحق، ولا تجاوز الحد في قضائك فتظلم أحدنا، وأهدنا إلى طريق العدل والحق (واضح أن الذي يوجه هذا الحديث هو الذي وقع عليه الظلم، وسكوت خصمه يعتبر إقرارًا بما يقول) ثم يعرض المظلوم وقائع القضية فيقول: إن خصمه هذا – ولكن أدبه في الحوار جعله يعبر عنه «بأخي» واسع الثراء فعنده تسعة وتسعون نعجة، وأما أنا فلا أملك إلا نعجة واحدة، ومع

---

(١) في ظلال القرآن ص ٢٣٩٠ ط ١١.

ذلك فخصمي يطلب مني أن أضمها إلى نعاجه، وتصبح ملكًا له، وقد غلبني في خطابه بشدة لهجته، وحدة منطقة.

وقبل أن يسمع داود رأي الخصم الآخر بادر بإصدار حكمه فوصف الخصم الآخر بالظلم بسبب طلبه أخذ نعجة خصمه الوحيدة منه، ثم عقب على ذلك بإصدار حكم عام على الشركاء بأنهم كثيرًا ما يظلم أحدهما الآخر إلا المؤمنين منهم الذين يعملون الصالحات، وهؤلاء قلة قليلة، ويبدو أن الخصم الآخر نبهه إلى أنه لم يسمع رأيه قبل الحكم - وهذا مجاف للعدل - أو تنبه هو من تلقاء نفسه إلى تسرعه في الحكم، أو كان الخصمان ملكين جاءا اختبارًا من الله، ثم اختفيا بعد نطقه بالحكم، وأيًا ما كان الأمر فقد أدرك داود أن هذا الأمر فتنة، وأنه سقط في هذا الابتلاء فبادر إلى استغفار ربه، وخر ساجدًا لله نادمًا مستغفرًا متضرعًا فغفر الله له، وإن له عند الله زيادة الخير في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ

وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾[1] (الآيات: ٢١- ٢٥).

ما وجه الابتلاء في هذه الآيات؟ واضح أنه تسرع داود في الحكم قبل سماع رأي الخصم الآخر، وهذا ما يقتضيه العدل، ولعل ما يؤكد أن هذا هو الابتلاء أن داود لم يشعر بخطئه إلا بعد أن أصدر حكمه لا قبل ذلك، ويؤكد هذا الرأي أن الله تعالى حينما امتن على داود بأن جعله خليفة في الأرض طلب منه أن يقضي بين الناس بالحق، وألا يتبع الهوى في حكمه، فلا يتسرع في الحكم لمجرد منظر أحد الخصمين الذي يثير الشفقة، أو قوله الذي يستدر العطف، بل واجبه أن يتثبت ويتأنى ويعطي الفرصة لكل خصم لكي يدلي برأيه، إنه إن لم يفعل ذلك فقد اتبع هواه، وانحاز لعواطفه، وهذا يؤدي إلى الانحراف، عن طريق العدل، ثم يخوفه عقابه ذلك بأن الذي يتبعون أهواءهم، ويبتعدون عن العدل والحق لهم عذاب شديد بسبب نسيانهم لقاء ربهم وحسابه معهم.

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الآية: ٢٦).

ولكن المفسرين ينساقون وراء الإسرائيليات فينسبون إلى داود قصة لا تليق بإنسان كريم الخلق، فضلًا عن نبي فهم يزعمون أن أحد قواد داود كان

(١) أكفلنيها: ضمها إلي واجعلني كفيلًا عليها، وعزني: غلبني وشدد علي. الزلفى: زيادة الخير في الدنيا. مآب: الثواب في الآخرة.

اسمه «أوريا» وأن داود اطلع ذات يوم على سطح بيته فرأى امرأة أوريا عارية تغتسل، فلما رأته أسدلت شعرها على جسدها، فافتتن بها داود وتمناها لنفسه، وكان أوريا في حرب فأوصى داود قائد الجيش أن يجعل أوريا في المقدمة بحيث يقتل، فلما قتل تزوج امرأته!!

أهذا يليق بنبي؟! إنه لا يمكن من منظور إسلامي أن يقع هذا من نبي بل ولا بعض هذا، نعم في التوراة المحرفة إسفاف كثير حول هذه القصة، فقد جعلت داود يزني بالمرأة لا أن يتزوجها، ولكن قد يحدث هذا من منظور قتلة الأنبياء، وأما الإسلام فحاشا له أن يعتبر مثل هذا نبيًا، فأنبياء الله هم كما قال عنهم الله من المصطفين الأخيار، كما أن الآيات المذكورة آنفًا لا تساعد على هذا الفهم، فلو كانت القصة المزعومة هي المرادة لصرح بها القرآن، أو أشار إليها إشارات واضحة.

في سورة سبأ:

تأتي قصة داود أيضًا في هذه السورة بعد سخرية المشركين من الرسول ﷺ لحديثه عن البعث، واتهامه بالكذب والجنون، فيبين الله لهم دلائل عظمته وقدرته، وإن فيها لدليلًا لكل عبد كثير الرجوع إلى الله والإنابة إليه، ثم يذكر داود بعد ذلك وفضل الله عليه حيث أمر الجبال أن ترجع معه تسبيحه، وكذلك الطير وهذه معجزة، ومعجزة أخرى هي إلانة الحديد له يشكله كما يشاء (والمعجزة في إلانة الحديد قد تكون بهداية الله له لتسخينه حتى يلين،

وقد تكون بجعل الحديد يلين له دون وسيلة، وكلا الأمين معجزة) ثم دعاه – بعد أن ألان له الحديد – إلى صنع دروع تامات تكسو الصدر كله، وطلب منه أن يجعلها في هيئة حلقات ليست واسعة فتخترقها السيوف، وليست ضيقة فيكثر حديدها فتثقل على حاملها، بل عليه أن يقدر سردها – أي نسج حديدها – بما يلائم المراد منها، ثم يطلب من داود وأهله أن يعملوا صالحًا لدنياهم، ولأخراهم، فلا يكفي الإنسان أن يكون نبيًا، أو يمت بقرابة إلى نبي لينال رضا الله دون عمل، بل لابد من العمل الصالح فهو مناط الجزاء عند الله، فالله يصير بما يعمله عباده وسيجازي كلا على قدر عمله.

ويلح عليَّ في هذا المقام الحديث الذي روى عن رسول الله ﷺ حينما توجه بالحديث إلى عمه وابنته قائلًا: «يا عباس بن عبد المطلب أعمل فلن أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لن أغني عنك من الله شيئًا...» هذا ما يطلبه الله من أنبيائه، وما طلبه من داود ليكونوا قدوة لأتباعهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (الآيتان: ١٠، ١١).

فهذه السورة اقتصرت على ذكر فضل الله على داود وبيان بعض معجزاته التي ذكرت من قبل في سورة «ص» ولم تشر إلى حادثة الابتلاء.

في سورة الأنبياء:

ويرد في سورة الأنبياء قصة مشتركة بين داود وسليمان وهي قضية حكم فيها داود بحكم، وحكم سليمان بحكم آخر، كان هو الأفضل والأوفق بفضل تفهيم الله سليمان روح العدل، وسداد الرأي.

وتتلخص القضية في أن رجلين حضرا إلى داود متخاصمين أحدهما له زرع أو كرم عنب، والآخر له غنم، وقد انطلقت الغنم ليلًا، فرعت الزرع أو الكرم، فلم تبق فيه شيئًا، فحكم داود بإعطاء صاحب الزرع أو الكرم الغنم تعويضًا له عما أصابه من ضرر، ولما سمع سليمان الحكم قال لأبيه: غير هذا الحكم أرفق وأوفق، فقال له أبوه: وما هو؟ قال أن يعطى صاحب الغنم الأرض ليحرثها ويزرعها حتى يعود الزرع فيها كما كان فيسلمها لصاحبها، وفي أثناء الحرث والزرع يعطى صاحب الأرض الغنم لينتفع بألبانها وأصوافها إلى أن يتسلم زرعه فيردها إلى صاحبها.

سَرَّ داود بالحكم وأمضاه، يعقب الله بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهذا يدل على أن داود لم يكن مخطئًا في حكمة بل اجتهد فرأى أن الزرع يعادل ثمنه بعد ينعه ثمن الغنم، وهذا عدل، واجتهد سليمان فرأى أن الأرض بقيت لصاحبها، وأضيف إليها الغنم فقد كسب أحد الطرفين وخسر الآخر، ورأى أن إعادة الأمر إلى نصابه يتمثل في أن يجتهد صاحب الغنم في إعادة الزرع إلى ما كان عليه، ويعوض صاحب الأرض عن تأخر كسبه من أرضه بالانتفاع بألبان الغنم وأصوافها.

وبهذا لا يحرم أحدهما حرمانًا تامًا، وهذه رحمة من سليمان، وقد فهمه الله هذا الحكم إرهاصًا بنبوته، كما كان قتل داود جالوت إرهاصًا بنبوة داود، وقد جاء الإرهاص في كل مرة مناسبًا لظروف المرحلة، فداود كان يعيش مع قومه مطرودين من ديارهم يريدون العودة إليها والتخلص من أعدائهم ولا وسيلة لذلك إلا الحرب، فناسب ذلك قتل ملك الأعداء، وأما مرحلة سليمان فهي مرحلة استقرار الحكم، وثبات الدولة يناسب ذلك القدرة على الحكم وعدالة القضاء، وسداد الرأي.

يقول الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾[1] (الآيتان: ٧٨، ٧٩).

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ الذي يدل على أن الله لا يتخلى عن أنبيائه طرفة عين، فهو يراقبهم دائمًا يسدد أحكامهم، ويصوب آرائهم؛ لأن أحكامهم في النهاية منسوبة إلى الله سبحانه، لأنهم يتكلمون عن لسانه، ويترجمون عن إرادته، ولا يعني هذا أن الله لا يشهد كل ما يجرى في الكون، فالله يحيط علمه بكل شيء، وهو عليم بذات الصدور، ولكن هناك فرق بين أن يتدخل الله في حكم ليصوبه ويأتي ببديل عنه، وبين أن يترك البشر يحكمون بما يشاءون صوابًا أو خطأ.

---

(١) الحرث: الزرع أو كرم العنب، نفشت: رعته ليلًا دون راع.

بعد ذلك هذه القصة التي اشترك فيها داود وسليمان ينفرد كل منهما ببيان ما منحه الله من مزايا، فيذكر الله المعجزة التي ذكرت من قبل في السورتين السابقتين وهي تسخير الجبال والطير تسبح معه كلما سبح، ومعجزة أخرى هي تعليمه صنعة الدروع التي يلبسها المقاتلون فتحميهم من ضربات خصومهم المميتة، ولولا هذه الدروع لكثر القتلى من المتحاربين، لذلك يحث الله الناس على شكره على هذه النعمة.

يقول الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1].

ونتدبر قول الله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فيزول عجبنا من أن تسبح الجبال الجامدة، والطيور العجماء، فالله هو الفاعل، فلا يعجزه شيء.

تشترك سورة الأنبياء مع السورتين السابقتين في ذكر تسبيح الجبال والطير مع داود، فالسور الثلاث تذكر ذلك، سورتان تذكر ذلك بلفظ التسخير وهما «الأنبياء» و«ص»، وإن كانت «ص» تنفرد بتحديد الوقت: بالعشي والإشراق، ويأتي ذكر ذلك في سورة سبأ عن طريق أمر الجبال والطير بالتسبيح معه: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ ولا تعارض في ذلك، فالتسخير لا يأتي إلا عن طريق الأمر.

وتشترك سورة الأنبياء مع سورة سبأ في ذكر تعليم داود صناعة الدروع.

---

(١) لبوس: سلاح، لتحصنكم: لتحميكم.

تبين سورة سبأ أن ذلك تم عن طريق إلانة الحديد له أولًا، ثم تفصل طريقة صنع الدروع التي أمره الله بصنعها وهي أن تكون سابغة أي تامة، وأن يكون نسجها محكمًا، وحلقاتها مقدرة ليست واسعة، وليست ضيقة، واكتفت سورة الأنبياء بذكر تعليمه صناعة الدروع، ولم تصفها، ولكنها بينت فائدتها وهي الحماية من القتل، وأما سورة «ص» فقد أغفلت ذكر تعليمه هذه الصنعة، ولكنها انفردت بذكر الفتنة التي ابتلى بها داود في الحكم، كما انفردت الأنبياء بذكر القضية التي حكم فيها داود وسليمان، وفهمها الله سليمان.

في سورة النمل:

ورد ذكر داود وسليمان في هذه السورة ولكن داود لا يذكر عنه إلا إعطاء الله له ولسليمان علمًا وأنهما حمدا الله على ذلك، وأنه فضلهما على كثير من عباده المؤمنين، ثم يحتل سليمان بعد ذلك المساحة كلها.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ (الآية: ١٥).



ب- سليمان عليه السلام

وهو ابن داود، وقد ورثه في ملكه ونبوته، ولا يرد ذكر داود في القرآن إلا ويعقبه ذكر سليمان، وعلى هذا فقد ورد ذكره كأبيه في أربع سوره هي: ص، والنمل، وسبأ، والأنبياء، وعَرَضًا في البقرة.

في سورة «ص»:

وهي أول السور التي ذكرت فيها قصة سليمان في ترتيب النزول، فبعد ذكر الله داود وفضله ومعجزاته، وما فتن به في قضائه أخبر المولى سبحانه أنه وهب لداود سليمان، ونعمت الهبة، فقد كان سليمان كما قال الله عنه: إنه نعم العبد، لكثرة رجوعه إلى الله وعبادته إياه، ثم يذكر الله حادثين وقعا لسليمان: الأول: أنه عرض عليه في وقت العشى مجموعة من الخيل الكريمة فظل يستعرضها – كما يقول المفسرون – حتى غابت الشمس، وفاتته وقت صلاة كان يصليها في هذا الوقت، أو ورد كان يتلوه فغضب وندم، وقال: لقد أحببت هذه الخيل حتى ألهتني عن ذكر ربي، وتوارت الشمس بالحجاب. ردوا الخيل إلى فردوها إليه، فصب عليها جام غضبه، فأخذ يمسح بالسيف أرجلها ورقابها: أي يقطعها حتى قتلها جميعها.

يقول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾[1] (الآيات: ٣٠- ٣٣).

هذه هي القصة التي ذكرها المفسرون[2] ولكني أرى أن التعبير اللغوي لا يحتم هذا الفهم وحده، بل من الممكن أن نفهمها على نحو آخر لا يجافي السياق اللغوي، وذلك أن نقول إن سليمان عرض عليه ذات أصيل مجموعة من الخيل الكريمة، فاستعرضها وهو سعيد بها، ثم قال تعبيرًا عن رضاه: إني أحببت هذه الخيل - التي عبر عنها بالخير، فالخير كما قال الرسول ﷺ معقود بنواصيها الخير - بسبب ما أرشدني إليه ذكر ربي، فلما غابت عن ناظره الخيل وتوارت وراء حجاب حجبها عن ناظره طلب منهم أن يعيدوها إليه، فأعادوها فأخذ يمسح سيقانها ورقابها إعجابًا وتدليلًا.

أرى أن هذا الفهم لا يجافي العبارات القرآنية السابقة، ولا يبعد سليمان كثيرًا عن ذكر الله، فالخيل وسيلة من وسائل الجهاد، وقد ذكرها القرآن الكريم على أنها أهم أسلحة الحرب حينما طلب من رسوله أن يعد لأعداء الدين كل قوة ممكنة وخص منها الخيل فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

---

(١) الصافنات: الخيل الكريمة.

(٢) انظر الزمخشري والقرطبي وغيرهما.

وقد يؤيد هذا الرأي أن الله لم يذكر لفظ الفتنة في السياق كما ذكر مع إلقاء الجسد، وأما على التفسير الأول فكيف نفسر قتل سيلمان للخيل وهي – كما عرفنا – أهم وسائل الجهاد، دون أن يكون لها أدنى ذنب، فالذنب – إن وجد – ذنب سليمان لا ذنبها... والله أعلم.

تشير الآيات بعد ذلك إلى فتنة وقع فيها سليمان، ولم تحددها الآيـة، وإنمـا اكتفت بذكر أن الله فتن سليمان، وألقى على كرسيه جسدًا ثم رجع سليمان إلى ربه واستغفره.

ما حكاية هذا الجسد موضوع الفتنة؟

يروى الزمخشري في تفسيره وجهين لهذا الجسد، الأول: أنه ولد له ابـن، فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك عن السـخرة، فسـبيلنا أن نقتلـه أو نخبلـه فعلم ذلك فكان يغذوه في السحابة، فما راعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتًا فتنبه إلى خطئه في أنه لم يتوكل على الله في ذلك، فاستغفر ربه وتاب إليه.

الثاني: روى عن النبي ﷺ «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امـرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده لـو قـال إن شاء لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون».

ويعلق الزمخشري[1] على هذين الوجهين بقوله: فهذا ونحوه مما لا بـأس

(١) تفسير الكشاف سورة (يس).

به ، ويستنكر الأسطورة المروية عن أن أحد الشياطين سرق خاتم سليمان وملك بدلًا منه قائلًا: لقد أبى العلماء المتقنون قبوله، وقالوا: هذا من أباطيل اليهود.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

(ص: ٣٤- ٣٥).

عندما علم سليمان بخطئه في عدم التوكل على الله، ورأى عاقبة ذلك رجع إليه – فهو نبي صالح لا يخطئ عامدًا، ولا يرتكب كبيرة – وطلب مغفرة الله له، وشفع ذلك بدعاء الله أن يهبه ملكًا لا يكون لأحد بعده، ملكًا متميزًا مخصوصًا بسليمان إذا ذكر عرف بأنه ملك سليمان، ولا أحد غير سليمان.

استجاب الله دعاءه فهو يعلم صدق إيمانه، وإسلامه وجهه لله، فجعل الريح تجرى بأمره لينة سلسة حيث أراد لا تخالف له أمرًا كما جعل الشياطين يأتمرون بأمره من كل بناء يبنى له ما يريد، وغواص يغوص له في البحر يستخرج له ما يشاء، كما أعطاه القدرة على تقييد الشياطين المخالفين والمفسدين بالسلاسل والأصفاد، ويقول الله له: هذا عطاؤنا فامنح منه من تشاء، وامنعه من تشاء بغير خوف من قلة أو فقر، هذا هو الملك المتميز الذي أعطاه الله لسليمان وفوق ذلك خير الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ (الآيات: ٣٦- ٤٠).

في سورة النمل:

بدأ الله آيات سورة النمل – كما ذكرت – بالإخبار عما آتاه داود وسليمان، وأنهما حمدا الله؛ لأنه فضلهما على كثير من عباده المؤمنين، ثم تتحدث الآيات عن أن سليمان ورث داود في نبوته وفي ملكه، وأخذ يخبر الناس متحدثًا بنعمة الله عليه – أن الله علمه لغة الطير فأصبح يفهم ما يقوله – كما سنرى بعد – وأنه آتاه من كل شيء هو وأبوه، ويصف ذلك الفضل من الله بأنه الفضل المبين الواضح الظاهر.

يقول الله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (النمل: ١٦)

وأظن – والله أعلم – أن الضمير «نا» في قوله: «علمنا» و«أوتينا» يعود على سليمان وداود كليهما فداود كان يعلم منطق الطير، فالطير كانت تسبح معه فلابد أن يكون فاهمًا لما تقول، كما أن الله آتاه الكثير من تسخير الجبال والطير وإلانة الحديد.

ثم يذكر الله بعض مشاهد تبين عظمة ملك سليمان، من ضخامة الجيش ونظامه، ومعرفة لغة النمل، فقد رتبت جنوده المؤلفة من الجن والإنس والطير صفوفًا منظمة يجتمع أولها إلى أخرها دون خلل، ولما بلغ واديًا به قدر كبير من النعل – حتى لقد سمى الوادي النمل – قالت رئيسة النمل: يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم وابتعدوا عن طريق سليمان وجيشه حتى لا

تحطمكم أقدامهم وهم لا يشعرون بكم لضآلة حجمكم لا عامدين لإهلاككم.

تبسم سليمان من قول هذه النملة وحرصها على سلامة رعيتها، وزهوا بضخامة جيشه، ومهابته حتى في نفوس هذه الحشرات الصغيرة (ولكن كيف علمت النملة أن هذه الحشود الضخمة هي جنود سليمان، وليست أية حشود بشرية؟ ألهمها الله ذلك معجزة لسليمان).

ثم يأخذ الغرور سليمان على هذه العظمة والجاه الذي يحيط به فهو ليس ملكًا فحسب، بل هو رسول أولًا يعلم أن كل ما يحيط به من أبهة وجلال إنما هو هبة من الله، لا دخل لقوته البشرية فيه، لذلك يتجه إلى الله ضارعًا أن يوفقه أن يشكر نعمته التي أنعم الله بها عليه من فهم لغة الحيوان، وكل هذا الجاه الذي أسبغه عليه ولا يكتفي بالشكر على ما أنعم الله به عليه خاصة، بل يشكره أيضًا على ما أنعم به على والديه من قبله فهو ابن بار بوالديه، وامتداد لهما وكل خير يصل إليهما يصيبه منه نصيب، ولا يقتصر في دعائه على طلب التوفيق للشكر، بل يطلب أيضًا التوفيق للعمل الصالح الذي يرضاه الله، فهو يريد أن يكون شكره لله متصلًا بالعمل الصالح المستمر، ولا ينسى آخرته في دعائه، فهو يدعو الله أن يدخله بفضله وبرحمته في زمرة عباده الصالحين.

يقول الله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾(١) (الآيات: ١٧ - ١٩).

مشهد آخر تصوره الآيات التالية، فقد وصل سليمان إلى مقصده وصفَّ جنده صفوفًا حوله من الجن والإنس والطير، لكل منهم مكانه المحدد فالتفت حوله يراقب صفوفهم فوجد مكان الهدهد خاليًا، فقال غاضبًا: لم لا أرى الهدهد في مكانه؟! إنه لا شك غائب، ثم يصدر حكمه الملكي الحازم: لابد أن أوقع به أشد العقاب، وذكر نوعين لهذا العقاب؛ إما الذبح، ولكن يعفيه من العقاب أن يأتي بحجة قوية واضحة تبرر سبب غيابه، فسليمان عادل لا يوقع العقاب قبل أن يستمع إلى حجة من يوقعه عليه، وهذا العقاب الصارم الذي قرره سليمان إنما ذكره ليكون رادعًا لغيره من الجند فلا ملك بدون نظام وانضباط وحزم.

ويجيء الهدهد فيقف غير بعيد من سليمان، فلا يقف قريبًا قربًا يغري سليمان بالبطش به، ولا يقف بعيدًا يجعل صوته لا يصل إلى سمع سليمان، ويبدأ اعتذاره عن الغياب بخبر يغري السامع بأن يتأنى ليسمع المزيد، قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ (الآية: ٢٣) يا للقدرة الإلهية! هدهد حقير يقول لسليمان النبي الملك لقد علمت ما لم تعلمه، ومن مكنك أيها الهدهد من هذا العلم الذي خفي على نبيك؟ الله سبحانه وتعالى.

---

(١) حشر: جميع. يوزعون: أي يكف بعضهم بعضًا حتى لا تختل صفوفهم.

ثم يفسر قوله بأنه كان في مملكة سبأ باليمن وأتى منها بخبر مؤكد، ما زال الكلام مشوقًا يجعل السامع متلهفًا لسماع بقيته، ثم يأخذ الهدهد في تفصيل النبأ، لقد وجد امرأة تحكم أهل سبأ، وهي واسعة الملك والقدرة، فلديها كل وسائل العظمة والقوة، وقد راع الهدهد العرش العظيم الذي تجلس عليه، فخصه بالذكر، ولكن واأسفاه فإن صاحبة هذا الملك العظيم لا تعبد هي وقومها الله الواحد، بل يعبدون الشمس من دون الله، ويفعلون ذلك لأن الشيطان أغواهم فزين لهم هذه العبادة، ومنعهم من الاهتداء إلى عبادة الله الواحد ذي القدرة الفريدة، فهو يعلم كل ما يخفى في السماوات وفي الأرض، ويعلم ما يخفيه الناس وما يعلنونه، الله الذي لا إله معه ولا إله غيره وهو رب العرش العظيم الذي لا يبانيه عرش غيره مهما بلغت عظمته ولو كان عرش العظيمة ملكة سبأ الذي ملأ صدر الهدهد إعجابًا (ولنتأمل ما يقوله الهدهد لسليمان في وصف عظمة الله وقدرته فهذا هو الإيمان الصادق، وهذا هو التسبيح الذي تسبحه جميع الكائنات الحية ولكن لا نفقه تسبيحها كما يقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ (الإسراء: ٤٤) ولكن فقهه الهدهد بقدرة الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي

وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾

(النمل: ٢٠– ٢٦)

لم يبد سليمان دهشة لدى سماعة هـذا النبـأ، ولم يظهـر للهدهـد أنـه أخـذ كلامه قضية مسلمة، وإنما كان شأنه شأن الملـك الحكـيم الحـازم الـذي لا يغتر بظاهر القول، بل لابد أن يثبت أولًا من صدق ما يسمع ولذا علق على نبأ الهدهد بأنه سيرى أصدق في قولـه أم كـذب، وسـيتأكد مـن ذلـك بالتجربـة العملية.

ثم طلب من الهدهد أن يذهب بكتـاب كتبـه إلـيهم، وأن يلقيـه إلـيهم ثـم ينصرف عنهم حتى يرى كيف سيكون وقعه عليهم، وماذا يكون رد فعلهم (لم يذكر سليمان ما حواه الكتاب – وإنما أخـر القـرآن بيـان ذلـك لتفصـح عنـه الملكة – فيكون فيه تشويق للقارئ وإيجاز في الكلام).

جمعت الملكة مستشاريها، وذكرت لهم قصة الكتاب وما حواه، فقد ألقـى إليها كتاب، لم تذكر مـن ألقـاه، لعلهـا لم تـر الهدهـد حينمـا ألقـاه ولـو رأتـه لحرصت على ذكره لما في ذلك من عجب: هدهد يلقى كتابًا!!.

ثم وصفت لمستشاريها الكتاب بأنه كريم، ومعنى ذلـك أنـه لقـى لـديها

قبولًا حسنًا، ربما لما فطرت عليه من فطرة طيبة مستعدة لقبول الإيمان لـولا البيئة الكافرة المحيطة، كما ستذكر الآيات في نهاية القصـة، ثـم ذكـرت لهـم نص ما في الكتاب وهو البداية أولًا بذكر المرسل وهو سليمان ثـم ببسـم الله الرحمن الرحيم، إعلانًا بأن كاتب الكتاب إنسان مؤمن بالله وبما يتصف به من صـفات الرحمـة، ثـم الطلـب المـوجز الصـريح الجـازم بـأن يكفـوا عـن استكبارهم، ويحضروا إليه مسلمين لله مؤمنين به.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الآيات: ٢٧- ٣١).

أحب أن يلاحظ القارئ الخاصية التي يتميز بها القصص القـرآني وهـي - كما شرحت في سورة يوسف - إيجاز الحذف أي حذف العبارات التـي بـين المشاهد والانتقال إلى المشهد التالي مباشرة. فلم تقل الآيات هنا إن الهدهـد أخذ الكتاب وألقاه في حجرة الملكة أو فـوق عرشـها، وإنمـا ذكـرت إخبـار الملكة بذلك، وهو لون من الإيجاز يجعل القارئ ينتقل بين المشاهد، كأنـه يعيشها.

طلبت الملكة المشورة منهم، فهي ليست ملكة مستبدة برأيها، بـل تشـرك معها كبار قومها، فلا تقضي برأي حتى تعرض الأمر عليهم، وتسـمع رأيهـم

فيه، فوضوا إليها الأمر وقالوا: إننا جندك نتصف بالقوة والبأس الشديد، ونأتمر بأمرك، لا نخالف لك رأيًا، فقدِّري الأمر، ومرينا بما ترين فذكرت رأيها الذي يدل على الحنكة والسداد، والميل إلى السلم، فذكرت أولًا ويلات الحروب، والنزاع مع الملوك فهم لا يدخلون قرية إلا عاثوا فيها فسادًا، وبدلوا حال أهلها فحولوا أعزاءها أذلاء، هذه هي طبيعتهم، ثم اقترحت ثانيًا إرسال هدية إلى سليمان إعلانًا لمسالمتها ونواياها الطيبة تجاهه، وستنتظر نتيجة ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الآيات: ٣٢- ٣٥).

أعجبني حرص الملكة على الشورى، وعلى سماع رأي خلصائها في هذا الموقف الخطير، ولم يعجبني رأي كبار جندها الذين فوضوا إليها الأمر وأعلنوا عجزهم عن المشورة، والرضا بأي أمر تأمر به، هذه الطريقة هي التي تخلق الحكام المستبدين، فحينما يجد الحاكم كل من حوله من كبار حاشيته يحجم عن ذكر رأيه، ويخضع لرأي الحاكم أيًا كان سيرفض الحاكم بعد ذلك قبول أي نصيحة، ويقول لقوله - كما قال فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩).

ذهب الوفد إلى سليمان، وقدموا هداياهم، نظر إليهم سليمان ساخرًا وقال لهم: أتقدمون لي مالًا؟ لقد أعطاني الله خيرًا مما أعطاكم، أعطاني المال الوفير، وسخر لي الرياح والجن، وعلمني لغة الطير والحيوان (لم يذكر القرآن هذا، ولكن الأمر الطبيعي أن يكون سليمان ذكره لإقناعهم بعدم جدوى هداياهم في صرفه عما يريد وهو أن يذعنوا له ويؤمنوا بالله) ثم أخبرهم أنهم وأمثالهم من الحريصين على متع الحياة هم الذين يفرحون بمثل هذه الهدايا.

ثم قال لرئيس الوفد: ارجع إلى قومك وأخبرهم أننا سنرسل إليهم جنودًا لا يستطيعوا مقاومتهم لكثرتهم وشجاعتهم. وأنه سيهزمهم هزيمة منكرة، ويخرجهم من مملكتهم يغشاهم الذل والصغار.

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (النمل: ٣٦- ٣٧).

انصرف الوفد، وأيقن سليمان أن الملكة ستأتيه خاشعة، أو لعلها أرسلت إليه بعد عودة الوفد إليها أنها ستأتيه كي لا ينفذ تهديده، فأراد سليمان أن يقدم لها عند حضورها شيئًا يبهرها، شيئًا لا يقدر بشر على الإتيان به، شيئًا معجزًا، وأي شيء أكثر إبهارًا وإعجازًا من أن يحضر عرشها من بلادها، فيكون في استقبالها لتجلس عليه عند حضورها؟

جمع سليمان كبار حاشيته من الإنس والجن، وسألهم من منكم يستطيع إحضار عرشها قبل أن تأتي هي وقومها مسلمين.

قال مارد من مردة الجن: أنا أحضره إليك قبل أن ينفض مجلسك هذا وكان ينفض عند الظهر، وقال إنه قادر على حمل العرش وإحضاره، وأمين على ما فيه من جواهر كريمة، ولكن يبدو أن سليمان استكثر هذا الوقت فقد كانوا في أول النهار، فانبرى رجل من الإنس، علمه الله علم كتبه المقدسة وأصبح موصولًا بحضرة الله سبحانه، ولابد أن يكون كثير العبادة، قد أخلص قلبه لله فاصطفاه الله، وأمده بروح من عنده، وأحس أن الله لن يخذله فيما يقول، قال: إني أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، وطبيعة العين أنها لا يمكن أن تظل ثابتة، بل تفتح وتغمض، وما بين الفتح والغمض ثوان: أي أنه سيحضره في ثوان، وكطبيعة القرآن لم يذكر أن سليمان وافق وأن الرجل الصالح أحضره كما قال: وإنما انتقل إلى ما حدث، فقد رأى سليمان العرش مستقرًا أمامه هل يمتلك سليمان الأَشَرَ[1] عند هذه اللحظة، ويزهى بقدرته وسطوته؟ لا، بل قال قَوْلَة الأنبياء: هذا من فضل ربي، وأن الرجل الذي أحضره ما هو إلا جندي من جند الله سخره الله لخدمة سليمان نعمة وفضلًا، وأن هذا ما هو إلا اختبار لسليمان اختبره الله به ليرى موقفه أهو الشكر ورد الأمر كله لله؟ أم هو الغرور والبطر؟ ثم يعقب سليمان على هذا بأن الشكر لن ينفع الله، وأن الكفر لن يضره، حاشى لله، وإنما مرد ذلك إلى الإنسان الذي سيجزى الجزاء الحسن على شكره، والعقاب الأليم على كفره، وفي كلتا الحالتين الله غنى عن عباده، كريم يعطيهم ولو أساءوا.

---

(١) الأَشَر: البطر.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾(النمل: ٣٨ - ٤٠).

سؤال يرد على الخاطر: لماذا تعجل سليمان في إحضار العرش والوقت مازال متسعًا، حتى إنه لم يرض بإحضاره في نصف نهار، أظن - والله أعلم - أن الهدف من ذلك هو إظهار مدى القدرة التي يمكن أن يتمتع بها العبد الرباني، فهذا رجل من الإنس يتفوق على عفريت من الجن، كيف؟ لأن عنده علمًا من الكتاب أي أنه عبد رباني كما يقول الحديث القدسي: «وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»[١].

هذا هو العبد الرباني، أفكثير عليه أن يلبي الله طلبه، ويحقق ما تعجز الجن عن تحقيقه!

لم يترك سليمان عرش ملكة سبأ كما هو، بل طلب من أتباعه أن يغيروا

---

(١) مختصر رياض الصالحين ص ٢١.

بعض أوصافه، لكي يختبر ذكاءها، وهل تستطيع التمييز ومعرفة حقيقة العرش على الرغم من تغيير بعض أوصافه، فلما جاءت الملكة ورأت العرش سألها سليمان هل عرشك مثل هذا، فأجابت كأنه هو، لا فرق بينهما، ولم تستطع أن تقول إنه هو كي لا تتهم في عقلها، فكيف أحضر من بلادها البعيدة بمثل هذه السرعة.

يعلق سليمان متحدثًا بنعمة الله عليه: لقد أعطينا العلم اللدني من قبلها، وأسلمنا قبلها لله، وأما هي فقد حجب عنها حقيقة الإيمان عبادتها لغير الله، وأنها كانت من قوم كافرين.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (الآيات: ٤١ – ٤٣).

ولم يكتف سليمان بهذه المعجزة، بل أراد إبهارها مرة أخرى، فطلب منها أن تدخل القصر العظيم الفخم، وكان قد صنع أرضه من بللور صاف لا تشوبه شائبة، وبدا وكأنه ماء يجري، فلما رأت الأرض حسبتها لجة – أي ماء كثيرًا متدفقًا – وأن عليها أن تخوض هذه اللجة، فكشفت عن ساقيها كي لا تبتل ثيابها –فبادرها سليمان قائلًا: إنه قصر مصنوع من الزجاج الصافي وليس هذا ماء بل قوارير – أي زجاج.

بلغ الإبهار بملكة سبأ مداه، فأولًا عرشها بعينه تراه أمامها ولا تستطيع

إعلان ذلك، وآخرًا هذا البللور النقي الذي صنع منه القصر، وخيل إليها أنه ماء متدفق حتى جعلها – وهي المرأة المحتشمة والملكة المهيبة – تكشف عن ساقيها أمام سليمان، لا يمكن أن يكون هذا من صنع بشر، بل إنه من صنع إله قادر هو إله سليمان، فشعرت بأنها – حينما عبدت ما عبدت من آلهة من دونه – قد ظلمت نفسها، وأعلنت إسلامها لله رب العالمين، وخالق الخلق أجمعين مع سليمان (ونلاحظ قولها «مع سليمان» فكأنها تعلن أنها بدخولها الإسلام قد أصبحت ندًا لسليمان، ورفيقة له).

يقول الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ (الآية: ٤٤).

وتنتهي قصة سليمان في سورة النمل، وقد انفردت هذه السورة بذكر معرفة سليمان لغة الطير وأنت بدليل عملي على ذلك هو قصته مع الهدهد، كما انفردت بذكر قصته مع ملكة سبأ، ولم يرد هذان الأمران في سورة أخرى.

وانفردت سورة «ص» بذكر ما فعل سليمان مع جياده، وذكر فتنته بإلقاء الجسد على كوسيه، ولم يرد الأمران أيضًا في سورة أخرى.

ملاحظة: لم يذكر القرآن الكريم في سورة «النمل» اسم ملكة سبأ ولكن المفسرين ذكروا أن اسمها «بلقيس» ولا ينفى التاريخ ذلك، فهي الملكة القوية التي كانت معاصرة لسليمان.

في سورة سبأ:

تفصل سورة «سبأ» بعض ما أجملته سورة «ص» من معجزتي سليمان: تسخير الريح، وتسخير الشياطين له، فالآيات تذكر أن الله سخر له الريح تجرى بأمره ولكنها حددت المدى الذي تسير فيه، وهو شهر في الغدو وشهر في الرواح.

ويقول المفسرون في معنى ذلك: إنها تسير مسيرة شهر في نصف النهار الأول ذاهبة، وتعود به في نصف النهار الثاني، ولا حرج على فضل الله وقدرته ولكني أظن - والله أعلم - أن تسخير الريح المراد به التصرف فيها كيف يشاء من إنزال المطر الناتج عن السحب التي تكونها الرياح، أو منعها إذا شاء، أو تهدئة العواصف إذا ثارت، أو إثارة العواصف كما أراد، وأما جعل الرياح بساطًا يركبه هو وجنده فلم يؤكده شيء من القرآن، وإلى جانب معجزة تسخير الريح أعطاه الله معجزة أخرى هو إذابة النحاس لصياغته كيفما شاء، أو أن الله جعل له عينًا تسيل بالنحاس المذاب ينتفع به كما يشاء، والله أعلم أي ذلك كان، ثم تفصل الآيات بعض ما يصنعه الجن، فذكرت أن بعض الجن قد سخر له بإذن ربه (إذن سليمان لا سيطرة له على الجن، وأن سيطرته نافذة بإرادة الله وحده) هؤلاء الجن يعملون له ما يريده، ومن يخالف فإن الله أعد له نارًا مستعرة يعذب بها في الآخرة، ثم ذكرت أمثلة لما يصنعونه له: من المباني العالية، والتماثيل من نحاس أو زجاج والقصاع الضخمة التي يقدم

فيها الطعام وتشبه في ضخامتها الجوابي وهي الحياض التي يحفظ فيها الماء، والقدور الضخمة التي ترسو في مكانها لا تزحزح لثقل وزنها، فكأنها الجبال الراسيات، ثم يطلب الله من سليمان وآله الذي عبر عنهم بآل داود أن يشكروه بالعمل الصالح المفيد النافع في الدنيا والآخرة، فالعمل والطاعة لله هما عنوان الشكر، ولا يقوى على أدائهما إلا القليل من عباد الله لما فيهما من ثقل التكليف، ومشقة العمل.

يقول الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ[1] ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ: ١٢- ١٣)

ثم تنفرد هذه السورة بذكر الطريقة التي مات بها سليمان وهي معجزة المقصود بها الجن، والهدف منها تبصير أولئك الذين كانوا يعبدون الجن، أو يظنون أنهم يعلمون الغيب بخطئهم، بل كفرهم في اعتقادهم، فالآية تذكر أن سليمان عندما مات لم يعرف الجن بموته لحظتها - وقد كان يجلس في مكان على مرأى منهم ليراقبهم حتى لا يتكاسلوا أو يكفوا عن العمل، وكان - في جلسته - متكئًا على عصا ومضت أيام أو أسابيع أو شهور - الله أعلم بمقدار ذلك - وهو ميت ولا يدري الجن بذلك، وكانت الأرضة وهي حشرة تعيش

---

(١) القطر: النحاس المذاب.

على أكل الخشب تنخر في العصا حتى ضعفت العصا فتكسرت ووقعت فسقط سليمان على الأرض، فلما سقط ورأت الجن ذلك أيقنت أنه ليس بمقدورها معرفة الغيب، وإلا كانت رحمت أنفسها من العذاب المذل الذي كانوا يمارسونه في خدمة سليمان، وخوفًا من بطشه.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ (سبأ: ١٤).

في سورة الأنبياء:

عرفنا في سورة «الأنبياء» أن الآيات بدأت بذكر قضية مشتركة حكم فيها داود بحكم، وحكم سليمان بحكم آخر كان أوفق وأسد فأمضاه أبوه، ثم مضت الآيات تذكر معجزات لكل منهما، وقد مرت بنا معجزات داود، أما معجزات سليمان فهي تسخير الريح العاصفة تجرى بإرادته حتى تستقر بالأرض المباركة أي أرض الشام التي كان فيها حكمة، فيسخرها لما يريده من أغراض، وكان الله سبحانه عالمًا بكل شيء فهو يعلم استحقاق سليمان لما منحه الله من عطايا لما كان يتميز به من إيمان، وعمل صالح.

والمعجزة الأخرى هي تسخير الشياطين له، تغوص في أعماق البحار فتستخرج لها منها ثمين الكنوز، كما يقومون له بأعمال أخرى كالتي ذكرت في سورة «سبأ» من بناء المحاريب، ونحت التماثيل، وصنع قصاع الطعام

الضخمة، وقدور الطبخ الهائلة، وكان الله حافظًا لهم من أن يخالفوا عن أمره، أو يخربوا في مملكته.

يقول الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾(الأنبياء: ٨١- ٨٢).

وقبل أن أنهي قصة سليمان لابد أن أذكر أن إشارة جاءت في سورة البقرة، فقد ذكرت آية أن اليهود الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يعملوا به جعلوا منهجهم اتباع السحر الذي كانت الشياطين تعلمه للناس من عهد سليمان، ثم تنفي الآية عن سليمان تهمة الكفر بسبب ما أشاعه الشياطين ومن سحره، وأن الأعمال الباهرة التي أتى بها بقدرة الله إن هي إلا سحر من سحره، ينفي الله عنه ذلك ويلصقه بالشياطين، فقد كفروا لأنهم يعلمون الناس السحر (أي أن تعليم السحر كفر بالله).

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾(البقرة: ١٠٢).

وهكذا تنتهي قصة سليمان في القرآن الكريم، وإذا تدبرنا السور الأربع التي تناولت قصته وقارنا بينها نجد سورة «ص» انفردت بالصافنات الجياد، وبفتنة الجسد الملقى على كرسيه، وانفردت سورة «النمل» بمعرفته لغة الطير، وبقصة ملكة سبأ، وانفردت سورة «سبأ» بذكر إسالة عين النحاس له، وطريقة موته، واشتركت سور «ص» و«سبأ» و«الأنبياء» في الحديث عن

تسخير الريح له، والشياطين، أما الريح فقد وصفها الله في سورة «ص» بأنها رخاء أي لينة هادئة، وفي سورة «الأنبياء» بأنها عاصفة، فعلم من الوصفين أن الريح بجميع أنواعها تحت أمره، وفي سورة «سبأ» حددت مدى الريح التي يسيطر عليها، فمداها سرعة شهر في الذهاب وشهر في العودة: أي أنها تذهب إلى أماكن يستغرق المسير العادي إليها شهرًا في الذهاب، وشهرًا في العودة، وأظن – والله أعلم – أن الشهر ليس مقصودًا تحديدًا، وإنما هو كناية عن اتساع مداها، وفي سورة «الأنبياء» حددت الآيات أماكن الانتفاع بالريح وهي الأرض المباركة التي يحكمها سليمان.

وأما الشياطين، فقد وردت بهذا الاسم في سورتي «ص» و «الأنبياء»، ووردت باسم الجن في سورة «سبأ» ولا تعارض بين هذه الأسماء فالشياطين من الجن، وذكرت سورة «ص»، و«الأنبياء» الغوص في البحار من عمل الشياطين، وذكرت بإجمال قيامهم بأعمال البناء له ولكن سورة سبأ أغفلت ذكر الغوص، وفصلت القول في أعمال البناء، وأما سورة «النمل» فقد أشارت إشارة عابرة إلى تسخير الجن له، حينما اقترح عفريت من الجن على سليمان أن يأتي له بعرش ملكة سبأ.

وأقف وقفة قصيرة أمام الدروس المستفادة من قصتي داود وسليمان عليهما السلام، وأول درس نأخذه منهما أن كل ابن آدم خطاء، وأنه لا يوجد إنسان كامل مهما علت رتبته في البشرية، ولو كان نبيًا، فالكمال المطلق لله

وحده، فهذان رسولان كريمان اصطفاهما الله، وجعلهما للناس قدوة ومثلًا أعلى، كسائر الأنبياء ومع ذلك وقعا في الخطأ، وكان الله قادرًا على أن يعصمهما منه لو أراد، ولكن هناك فرق بين خطَّاء، فهناك من يقع في الخطأ عن غفلة وجهل، فإذا ما تنبه رجع إلى الله واستغفره كما فعل داود فحينما تنبه إلى معصيته أناب إلى الله وقال: ربي اغفر لي، وهكذا فالوقوع في الخطأ ليس كبيرة، ولكن الاستمرار فيه واستمراره هو الكبيرة وهو الخطيئة، وصدق الله تعالى إذا يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

والدرس الثاني: أن أكثر ما يوقع الإنسان في الضلال، والانحراف هو اتباع الهوى، والميل مع شهوات النفس، فعلى المرء أن يكون حريصًا إذا تعددت أمامه طرق الاختيار، أن يحكم عقله ودينه في اختيار الطريق الذي يرشحانه له.

وثالثًا: أنه لا ينبغي للإنسان أن يحقر رأيًا لإنسان مهما صغر شأنه بل عليه أن يمحصه، ثم يقبله إذا رأى فيه الصواب ولو خالف رأيه، ولا يجعل كبرياءه حائلًا دون قبوله، فقد قبل داود النبي الملك والحكيم رأي ابنه سليمان في قصة الحرث والغنم، ولم تمنعه غضاضة من ذلك.

ورابعًا: ليعرف الإنسان - كل إنسان - مهما بلغ جاهه، واتسع ملكه، وزادت سطوته، وتضخمت ثروته، - أن ما هو فيه من كل ذلك دخل له فيه،

وإنما هو من فضل الله، وأن واجبه الاعتراف بذلك، وشكر الله عليه، وأن يعلم أن الله يبتلى الناس بالخير كما يبتليهم بالشر فهذا سليمان بعد ما تحقق له أعظم نصر أدبي، حينما وجد أمامه عرش ملكة سبأ - يقول: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ (النمل: ٤٠)، ويقول الله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥)، على الإنسان أن يضع هذه الحقيقة نصب عينه، وألا يقول كما قال قارون جهلًا واغترارًا: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِىٓ﴾ (القصص: ٧٨).

وأخيرًا فالإيمان بلا عمل منقوص، والمراد بالعمل كل عمل صالح يقرب من الله سواء أكان لنفع العباد أم كان للعبادة المحضة، وأن مقام النبوة لا يعفى النبي من العمل، فالله تعالى يخاطب داود قائلًا، ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ ويخاطب سليمان قائلًا: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرًا﴾.



١٢- يونس عليه السلام

وهذا نبي لم يطق صبرًا على كفر قومه، وإيذائهم له، ففر من رسالته، فعاقبه الله بأشد ما لقي من قومه، ولولا ضراعته لله، وتسبيحه إياه، لما نجا.

وترد قصة يونس في السور الآتية على حسب ترتيب النزول: القلم، ويونس، والصافات، والأنبياء، وترد بها كلها موجزة، وإن كان بعض الإيجاز أكثر تفصيلًا من بعض كما سنرى.

في سورة «القلم»:

وهي من أوائل السور التي نزلت، فهي السورة الثانية وفيها إشارة إلى يونس جاءت عرضًا في سياق إيذاء المشركين للرسول محمد ﷺ، فهي تدعوه إلى الصبر، وتنهاه أن يكون كصاحب الحوت - وهو يونس - حينما كان في بطن الحوت بعد أن ألتقمه عقابًا له على فراره من أذى قومه، فأخذ يدعو الله، وصدره مملوء غمًا وكربًا، فلولا أن الله تفضل عليه بنعمته ورحمته لطرح في العراء مذمومًا منبوذًا، ولكن لتسبيحه الله الدائم عفا الله عنه واصطفاه ليعود رسولًا إلى قومه، وصار من الصالحين.

يقول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾[1] (القلم: ٤٨- ٥٠)

وقد يخطر على البال سؤال: كيف تكون هذه الآيات أول ما نزل عن يونس؟ وهي لم تذكر اسمه ولا قصته، هل يكون الجواب أن الله أوضح هذه القصة لرسوله وحيًا وإلهامًا ليعلمها هو فيصبر على أذى قومه، ثم بعد ذلك يفصل الله ذكرها لكل قارئ؟ أو يكون الجواب: أن الآيات التي ذكر فيها صاحب الحوت جاءت متأخرة في النزول ثم أضيفت إلى هذه السورة كما ذكرت في المقدمة؟ الله أعلم أي ذلك كان، ولكن الشيء المؤكد أن الرسول عرف طرفًا من قصة يونس مع نزول هذه الآية.

في سورة يونس:

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨﴾ (يونس: ٩٨).

فالآية تشيد بقرية يونس – والمراد قوم يونس الذين يسكنون القرية – لأنهم خالفوا منهج مكذبي الرسل الذين سبقوهم مع رسلهم، إذ يظلون على شركهم حتى يهلكهم الله، ولكن قوم يونس لم يستمروا على تكذيبهم بل آمنوا فكافأهم الله على إيمانهم بأن متعهم بحياتهم حتى حان أجلهم، والآية تنعي على الأمم السابقة أنهم لم يفعلوا مثلما فعل قوم يونس، وفيه حض للأمم التالية أن تسير على نهج قوم يونس.

(١) مكظوم: مملوء غمًا وكربًا.

وأقول ما زال قصة يونس غامضة، وتفسير الغموض يكون بأحد الفرضين اللذين ذكرتهما في سورة القلم.

في سورة الصافات:

ولكن سورة الصافات هي أكثر السور الأربع تفصيلًا فهي تبدأ من البداية فتذكر ذكرًا مؤكدًا أن يونس رسول، وأنه فر من تحمل عبء الرسالة، وركب سفينة مملوءة بالبشر – ولا تقول لماذا فر؟ وأن السفينة – بسبب امتلائها – كادت تغرق – فأجريت القرعة لتخفيف حمولتها بإلقاء فرد منها في الماء (ويبدو أنها كانت سفينة صغيرة حتى أن إلقاء فرد منها في الماء ينقذها من الغرق، وربما يكون الغرض من إلقاء هذا الفرد للتشاؤم منه وبإلقائه يزول النحس في اعتقادهم، وهذا أقرب إلى الصواب في رأيي)، فجاءت القرعة من نصيب يونس – عقابًا من الله له – فألقى في البحر، وكان ينتظره حوت ضخم أعده الله له، فالتقمه الحوت وهو مستحق للوم لعدم صبره على عناد قومه، كما ينبغي لرسول الله.

وواضح أن الله قد جعل الحوت – بقدرته – لا يأكله بل وضعه في ركن من جوفه الضخم، وكان من عادة يونس التسبيح، فأكثر منه، وكان تسبيحه كما أوضحت سورة «الأنبياء»: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الآية: 87)، فلولا أن عادته الإكثار من التسبيح، وأنه لم يكف

عن التسبيح وهو في بطن الحوت، لأصبح بطن الحوت قبرًا له، وظل فيه إلى يوم القيامة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ولنتأمل التعبير بقوله: «أبق» وهو فعل يعني فرار العبد من سيده، وهذا ينطبق على حال يونس، فهو عبد الله، وقد فر منه، ومن تحمل أعباء رسالته.

لطف الله بيونس، فأخرجه من بطن الحوت، لفظه الحوت إلى العراء المحيط بالبحر، وكان مريضًا من بقائه أيامًا في بطن الحوت، فكان من رحمة الله عليه أن أنبت عليه شجرة قرع ذات أوراق عريضة كي تحميه من حر الشمس ولدغ الذباب، وبعد أن تماثل للشفاء أعاد الله إرساله إلى قومه الذين تجاوز عددهم مائة ألف فآمنوا به - بعد أن أدركوا خطأهم - بعد فرار يونس - في عدم الاستجابة له، فمتعهم الله بحياتهم إلى أن حان أجلها.

يقول الله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ (الصافات: ١٤٥- ١٤٨).

هذه هي قصة يونس كاملة أوضحت بعض الغموض في السورتين السابقتين، وإن كان الإيجاز يغلب عليها أيضًا فهي لم تحدد من القوم، ولا أين يقيمون.

يقول المفسرون: إنهم كانوا قومًا يعبدون الأصنام بقرية - نينوى - ببابل، وأن يونس أخذ يدعوهم إلى عبادة الله وحده تسع سنين، حتى ضاق صدره بهم، وأوحى الله إليه أن العذاب واقع بهم بعد ثلاث، فأصروا على كفرهم، ففر منهم يونس، فلما علموا نبأ فراره ندموا على كفرهم، وأزمعوا الإيمان، فلما عاد إليهم آمنوا به[١].

وهناك رأي غريب قاله المرحوم عبد الوهاب النجار[٢] في كتابه «قصص الأنبياء» وهو أن مائة الألف الذين ذهب إليهم يونس بعد نجاته في جوف الحوت قوم آخرون غير أولئك الذين بعث إليهم وأهلكهم الله، واستند في ذلك إلى تنكير «مائة ألف» وذلك يعني أنهم قوم آخرون، ولكن يضعف هذا الرأي ما جاء في سورة يونس من أن قوم يونس لما آمنوا أنقذهم الله من العذاب المهين الذي كان قد أعده لهم لما أصروا على تكذيب يونس، وهذا ينطبق على قوم يونس الذين كذبوه أولًا حتى فر منهم، والتعبير القرآني يتكرر في سورتي يونس والصافات ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ وذلك يدل على أنهم فرقة واحدة، وقد أراد الله بذكر «مائة ألف أو يزيدون» أن يبين كثرة عددهم.

في سورة الأنبياء:

تستعرض الآيات قصص بعض الأنبياء، وما لا قوة من قومهم من أذى وعنت، ثم ذكرت طرفًا من قصة «يونس» ولم تذكر اسمه، وإنما كنت عنه بـ

---

(١) انظر تفسير القرطبي لسورة يونس.

(٢) قصة يونس عليه السلام.

«ذا النون» والنون هو الحوت، كما كنت عنه من قبل في سورة «القلم» وإن كانت ذكرت الحوت بدل النون، وتذكر أنه ترك قومه مغاضبًا لهم، فقد ضاق صدره بكفرهم وعنادهم، وكان في ظنه أن الله سيلتمس له العذر، ويتركه ينطلق إلى الأرض الواسعة، ولكنه فوجئ بإلقائه في البحر، والتقام الحوت له، فعلم أن الله غير راض عنه فقد ضيق عليه أمره بسجنه في هذا الجب المظلم المتمثل في جوف الحوت، فانطلق لسانه بالتسبيح لله المقترن باعترافه بالظلم حينما خالف عن أمر الله، تاركًا تحمل أعباء رسالته التي كلفه الله إياها، وكان يسبح في الظلمات.

قال المفسرون: إنها ظلمات ثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل عندما بدأ يونس تسبيحه فاستجاب الله دعاءه لعلمه بخلوص نيته، وصدق ندمه، فنجاه من الغم الذي عاش فيه في جوف الحوت، مع إحساسه بعدم رضا الله عنه، ويعقب الله على ذلك بمثل هذه الوسيلة التي نجينا بها يونس ننجي كل مؤمن، فالله سبحانه يتوب على كل مؤمن إذا تاب، بل يفرح بتوبته كما ورد في الحديث الشريف.

يقول الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

(الأنبياء: ٨٧-٨٨)

واضح الإيجاز في قصة يونس ففي هذه السورة بل في كل السور التي ذكرت فيها، ولكننا إذا تدبرنا الهدف الذي تركز عليه الآيات عرفنا سر ذلك، فالآيات في سورة الأنبياء تركز على أمرين:

أولهما: أن النبي لا ينبغي له أن ييأس من دعوته اليأس الذي يحمله على ترك قومه ويهرب، قد ييأس النبي من قومه، ولكنه يشكو يأسه إلى الله، أو يدعو على قومه بالهلاك ولكنه لا يفر منهم، وقد حدث هذا من رسل كثيرين كما قال الله عنهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(يوسف: ١١٠)

فالرسول ينبغي أن يثق بنصر الله إما بإيمان قومه، أو بإهلاك الله إياهم.

الأمر الآخر أنه إذا ارتكب الإنسان خطيئة فليفزع إلى الله بالتسبيح والدعاء.

وفي سورة القلم صرحت الآية بالأمر الأول وهو الصبر على أذى الكفار، وكنت عن الأمر الثاني بالنداء أي دعاء الله ليفرج كربه.

وفي سورة الصافات ركزت على الأمر الثاني وهو التسبيح عند الضيق، فهو سبب النجاة من كل شدة، ولولاه لهلك يونس.

وأما في سورة يونس فكان الهدف مختلفًا وهو بيان أن الإيمان ينفع أصحابه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يكشف عنهم عذاب الله المذل، ويتيح لهم فرصة الاستمتاع بالحياة إلى أن يحين أجلهم، وأما في الآخرة فثواب الله العظيم من نصيبهم.

نلاحظ أن السور الثلاث: القلم، والصافات، والأنبياء ذكرت قصة يونس مع الحوت، أوجزتها سورة القلم في كلمتين: كصاحب الحوت، وفصلتها الصافات تفصيلًا أوسع، وفصلتها سورة الأنبياء تفصيلًا أقل، ولكنها سمت الحوت: «النون» وأما سورة يونس فلم تذكر هذه القصة وإنما ذكرت إيمان قوم يونس.

وبعد، فقد انتهت قصة يونس، ولكنها تركت لكل داعية إلى الله زادًا يتزود به كلما أصابه الإحباط من عدم تقبل الناس لوعظه، وانصرافهم، فإذا تذكر قصة يونس أحس بالتفاؤل والأمل.



١٣- إلياس عليه السلام

وهو نبي لم تذكر قصته مع قومه إلا في سورة واحدة هي سورة الصافات، وذكرت بإيجاز، وينسج القصاص حول اسمه وزمنه أساطير لا يعنيني ذكرها هنا، والأرجح أنه أحد أنبياء بني إسرائيل، ولعله المشهور بينهم باسم إيليا.

وتشير الآيات إلى أنه نبي مرسل، أرسل إلى قوم يعبدون صنمًا اسمه «بعل» (وقد سميت باسمه مدينة في لبنان هي بعلبك حيث كان يعبد) فقال لهم: ألا تخافون الله وتتقون عذابه؟ أتعبدون من دون الله هذا الصنم الذي تسمونه بعلًا وتتركون عبادة الله الخالق، الذي لا يمكن لمخلوق أن يصل إلى مستوى خلقه وإبداعه، مهما أتقنوا من صناعتهم، إنه الله ربكم ورب آبائكم منذ خلق الله آدم.

لم يأبهوا لدعوته، بل كذبوه فسوف يلقون عذابًا أليمًا يحضرون إليه قسرًا، ويلقون فيه إلا الذين لم يعبدوا هذا الصنم وعبدوا الله، وقد أخلصهم الله، واختارهم من صفوة خلقه.

ثم تختتم القصة بالآيات المتكررة في هذه السورة مع قصة كل نبي، والتي

تتضمن أن الله ترك له ذكرًا في الذين أتوا بعده، وأن له السلام من الله، وأن الله جازاه هكذا لأنه كان من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (الصافات: ١٢٣ - ١٣٢)

ونلاحظ أن القرآن أضاف إلى اسمه في آخر الآيات ياء ونونًا، وذلك لرعاية الفواصل، فالآيات السابقة مختومة بياء ونون، أو واو ونون، ولا بأس في ذلك فهو اسم أعجمي لا يحمل معنى في العربية، فإلحاق بعض الحروف به لن يضر شيئًا.



١٤- أيوب عليه السلام

وهو مثال للصبر، وقدوة للصابرين في كل زمان ومكان - وردت قصته في سورتين فقط من القرآن الكريم هما «ص، والأنبياء»، ووردت في إيجاز، وهي تدور على معنى واحد هو ابتلاء الله أيوب، وصبره على هذا الابتلاء صبرًا بلغ من ذيوع شهرته أن صار يضرب به المثل، ثم مكافأة الله لهم أعظم مكافأة على هذا الصبر.

في سورة «ص»:

يخاطب الله رسوله محمد ﷺ آمرًا إياه أن يذكر عبده أيوب، كما أمره من قبل أن يذكر عبده داود، وحكى له قصة العبد سليمان، فكل الناس عباد الله، وعلى رأسهم الأنبياء، وفي إضافة الضمير «نا» إلى عبد تكريم لأيوب، - كما كان تكريمًا لداود - ويحدد له وقتًا ذكره فيه وهو وقت دعائه وتضرعه إلى الله أن يصرف عنه كيد الشيطان، فقد أصابه بضر وألم لا يطيقهما، فيطلب الله منه أن يضرب الأرض برجله فيتفجر منها ينبوع ماء بارد، عليه أن يغتسل منه ويشرب، ثم عوضه عما فقد من مال وأهل فأعطاه مثليهما وذلك رحمة من الله

له، وليكون فيه عظة وعبرة لأصحاب العقول الراجحة، فيعرفون أن الصبر على قضاء الله يكافئه الله أحسن مكافأة، ويعوضه خير عوض.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾(١) (ص: ٤١ - ٤٣).

أقف وقفة قصيرة لأدلي ببعض الملاحظات، وأتفهم بعض التعبيرات.

واضح من مفهوم الآيات أن ضرًّا شديدًا أصاب أيوب، وأنه تعرض لكل ألوان المحن، قبل أن يشكو ضره لربه، فالنبي لا يشكو حتى يفيض به الكيل، ويعجز عن التحمل، والآيات تدل على أنه فقد أهله وماله، بالإضافة إلى مرضه العضال.

وأسأل: كيف يقول أيوب لربه: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فينسب للشيطان فعلًا من أفعال الله؟ ربما قال ذلك تأدبًا كي لا ينسب لله فعلًا من أفعال الشر، وربما أراد بذلك أن الشيطان بدأ يوسوس له، ولمن يحيط به من أهله وأصفيائه، قاصدًا حملهم على الكفر بالله، وإذا كان في مقدور أيوب أن يقاوم وسوسة الشيطان له؛ لأنه نبي، فهو يلاقي في مقاومته هذه الوسوسة عنتًا، والعنت الأكبر هو ما يعانيه من إحساسه بأن الشيطان نجح في إغواء بعض المحيطين به، ويكاد ينجح في ضعضعة إيمان امرأته.

---

(١) بنصب: بضر.

سؤال آخر: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾؟ لقد فقد أيوب أهله، أماتهم الله في المحنة، فهل أحياهم الله له بعد موتهم؟ الله قادر على ذلك ما في ذلك شك، ولعل ذلك حدث فعلًا، ولكن ألا نستطيع أن نفهم أن المراد بهبة أهله له أن الله سبحانه عوضه عن فقدهم بأولاد مثلهم، ثم ضاعف له هذا العدد مكافأة وفضلًا؟ التعبير اللغوي لا يأبى ذلك، والله أعلم.

ثم تنتقل الآيات إلى حل مشكلة وقع فيها أيوب، وهو حائر لا يدري ما يفعل، ولم تذكر الآيات المشكلة صراحة، ولكن الحل الذي قدمه الله سبحانه له يشي بهذه المشكلة، فقد استاء أيوب من امرأته حينما شكت له ذات يوم ألمها لما أصابه من مرض، وكيف يحدث له هذا وهو النبي المرسل؟

اشتم أيوب من هذه الشكوى عدم رضا بقضاء الله، واعتراضًا على إرادته، فنذر إن شفاه الله ليضربنها مائة عصا، والآن – وقد شفاه الله – هو حائر: إن نفذ نذره فقد أساء إلى المرأة التي وقفت بجواره تمرضه، وإن لم يف ينكث بوعده لله – فنذره كان لله – فجاءه الحل من الله، وهو أن يأخذ حزمة من الكلأ اليابس، عيدانها بعدد العصى التي نذر أن يضربها إياها وليضربها بهذه الحزمة مرة واحدة، فتبر يمينه، ولا تحس المرأة بأدنى ألم، وقد عقب الله على ذلك بأن هذا الحل قدمه الله لأيوب، لما رآه من صبره وكثرة رجوعه لله، فنعم العبد هو.

يقول الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ

إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[١] (ص: ٤٤).

نلاحظ الإيجاز في القصة، فالله سبحانه لا يذكر التفصيلات وإنما يتركها لفهم القارئ أو توضيح الرسول ﷺ فحينما يتضرع أيوب إلى الله، لا تذكر الآيات أن الله استجاب دعاءه، وقال له .. وإنما تذكر الأمر الإلهي بفعل ما فيه شفاؤه، كذلك حينما تذكر حل المشكلة تكتفي به عن ذكر المشكلة، وتوجز فيه أيضًا، فلا تبين يضرب «من».

درس نستوعبه من المشهد الأخير للقصة، وهو أن اليمين لابد أن يبر بها الحالف مهما كانت الظروف، فقد كان الله قادرًا على أن يقول له: اعف عنها، وسأغفر لك الحنث، ولكنه راد أن يفهم العباد أن ما يقدم لله واجب الوفاء به ولو بطريقة مخففة.

في سورة الأنبياء:

يذكر الله في هذه السورة المشهد نفسه مع حذف بعض المواقف، فقد حذف ذكر (المشكلة التي عانى منها أيوب) وهي نذره بضرب امرأته، وقد اكتفت الآيات بذكر دعاء أيوب ربه لما أصابه الضر، وأضناه المرض وطلب منه رحمته ولكن بطريقة غير مباشرة، وإنما وصف الله سبحانه بأنه أرحم الراحمين، وأرحم الراحمين لا يرضى أن يترك أحد عباده في قبضة الضر، فاستجاب الله له، فأزال عنه الضر - ولم تبين الآيات وسيلة الشفاء كما في

---

(١) ضغثًا: حزمة من حشيش.

سورة «ص»، وأعطاه الله أهله ومثلهم معهم، وذلك رحمة منه، وعظمة وعبرة لمن قلبه متصل بالله دائمًا بالعبادة.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٣- ٨٤)

إلى جانب الفروق التي ذكرتها بين السورتين نلاحظ أن الآيات هنا لم تذكر الشيطان، وإنما جعلت فاعل المس هنا «الضر» بدل «الشيطان» ولا مانع أن يدخل الشيطان ضمن الضر، وكما جعلت الآيات هنا العظة والعبرة للعابدين، وفي سورة «ص» لأولى الألباب - أي العقول الراجحة - ولا تعارض بينهما، بل يفيد ضمنًا: أن العابدين هم أولوا الألباب.

وفي السورتين نلاحظ أن أيوب لم يلجأ إلى الدعاء المباشر، وإنما عرض أمره على الله، وترك له اختيار ما يشاؤه له.

ونلاحظ أن سورة الأنبياء ذكرت مجموعة من الأنبياء في سياق واحد، ركزت فيه على ما مسهم من ضر، وإنجاء الله إياهم، إنجاء إبراهيم من النار، وإنجاء لوط من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وإنجاء نوح ونصره على قومه المكذبين، وإغراقهم، ثم أيوب وأخيرًا يونس ونجاته من بطن الحوت.

فالجو المحيط بقصة أيوب جو ضر ومكابدة ثم فضل الله بالنجاة نستثني من ذلك السياق داود وسليمان اللذين حباهما الله بالمعجزات والخوارق.



١٥، ١٦- زكريا ويحيى عليهما السلام

نبيان من بني إسرائيل، لم يشأ الله أن يذكر في القرآن جهادهما في سبيل الدعوة، وما لقياه من عنت من قومهما في سبيلهما وقد حدث هذا فعلًا، ولكن القرآن يركز على أمر واحد هو شكوى زكريا من العقم، وخوفه أن يموت دون أن يعقب ولدًا، ولا بأس من أن يذكر القرآن بعض المواقف الجانبية من كفالته مريم، ومشاهدة بعض معجزاتها.

وذكرت قصة زكريا وابنه يحيى معًا في سورتين هما: «مريم» وهي مكية، و«آل عمران» وهي مدنية، وذكرت لمحة عابرة عن زكريا ودعائه في سورة الأنبياء.

في سورة مريم:

تبدأ السورة بذكر رحمة الله بعبده زكريا حين دعا زكريا دعاء خفيًا، لا يسمعه أحد غيره؛ لأنه يراه الدعاء المستوفى للخشوع - كما أوصى الله عباده في سورة الأعراب: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الآية: ٥٥) وقد مهد زكريا لدعائه بعرض حاله المستوجبة للرحمة، فقد ضعفت عظامه، وانتشر الشيب

في رأسه كما تنتشر النار في الهشيم، وأنه كان يدعو الله من قبل فلا يخيب دعاؤه، وهو يرجو ألا يخيبه الله هذه المرة.

ثم يذكر أنه يخشى أقاربه أن يرثوا منصبه الديني فينحرفوا به عن طريق الجادة كعادة بني إسرائيل، ثم يبين أن امرأته عاقر لا تلد، وأن سنه كبرت، وجاوزت حدًا لا أمل في الإنجاب فيها، ثم يأخذ في الدعاء الذي يتضمن أن يعطيه الله ابنًا يرث نبوته، وصلاح أجداده من آل يعقوب، وأن يجعله الله مرضيًا عنه منه ومن عباده الصالحين.

يُذَكِّر هذا بقول رسولنا ﷺ: «إذا سألت الله فاسأل الفردوس الأعلى» فلا ينبغي للمؤمن أن يستكثر شيئًا على فضل الله، فزكريا لم يكتف بطلب الولد، بل أراد أن يكون متصفًا بصفات معينة كلها تتصل بالدين، كي يحقق الأمل المرجو فيه.

يقول الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ (مريم: ١ – ٦).

استجاب الله دعاءه، وأوحى إليه بالبشرى: سيرزقه غلامًا، وسيسميه يحيى، وهو اسم لم يسبق لأحد أن سمى به، وعلى الرغم من أن زكريا تضرع

إلى الله أن يرزقه بولد، وكان يأمل أن تجاب دعوته، فإنه لما أجيبت تملكه العجب والدهشة، فكيف يولد له غلام، وامرأته عاقر لا تلد، وقد علت سنة فجاوزت المائة - كم يقول المفسرون - ولكن الله يطمئنه وينبهه إلى الحقيقة التي غفل عنها، إلى قدرة الله، فمثل هذا الأمر هين يسير عند الله، والدليل على ذلك أنه خلقه من قبل ولم يك شيئًا، فالأمر الإلهي إذا صدر لا يعجزه شيء، فلا يزول قلق زكريا ويطلب من الله أن يجعل له علامة إذا ظهرت تأكد من صحة الخبر، فيخبره الله أن العلامة هي أن يعجز عن الكلام ثلاث ليال دون مرض، فخرج من محرابه إلى قومه، فلم يستطع أن يكلمهم، فأشار إليهم أن يؤدوا فرائض ربهم ويسبحوه في الصباح والأصيل كعادتهم.

يقول الله ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١﴾(مريم: ٧- ١١).

كيف يشك زكريا في أمر أوحاه الله إليه؟ الجواب على ذلك أن الأمر - في نظر زكريا - خارج على مألوف العادة بل هو خارق للعادة، وحينما ألقى إليه هذا الخبر أجاب للوهلة الأولى بما أجاب، ولو تأنى ليعمل فكره لأقر بقدرة

الله على كل شيء، ثم هو أمر حبيب إلى نفسه طالما تاق إليه حي يئس من حدوثه، فحينما يخبر بأنه سيحدث، تتزلزل نفسه فرحًا وقلقًا ويريد أن يطمئن من أجل ذلك طلب العلامة المطمئنة، وقد سبق إلى ذلك خليل الله إبراهيم حينما سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فلما قال له: أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي؟ فالنبي بشر فيه مشاعر البشر: قلقهم ومخاوفهم وحبهم.

وكعادة القرآن في حذف بعض الجمل، والانتقال من مشهد إلى مشهد دون أن يأتي بألفاظ تخبر عن ذلك إيجازًا، يخاطب الله يحيى - يحيى إذن قد ولد وكبر (وبلغ مرحلة الصبي) - ويطلب منه أن يأخذ التوراة بقوة، وأن يعمل بما فيها بجد واجتهاد!

ثم يذكر الله مميزات يحيى، فقد أعطاه الله الحكمة، وهو ما زال صبيًا، وجعله رحمة للناس من عنده، وتطهيرًا لهم من المعاصي، وجعله محسنًا لوالديه برًا بهما، وبرأه من الصفات الذميمة، فلم يكن متكبرًا، ولا عاصيًا لربه، ثم يلقى عليه السلام في جميع أطواره فعليه السلام يوم ولد، وعليه السلام يوم يموت، وعليه السلام يوم يبعث مع الخلق يوم القيامة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ (مريم: ١٢ - ١٥)

في سورة آل عمران:

تتناول الآيات في سورة آل عمران دعاء زكريا ربه أن يرزقه ذرية طيبة، واستجابة الله دعاءه، وتبين الآيات المناسبة التي دعا فيها زكريا؛ لأن أمها كانت نذرتها للمعبد، فكان كلما دخل عليها المحراب، وهو المكان الذي تقضى فيه وقتها تصلى وتتعبد، وجد عندها طعامًا وشرابًا لم يحضرهما هو إليها، إذ كان المسئول عن طعامها وشرابها فيسألها من أين لك هذا؟ - فكانت تجيبه: هو من عند الله، فالله يرزق من يريد من عباده رزقًا واسعًا دون محاسبة.

عندئذ استشعر زكريا عظمة الله وقدرته فحيي في نفسه الأمل أن يرزقه الله الولد، كما يرزق مريم، اتجه إلى ربه ضارعًا: يا رب أعطني من عندك ذرية صالحة، فإنك سميع الدعاء، مجيب الداعي، ففوجئ بالملائكة تناديه وهو واقف يصلي في المحراب: أبشر يا زكريا فقد أجيبت دعوتك، والله يبشرك بغلام يولد لك واسمه يحيى، وجعله دليل صدق على ولادة عيسى بن مريم، كلمة الله وروحه وجعله ممنوعًا من النساء، لا يستطيع أن يقرب امرأة، وسيدًا في قومه، ونبيًا من أنبياء الله الصالحين.

يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (آل عمران: ٣٧- ٣٩).

أقف لحظة عند وصف يحيى بأنه حصور، ذكر المفسرون لها معانٍ منها العاجز عن إتيان النساء، ومنها الممتنع بإرادته عن ذلك مع قدرته عليه، وأرى أن المعنى الثاني هو الملائم للسياق؛ لأن فيه معنى الثناء عليه، ولكن المعنى الأول ما فضله فيه؟

تعتري زكريا الدهشة والعجب، فكيف يكون له غلام، وقد شاخ وهرم، وامرأته عاقر لا تلد، فيجاب بأن ذلك أمر الله، والله يفعل ما يشاء، فيسأل الله أن يجعل له علامة يتأكد بها من صحة الخبر، وأن الأمر ليس خيالًا لعب به، فيخبره أن العلامة هي عجزه عن كلام الناسي ثلاثة أيام، إلا عن طريق الإشارة، ويطلب منه أن يذكر ربه كثيرًا في هذه الأيام الثلاثة، ويسبحه في الصباح والمساء.

يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

(آل عمران: ٤٠- ٤١)

تتفق الآيات في- سورة آل عمران، مع آيات سورة مريم في أشياء وتختلف في أشياء، تتفقان في دعاء زكريا ربه أن يرزقه الولد، واستجابة الله له، وتعجب زكريا من ذلك وطلبه علامة يطمئن بها إلى صحة الخبر تدل على تحقق هذه البشارة.

وتنفرد سورة آل عمران بذكر المناسبة التي ورد فيها الدعاء، وتحديد الوسيلة التي اتخذها الله لتبشير زكريا وهي الملائكة، ووصف يحيى بأنه جاء مصدقًا بعيسى كلمة الله يأتي بعده، وأنه لا يستطيع غشيان النساء، وذكر فترة العجز عن الكلام محددة بالأيام، وواضح الهدف من تنويع المدة الزمنية لتكون الفترة ثلاثة أيام بلياليها كاملة.

وتنفرد سورة مريم بذكر سبب حرص زكريا على أن يكون له ولد، وهو خوفه من أقاربه أن يرثوا منصبه فينحرفوا به عن طريق الجادة، وبينما ذكرت سورة آل عمران أن دعاء زكريا كان أن يرزقه الله ذرية طيبة، حددت سورة مريم نوع الذرية: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ وأغفلت سورة مريم ذكر المنادى الذي بشر زكريا، واكتفت بذكر مضمون النداء، وذكرت سورة مريم أن زكريا بعد سماع البشرى خرج على قومه من المحراب فأشار

إليهم أن يسبحوا الله في الصباح والمساء، وأما في سورة آل عمران فقد طلب الله من زكريا أن يذكر ربه كثيرًا، ويسبحه في الصباح والمساء، ومفهوم هذا أن التسبيح مطلوب من الجميع.

ونسأل هنا: أليس الله قد منع زكريا من الكلام فكيف يذكره ويسبحه؟ والجواب: أن العجز مقصور على تكليم الناس بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ ثم تنفرد سورة مريم بخطاب الله يحيى وذكر فضائله.

في سورة الأنبياء:

في هذه السورة لمحة عابرة عن زكريا وشكواها لربه، واستجابة الله دعاءه، وقد جاءت هذه اللمحة بعد ذكر ألوان من المعاناة أوذي بها الأنبياء، ثم صرفها الله عنهم، وأحسن جزاءهم، وكان آخرهم يونس، ثم ذكر الله زكريا حينما دعاه، يرجوه ألا يتركه وحيدًا دون ولد يرثه، ويشد عضده ويؤنس وحدته، مع اعترافه بأن الله سيرث الناس جميعًا من له ولد ومن لا ولد له، فالملك كله لله، دعاءه، وأعطاه ابنه يحيى بعد أن أصلح له زوجه، وجعلها قادرة على الإنجاب، وذلك بسبب دعائهم وعبادتهم لله طمعًا في حسن ثوابه، وخوفًا من أليم عقابه، وكانوا دائمًا يخشون لعظمة الله، وكانوا يتسابقون لفعل الخير.

يقول الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ

كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ (الأنبياء: ٨٩- ٩٠).

وتنتهي بذلك قصة زكريا وابنه يحيى، وهي كما ذكرت - مقتصرة على دعاء زكريا ربه أن يهبه الولد، واستجابة الله له، وبيان فضائل يحيى.

وأرى - والله أعلم - أن التركيز على هذا المعنى - ليبين الله أن ولادة عيسى بغير أب لا تعجز الله، فهذان زوجان لا يستطيعان الإنجاب بكل مقاييس البشر، ومع ذلك ينجبان بقدرة الله، فما الفرق بين ذلك وبين أنثى تنجب من غير أن يتصل بها رجل؟ وإن الفعل في الحالين هو لله، ومقاييس البشر تنكر إمكانية حدوثه، ولكنه يحدث بالقدرة الإلهية، فإذا اتهم كافر مريم في عفتها فماذا يقول في زوج زكريا العقيم العجوز حينما تضع مولودها.

وفي القرآن ما يدل على أن قصة ولادة يحيى إرهاص بميلاد عيسى في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٣٩)، قال المفسرون: إن كلمة الله هي عيسى حيث خلقه بالكلمة «كن» فكيف يكون يحيى مصدقًا بها؟ أليس معناه أن يكون دلل إثبات على إمكانية الميلاد بدون أب؟ إذ يحيى نفسه كأنه مولود بلا أب ولا أم.



١٧، ١٨- مريم وعيسى عليهما السلام

مريم هي أم عيسى، ولا يذكر عيسى إلا مقترنًا بها، «عيسى ابن مريم» ومريم هي الأم المعجزة في تاريخ البشرية، فهي الأم الوحيدة منذ خلق الله الدنيا إلى أن يرثها ومن عليها، التي حملت دون الرجل - والواقع أن حياتها سلسلة من المعجزات سأعرض لها، ومريم لم تكن نبية، وإنما ذكرتها لاتصالها بعيسى عليه السلام.

أولًا: مريم عليها السلام

ذكرت قصة مريم تفصيلًا في سورتين هما مريم، وآل عمران، وورد ذكرها موجزًا وقد كُني عنها بالتي أحصنت فرجها في سورة الأنبياء، كما وصفت بذلك في سورة التحريم، ووردت في «المؤمنون» لمحة عابرة عن عيسى وأمه.

في سورة مريم:

تركز سورة مريم على قصة ولادة مريم لعيسى، فتبدأ الآيات بأمر الرسول ﷺ

أن يذكر في القرآن خبر مريم، عندما ابتعدت عن أهلها ذات يوم، واعتزلت في مكان شرقي الدار، وجعلت بينها وبينهم سترًا، لعلها كانت تفعل أمرًا من خصوصياتها لا تريد أن تطلعهم عليه، ففوجئت ببشر كامل البشرية يقف أمامها - إنه جبريل روح القدس أرسله الله إليها فتمثل لها في صورة بشر - فزعت مريم واستعاذت بالرحمن منه وهي ترجو أن يكون تقيًا، فيستجيب لاستعاذتها، فيجيبها أنه رسول من عند الله ربها الذي تعبده، ليهبها غلامًا طاهرًا نقيًا فقالت - في دهشة وعجب: كيف يكون لي غلام، ولم يتصل بي رجل - زوج - ولم أك زانية، ولا يمكن أن يكون حمل بغير هذين الأمرين - هذا في مقاييس البشر - فيجيبها: إن هذه إرادة الله التي لا يعجزها شيء، ومثل هذا الأمر هين يسير على الله، وقد شاءت إرادة الله ذلك ليكون الولد معجزة للناس، ورحمة من الله، لقد قضى الأمر ولا رجعة فيه.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٢١﴾ (مريم: 16-21).

قضى أمر الله، وحملت مريم، فاضطرت أن تبتعد بحملها عن أهلها عندما

كبر بطنها، وانتحت مكانًا منعزلًا، فلما أحست آلام الوضع لجأت إلى جذع نخلة، وأخذت تقول - والحسرة تملأ نفسها - يا ليتني مت قبل أن أتعرض لهذا الاختبار وأصبحت عدمًا من العدم لا يخطر على بال أحد.

فسمعت من يناديها من مكان منخفض عن المكان الذي تقف فيه - ولعله جبريل - يقول لها: سرى عنك ولا تحزني، لقد جعل الله الماء يتدفق في جدول حولك، وهذه النخلة التي تقفين بجوارها حافلة بالرطب، السهل المنال فهزيها تساقط عليك رطبها، فكلي منها، واشربي من جدول الماء واسعدي بولدك فإذا صادفك أحد من الناس فأشيري إليه بأنك قد نذرت الصوم عن الكلام تقربًا للرحمن، وأنك لن تكلمي اليوم أي أحد من الناس.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ (مريم: ٢٢ - ٢٦)

ذهبت مريم بوليدها إلى قومها تحمله، فاستنكروا ما رأوا، وقالوا لها: لقد فعلت أمرًا عظيمًا منكرًا، لم يكن هذا هو الظن بك يا شبيهة هارون في صلاحه وطهره - كما نظنك كذلك - ولم يكن أبوك معروفًا بالفاحشة والسوء ولم تكن أمك زانية، فكيف فعلت أنت ذلك؟ لم تجبهم بل أشارت إلى وليدها

ليكلموه، فازداد عجبهم فكيف يكلمون طفلًا في المهد؟ ففوجئوا به يجيبهم: إنني عبد الله أعطاني الله كتابًا منزلًا من عنده هو الإنجيل، وعلمني الحكمة وسداد الرأي، وصواب الحكم، وجعلني من أنبيائه (أظن والله أعلم - أن الفعل الماضي هنا بمعنى المضارع أي: سيؤتيني ... إلخ كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ أي سيأتي وذلك لتأكيد حدوث الفعل، وجعلني وسيلة خير ونفع للناس أينما توجهت، وأوصاني بالحرص على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة طوال حياتي، كما جعلني محسنًا لوالدتي وبرًا بها، ولم يجعلني متكبرًا في الأرض، عاصيًا لأوامر ربي، ثم يختم إجابته بالتحية والسلام يأتيانه من الله في كل أطواره: يوم مولده، ويوم موته، ويوم بعثه في يوم القيامة مع الخلق للحساب.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾﴾[1] (مريم: ٢٧ - ٣٣).

---

(١) فريًا: عجيبًا.

أقف وقفة قصيرة لأسجل بعض الملاحظات:

١ - هل كان حمل مريم حملًا عاديًا استغرق تسعة أشهر أو على الأقل ستة أشهر؟

يرى بعض المفسرين ذلك، كما يرى بعضهم أن الحمل والولادة كان في لحظات، ولا أرجح هذا الرأي، فلو كان الأمر كذلك لما ظن قومها أنها حملت به من سفاح وإنما كانوا يظنون أنها وجدته في مكان ما فأحضرته، ولم يصدقوا أنه نبي، أو لو صدقوا أنه ابنها لعلموا أنه معجزة فلم يلوموها بل كرموها، ولما احتاجوا إلى دليل من كلام وليدها، وإنما الشيء الطبيعي أن تكون حملت به حملًا عاديًا، ولاحظت بعض النساء كبر بطنها، وشككن في أمرها أو لم يشككن، ولكنها غابت عنهم بضعة أيام حتى ولدت، ثم عادت إليهن فتحقق شك من شك فيها وعاتبنها على فعلتها.

٢ - مَن هارون هذا؟ هل هو أخوها حقًا؟

يرى المفسرون أنه كان رجلًا صالحًا في زمانها يضرب به المثل في العفة والتقى، فكانوا يشبهونها به، ويرى فريق منهم أن المراد هارون النبي أخو موسى، وأنها أخته أي على دينه وصلاحه.

٣ - أول كلمة نطق بها عيسى: أنه عبد الله، والهدف من ذلك الرد على من يزعمون أنه «ابن الله» بسبب هذا الميلاد المعجز، وسيرد عليهم ذلك في الآية الآتية.

ثم يختم الله قصة مريم في هذه الصورة بالإخبار بأن هذه هي حقيقة عيسى بن مريم، وهي الحقيقة القاطعة التي يتشكك فيها بعض الناس فيزعمون أن عيسى ابن الله – تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا – ولكن فما كان ينبغي لله الواحد الأحد أن يكون له ولد ننزهه عن ذلك – ولكن إرادة الله إذا شاءت أمرًا أنفذته بكلمة واحدة هي «كن» فيكون، وهذا لا ما حدث في شأن عيسى عليه السلام.

يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥﴾

(مريم: ٣٤– ٣٥)

في سورة آل عمران:

وإذا كانت سورة «مريم» فصلت القول في ولادة مريم لعيسى، ولم تذكر بداية مريم فقد تكفلت سورة «آل عمران» بهذا، فقد فصلت القول في بداية مريم منذ أن كانت جنينًا في بطن أمها.

وقد بدأ الله آيات سورة «آل عمران» بالثناء على مجموعة من الأنبياء ذكر أنه اصطفاهم على خلقه وهم آدم، ونوح، وآل إبراهيم، ثم آل عمران أبي مريم، وقد فضلهم الله؛ لأنهم ذرية صالحة يقتدي بعضها في فعل الخير ببعض.

ثم تتطرق الآيات إلى قصة ميلاد مريم، فتذكر أن أمها وهي حامل بها

وهبت ما في بطنها لله يقوم على خدمة المعبد، وينقطع للعبادة، وكان يغلب على ظنها أن المولود سيكون ذكرًا، وسألت الله أن يتقبل منها هذه الهبة، فإنه سميع يسمع دعاء الداعين، عليم بما في نواياهم.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

(آل عمران: ٣٣-٠ ٣٥)

فلما حان موعد وضعها، وضعت أنثى، فتوجهت إلى الله كالمعتذرة قائلة: ﴿ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ والله أعلم بأنها أنثى. وليس الذكر مثل الأنثى، فهو أقوى منها على الخدمة، ولا شيء يعاب عليه في اختلاطه بالرجال مثلما يعاب على الأنثى.

ثم ذكرت أنها أسمتها مريم، وعوذتها بالله هي وذريتها من إغواء الشيطان الرجيم.

تقبل الله هذه الهبة من أم مريم قبولًا حسنًا وكلأ مريم برعايته، وصنعها على عينه، وجعل المسئول عنها نبيه زكريا الذي رأى أولى معجزاتها، فقد كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها الطعام والشراب، فيسألها من أين لها هذا، فتقول: هو رزق من عند الله، الذي يرزق من يشاء من عباده بغير حساب.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الآيتان: ٣٦، ٣٧).

تستطرد الآيات بعد ذلك إلى ذكر دعاء زكريا ربه أن يرزقه الولد كما مر بنا في قصة زكريا، ثم تعود إلى إتمام قصة مريم، فتذكر بمخاطبة الملائكة لمريم ناقلين إليها منحة الله العظيمة لها، ثم يطلبون منها أن تطيع ربها دائمًا، وتسجد له، وتركع مع الراكعين من عباده الصالحين الذين أخلصهم لعبادته.

تستطرد الآيات مرة أخرى إلى ذكر الهدف من حكاية هذه القصة وهو إثبات نبوة محمد ﷺ فهذه الأحاديث من علم الغيب لا يعلمها إلا الله، ولم يكن معهم حينما تنافسوا على كفالة مريم، وألقوا أقلامهم ليقترعوا عليها وأيهم خرج قلمه فهو الفائز بكفالتها، وبلغ الأمر بهم حد التخاصم، حرصًا على أن يفوزوا بهذه الكفالة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الآيات: ٤٢ - ٤٤).

ما سر تنافس كهان بني إسرائيل على كفالةِ مريم؟ لابد أن يكون بسبب ما كان يتمتع به أبواها من صلاح وإخلاص في العبادة، ذاع أمرهما بينهم، وبسبب نذر أمها ابنتها لله، ومع ذلك فقد اتهموها بالفاحشة، وأنكروا أمرها عندما جاءتهم بوليدها، وكان واجبهم - وقد عرفوا صلاحها وسمعوا بمعجزاتها التي عرفها زكريا - ألا يسارعوا إلى اتهامها، ولكنهم بنو إسرائيل.

ثم يُذَكِّر الله ببشارته مريم التي حملتها إليها الملائكة، وهي أنه سيرزقها بمولود يولد بإصدار كلمة الله له «كن» فيكون، ولذلك فهو كلمة الله وسيكون عيسى بن مريم - فالله هو الذي سماه كما سمى يحيى من قبل، ولقبه بالمسيح ومن معانيه كما يقول المفسرون[1] الصِّدِّيق - ثم يصفه الله بأنه سيكون وجيهًا في الدنيا والآخرة أي شريفًا ذا وجاهة وقدر، ومن المقربين عند الله، وسيكلم الناس وهو ما زال في مهده معجزة لك وله، وسيعيش إلى مرحلة الكهولة[2] فيكلم الناس بما يوحى الله إليه، وسيكون من الصالحين.

تفزع مريم فتقول للملائكة المبشرين: كيف يكون لي ولد، ولم يمسسني بشر من الرجال، وهو الطريقة الوحيدة لكي تلد أنثى، فيخبرونها أن هذا أمر الله، وأمره نافذ، فهو يخلق ما يشاء بكلمة واحدة هي «كن» فيكون.

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ

---

(١) انظر تفسير القرطبي.

(٢) تبدأ الكهولة من سن الثلاثين.

ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الآيات: ٤٥- ٤٧).

وأقف عند هذا الحد من الآيات وأترك بقيتها إلى حين الحديث عن عيسى فهي تتصل به وحده.

وإذا أردنا المقارنة بين الأحداث في السورتين نجد - كما قلت - أن سورة مريم ركزت على ولادة عيسى، وسورة آل عمران ركزت على ولادة مريم، ولكن سورة آل عمران أضافت إلى ذلك ذكر البشارة بعيسى، وانفردت بتسمية الله إياه: «المسيح عيسى بن مريم» وأضافت إلى صفاته التي وصف بها نفسه في سورة مريم صفات وصفه الله بها: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ كما أضافت إلى تكليمه الناس في المهد تكليمه إياهم في الكهولة.

في سورة الأنبياء والتحريم:

ذكر الله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩١).

وأما في سورة التحريم، فيضرب بها الله هي وامرأة فرعون مثلًا للمرأة المؤمنة وللمؤمنين عامة في مقابل المثل الذي ضربه للكافرين متمثلًا في امرأة نوح، وامرأة لوط الخائنتين، فيقول عن مريم: إنها أحصنت فرجها أي عَفَّت

نفسها وكان حملها عن طريق النفخ في فرجها - بالنفخ في جيب قميصها الواصل إلى فرجها كما يقول المفسرون[1] وأنها صدقت بكلمات الله أي بوحيه وشرائعه، وكتبه المنزلة وكانت دائمًا من الطائعين لله.

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم: ١٢)

في سورة المؤمنون:

تأتي في السورة لمحة عابرة عن مريم وعيسى ولكن فيها شيء جديد فالله يقول إنه قد جعل مريم وعيسى آية ومعجزة تنبئ الناس عن قدرة الله سبحانه وتعالى حيث ولدت مريم دون أن يمسها رجل، وولد عيسى من غير أب، ثم يذكر أمرًا جديدًا وهو أنه أسكنها في ربوة أي مكان مرتفع، ويتميز بخصوبته دائمًا وحوله ماء جار وذلك ينبت الثمر الطيب، ويكون مكانًا صالحًا للمعيشة، ثم يخاطبهما قائلًا لهم يا أيها الرسل كلوا من الطيبات المحيطة بكم، واعملوا عملًا صالحًا فإني أعلم كل ما تعملون لا يخفى على منكم شيء.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(المؤمنون: ٥٠، ٥١)

---

(١) انظر تفسير القرطبي.

ولي بعض ملاحظات حول هاتين الآيتين:

١ - متى أسكن الله عيسى وأمه هذه الربوة؟ وما تلك الربوة؟

لا يحدد المفسرون زمان هذا الإسكان، ولكن من الواضح أنه في فترة كان فيها عيسى طفلًا كبيرًا جاوز سن الرضاعة بقليل أو كثير، واختلف المفسرون في تحديد المكان، فقيل: بيت المقدس، وقيل غير ذلك، وقال بعضهم: «مصر» وأنا أميل إلى أنها مصر[1] فقد ثبت تاريخيًا أنها حضرت إلى مصر فرارًا بابنها من أعدائه من بني إسرائيل، وكانت تستظل بشجرة تعرف باسمها حتى اليوم.

٢ - ما المراد بقوله: يا أيها الرسل؟

يقول المفسرون: قد يكون المراد دعوة عامة للرسل جميعهم، بأن يحرصوا على أن يكون مطعمهم طيبًا، أو يكون المراد رسولنا محمد ﷺ، وقد يكون المراد عيسى وأمه، وهو الأرجح في رأيي لأنه يناسب المقام هنا فالحديث عنهما.

ولنتأمل حرص القرآن على الدعوة إلى العمل الصالح في أعقاب الحديث عن كل نعمة يوليها الله عباده – كما مر بنا في قصة داود وسليمان، فالشكر لله يتمثل في العمل الصالح الذي ينفع الناس، أو يكون مظهر خشوع لله، وأما مجرد الأقوال فلا تكون الوسيلة الملائمة لشكر الله.

۞۞۞

(١) انظر تفسير القرطبي لهذه الآية.

ثانيًا: عيسى عليه السلام

وأما عيسى عليه السلام، فيأتي الحديث عنه منفردًا حول ما منحه الله من علم وحكمة، وما يَسَّرَه على يديه من معجزات وعن مواقف الحواريين معه، ثم دحض ادعاء اليهود قتله، وتكفير من زعم أنه ابن الله أو شريك له، ويأتي الحديث عن هذه الأمور في سُوَر: آل عمران، والنساء، والصف، والمائدة وكلها سور مدنية، وتأتي لمحة عابرة عنه في سورة الزخرف وهي مكية.

في سورة آل عمران: (٨٩):

بعد أن ذكرت السورة ميلاد أمه، ورضا الله عنها، وتبشير الملائكة إياها بمولد المسيح، ووصفه بالوجاهة، والقرب من الله، وتكليم الناس في المهد، وقد مر ذلك في قصة مريم - تستمر الآيات في ذكر فضائل عيسى فقد علمه الكتابة، والقدرة على إصدار الآراء المناسبة لظروفها، الحاسمة للأمر، كما علمه التوراة - كتاب موسى - وآتاه الإنجيل، وعلمه ما فيه من عظات وعبر ودلائل على وحدانية الله وعظمته، وبعثه رسولًا إلى بني إسرائيل، وأيده بمعجزات تدل على صدق قوله، وهي خلق الروح في الجماد فيتحرك، فقد

كان يشكل لهم من الطير صورة طائر، ثم ينفخ فيه فيصبح طيرًا حقيقيًا بإذن الله – لا بقدرة عيسى – وشفاء الأكمة – أي الذي ولد أعمى ومثل هذا مستحيل شفاؤه – وشفاء الأبرص وقد شفى من تقدم له من هؤلاء.

ومن معجزاته أيضًا إحياء الموتى، فأحيا بعضهم بإذن الله، ومن معجزاته بعض الأمور الغيبية كإخبارهم بما أكلوا وبما سيأكلون وبما في بيوتهم من أشياء يدخرونها، ثم أخبرهم بأن فيما أتى به من معجزات لدليلًا قويًا على صدق رسالته، إن كانت لديهم النية للإيمان بها.

ثم يذكر لهم أنه لم يأت إليهم لكي يلغى أحكام التوراة، بل جاء مصدقًا لها ومقيمًا لأحكامها، وجئت لكي أحل لكم بعض الأطعمة التي حرمها الله عليكم، فقد حرم الله عليهم بعض الأطعمة بسبب ذنوبهم، وقد ورد ذلك في قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[1]

(الأنعام: ١٤٦)

فهذه الآية حرمت على بني إسرائيل أنواعًا من الطعام حددتها بكل ذي ظفر أي ما لم تفرق أصابعه كالإبل والنعام، وشحوم البقر والغنم، واستثنى من

---

(١) هادوا: اليهود، الحوايا: الأمعاء.

كما ورد في سورة النساء قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾(النساء: ١٦٠).

ذلك الشحم الذي تحمله ظهورهما، أو تحمله أمعاؤهما، أو الشحم الذي اختلط بعظم، كما جئتكم بمعجزات من ربكم، فاتقوا الله ربكم وأطيعوني فيما أبلغكم عنه من أوامر ونواه، وإني أومن بأن الله هو ربي وربكم فاعبدوه، وهذا هو الطريق الحق الواضح.

يقول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٤٨ - ٥١)

لم يستجب اليهود لدعوته، وأحس عيسى من سلوكهم وأقوالهم أنهم مصرون على الكفر، فأخذ يحاول أن يجد له مناصرين يؤمنون بدعوته، ويجاهدون في سبيل تمكينها معه، فأجابه الحواريون إلى دعوته، وأعلنوا أنهم سيكونون أنصار الله، وقد آمنوا به وبرسوله عيسى، وقالوا لعيسى: اشهد بأننا مسلمون أسلمنا وجوهنا إلى الله واتبعنا دينه الحق ثم اتجهوا إلى ربهم يشهدونه أيضًا على إيمانهم بما أنزل الله على نبيه عيسى، وأنهم اتبعوا دينه، ويضرعون إليه، أن يسجل أسماءهم في سجل المؤمنين الذين صدقوا رسلهم، وآمنوا بدعوتهم وشهدوا أن الله الحق.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

(آل عمران: ٥٢- ٥٣)

والحواريون كانوا اثني عشر رجلًا، وكانوا يمتهنون مهنة الصيد أو صبغ الثياب، أو بعضهم في هذه، وبعضهم في تلك، وسموا حواريين لأن من معاني الحواري في اللغة النصير[1] وقد قال الرسول ﷺ ما معناه: «لكل نبي حواري، والزبير بن العوام حواريي».

رأي اليهود أمر عيسى يعظم، وخافوا إن تركوه أن يقوض مكانتهم فأخذوا يدبرون له المكايد، ثم وشوا به إلى الحكم الروماني وزعموا أنه خطر على حكمهم، وعلى نظام المجتمع، واستجاب الحاكم لوشايتهم، وأمر بالقبض على عيسى لمحاكمته وقتله، هذا كيدهم ومكرهم، ولكن مكر الله الحكيم القادر كان أعظم فأخبر عيسى أنه سيتوفاه، وسيرفعه إليه، ويبعده عن دنس هؤلاء الكفار، وسيجعل كل من اتبعه أو يتبعه في طريق الله، والإقرار بوحدانيته وربوبيته عالين فوق الكافرين في المكانة والاستقامة، وتأييد الله لهم يوم القيامة.

وفي يوم القيامة يكون مرجع العباد جميعًا إلى الله، فيحكم بينهم فيما كانوا

---

(١) المعجم الوجيز.

يختلفون فيه من الكفر بالله، واتخاذ أرباب معه، أو الإيمان بالله وحده، فأما الكافرون فسيعذبهم الله عذابًا شديدًا في الدنيا بالهزائم التي ستقع عليهم من المؤمنين، وبمحق البركة من حياتهم، وبالهم والضيق والقلق كما نشاهده في كثير ممن رفضوا الإيمان بالله، ومالوا إلى الكفر والإلحاد، وفي الآخرة بنار جهنم، ولن يجد الكافرون لهم نصيرًا من دون الله، وأما المؤمنون فسيجزون الجزاء الأوفى، الجزاء العادل على إيمانهم واستقامتهم لأن الله لا يحب الظالمين.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤ – ٥٧).

ولكن مكر الله لم ينته برفع عيسى بل امتد إلى عقاب أكثر الساعين في إلحاق الشر به، وهو منافق من الحواريين باع نفسه للشيطان، فألقى الله شبه عيسى عليه بعد رفعه، فألقى القبض عليه وصلب وقتل بدل عيسى، لم تذكر الآيات هذا، ولكن الله أشار إليه في موضع آخر – في سورة النساء – دون تفصيل أو ذكر أسماء، كما سيأتي.

وأقف قليلًا لأتأمل قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾(آل عمران: ٥٥) فهل هذا الترتيب هو الذي وقع فعلًا بمعنى أن الله توفى عيسى أولًا ثم رفعه إلى السماء؟ بهذا قال بعض العلماء[1] قالوا توفاه الله لمدة ثلاث ساعات ثم رفعه إليه، وقال جمهور العلماء: إن الترتيب هنا غير مقصود، وإن الواو لمطلق الجمع ولا تفيد الترتيب، وإن الله رفعه أولًا، وإنه سيتوفاه بعد ذلك واستدلوا بالحديث الصحيح الذي يقول: إن المسيح سينزل في آخر الزمان، وإنه سيعيش فيها فترة مجاهدًا في سبيل إعلاء كلمة الله، ثم يتوفاه الله، وليس من الممكن أن يموت الإنسان مرتين. والله أعلم.

ثم يعقب الله على ذكر هذه الأحداث بأنها مما يقصه على نبيه محمد ﷺ من المعجزات الباهرة في القرآن المحكم، ويختم لافتًا نظر من يعجب من أن عيسى ولد من غير أب إلى آدم الذي خلقه من غير أب أو أم: خلقه من تراب، ثم قال له «كن» فصار بشرًا سويًا، فلم العجب من أمر عيسى؟

يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

(آل عمران: ٥٧، ٥٨)

وينتهي الحديث عن عيسى في هذه السورة، ولكن يستمر في مجادلة أتباعه من النصارى، ولكن لهذا حديث آخر.

---

(١) انظر هذه الآراء في تفسير القرطبي لهذه الآية وغيره من التفاسير.

في سورة النساء (٩٢):

ورد الحديث عن عيسى في سياق ذكر الخطايا الكثيرة التي ارتكبها اليهود والتي أدت إلى عقاب الله لهم في الدنيا بتحريم طيبات الطعام التي كانت حلالًا لهم، وفي الآخرة أعد لهم عذابًا أليمًا، ومن هذه الخطايا افتراؤهم الكذب على مريم واتهامها بارتكاب الفاحشة، وادعاؤهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم، والله يعلن – هنا – أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن الله ألقى شبهه على الخائن الذي سعى في قتله – وهو يهوذا الإسخريوطي كما يقول الإنجيل – فأخذ وقتل بدله.

ولقد كان الذين أخذوا شبيهه مختلفين في أمره، وليسوا مستيقنين بأنه عيسى فقد كانوا في شك من الأمر، فقد كان – كما يقول المفسرون – وجهه وجه عيسى وجسمه جسم يهوذًا، ثم إذا كان هو عيسى فأين صاحبهم يهوذا الذي دخل معهم لإحضار عيسى؟ وإذا كان يهوذا فأين ذهب عيسى؟ ولم يكن أمامهم إلا إتباع الظن في هذا – والظن لا يغنى من العلم شيئًا – والحقيقة المؤكدة أنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إليه، والله قادر على ذلك، غالب على أمره، حكم في تصرفه، ثم يذكر الله أنه ليس هناك من أحد من اليهود إلا وتنكشف له حقيقة عيسى فيعلم يقينًا أنه نبي مرسل، وأنه لم يقتل ولم يصلب ولكن هذا يكون، واليهودي في سكرات الموت حينما لا ينفعه إيمانه، وفي يوم القيامة يشهد عيسى على هؤلاء بظلمهم وافترائهم الكذب على الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٥٦ - ١٥٩).

ملاحظات:

١ - واضح أن اليهود لم يقولوا عن عيسى أنه رسول الله كما ذكر في الآية ولكنه وصف الله له لتعظيم جرمهم، أو أن هذا هو اعتقادهم الذي لا يصرحون به ظلمًا وعلوًا.

٢ - هناك رأي آخر في تفسير «قبل موته» يقول: إن المراد موت عيسى، ومعنى الآية أن عيسى سينزل في آخر الزمان فلا يبقى يهودي إلا ويؤمن به قبل موته - أي موت عيسى.

٣ - هل رفع الله عيسى إليه جسدًا وروحًا، أو روحًا فقط؟ على رأى من يقول: إن الله رفعه قبل أن يتوفاه يكون الرفع بالجسد والروح، ومن يقول: إنه توفى قبل رفعه يرى أن روحه هي التي رفعت والله أعلم أي ذلك كان، والله لا يعجزه شيء.

ثم تعود الآيات فتنهي أهل الكتاب - وواضح أنهم النصارى في عهد الرسول ﷺ - أن يتجاوزوا الحد في دينهم، فيقولوا على الله غير الحق،

فيزعموا أنه ثالث ثلاثة، والاثنان الآخران هما عيسى والروح القدس[1]، ويزعموا أن عيسى ابن الله، فما المسيح عيسى بن مريم إلا مخلوق بكلمة الله «كن» فهو كلمة الله ألقيت إلى مريم فحملت به وولدته، بعد أن نفخ الله فيها من روحه - كما فعل مع آدم من قبل - فهو إذن روح من الله، وقد جعله الله رسولًا فعليكم أن تؤمنوا - يا أهل الكتاب بالله الواحد، وبرسله ومنهم عيسى، وكفوا عن ترديد قولكم: إن الإله «ثلاثة» انتهوا عن ذلك يكن خيرًا لكم، الله إله واحد لا شريك له، تنزه عن أن يكون له ولد، وكل ما في السماوات وما في الأرض خاضع لسلطانه، مقر بربوبيته، ويكفي قول الله وشهادته لتقرب ذلك.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[2] (النساء: ١٧١).

ثم تقرر الآيات أن عيسى مقر بربوبية الله، معترف بعبوديته له، لا يجد في ذلك أي غضاضة، أو حطًا من قدره، وليس هو وحده بل الملائكة المقربون - الذين يدعى بعض الناس أنهم بنات الله ويعبدونهم - لا يستكبرون أيضًا

(١) أو مريم كما يفهم من الآيات القرآنية كما سأبين.

(٢) لا تغلوا: تجاوزا الحد.

عن عبادة الله، بل يقرون بخضوعهم، وكل من يرى في عبادة الله حطًا من قدره، ونقصًا في كبريائه نبيًا أو غير نبي، ملكًا أو غير ملك، فمآل الجميع إلى الله سيرجعون إليه، فأما الأنبياء والملائكة والمؤمنون بالله، الذين رضوا بعبادته والخضوع له فسيأخذون أجرهم وافيًا غير منقوص ويزيدون عليه من فضل الله، وأما المستكبرون الذين كفروا بالله واستكبروا عن عبادته فسيعذبهم عذابًا أليمًا، ولن يجدوا لهم ناصرًا ينصرهم من عذاب الله.

يقول الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (الآيتان: ١٧٢ – ١٧٣)

تشترك سورة النساء مع سورة آل عمران في ذكر حادثة الرفع – رفع عيسى إلى السماء – ولكنها تزيد عليها ذكر تفنيد مزاعم اليهود في قتله وصلبه.

كما تشترك معها في ذكر أن مرجع المختلفين في عيسى إلى الله، فيحاسبهم على اعتقادهم، فمن آمن بالله، فمأواه الجنة، ومن كفر به فإلى النار.

وتنفرد سورة آل عمران بذكر معجزات عيسى، وذكر الحواريين وإيمانهم به، وتنفرد سورة النساء بنهي أهل الكتاب عن تجاوز الحد في اعتقادهم بأن عيسى شريك الله وابنه.

في سورة المائدة (١١٢):

وهي من آخر السور نزولًا، وقد جاء الحديث فيها عن عيسى في عدة مواقع، يقرر في بعضها كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وأن الله ثالث ثالثة، ويذكر في موقع آخر إيمان الحواريين بعيسى، وطلبهم منه معجزة خاصة بهم، كما تناولت ذكر المعجزات التي أظهرها الله على يديه، وأبدأ في تفصيل ذلك.

لقد جاء الحكم بتكفير الذين ادعوا أن المسيح هو الله في سياق حِجَاج الرسول لأهل الكتاب حول قضية الألوهية، وقد تكرر ذلك في موقعين:

الأول: في الآية (١٧) التي تقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقد عقب الله على قولهم الكافر، بأن المسيح وأمه ومن في الأرض جميعًا لا يملك أحد أن يحميهم من إهلاك الله إياهم إن أراد ذلك، فالله هو الخالق وهو المميت وله ما في الكون ملكه، ويستطيع أن يخلق ما يشاء مما يعرف الناس وما لا يعرفون؛ لأنه قادر على كل شيء، فهذه هي طبيعة الإله الحق، فهل بإمكان عيسى شيء من ذلك؟ أو هل يستطيع أن يحمي نفسه وأمه من إهلاك الله إياهما إن أراد؟

والموقع الثاني في الآية (٧٢) التي تقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

ويعقب الله بعد حكمه بتكفيرهم في هذه الآية بما يفيد أن الذين يدعون ذلك ينسون شيئًا هامًا وهو أن المسيح حينما جاء يدعو بني إسرائيل إلى الإيمان كان يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾فهو لم يقل لهم اعبدوني لأني أنا الإله، ولم يقل لهم: اعبدوا الله ربكم، بل أضاف عبادة الله إلى نفسه أولًا، فهو يعبد الله الذي يدعوهم إلى عبادته، ثم يزيد على ذلك فيقرر أن الذي يعبد مع الله إلهًا آخر فلن يدخل الجنة أبدًا فهي محرمة عليه، ومأواه النار، ولن يستطيع أحد نصره لأنه ظالم – ظالم لنفسه وللحقيقة – وليس للظالمين أنصار ينصرونهم.

ثم تأتي الآيات التالية (٧٣- ٧٦) فتحكم بكفر فرقة أخرى ادعت أن الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، والروح القدس، أو على حسب تعبيرهم الآن: الأب، والابن، والروح القدس، ثم يختمون قولهم هذا بإضافة: «إله واحد» كيف؟ لا أحد يدري. ثم تجادلهم الآيات في قولهم وتفنده كما سنرى.

تقول الآيات: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (المائدة: ٧٣- ٧٦).

فهذه الآيات بعد أن أصدرت الحكم بكفر الذين زعموا أن الله أحد ثلاثة قررت الحقيقة الواحدة التي لا ريب فيها وهو أنه ليس هناك إلا إله واحد هو الله – سبحانه – ثم هددت هؤلاء الكافرين بأنهم إن لم ينتهوا عن قولهم هذا ليعاقبنهم الله بالعذاب الأليم، وبعد التهديد تحثهم على التوبة واستغفار الله عن هذا الإثم العظيم، وتعدهم بأن الله سيغفر لهم إذا فعلوا ذلك، فالله من صفاته كثرة المغفرة والرحمة للمذنبين.

ثم تقرر حقيقة المسيح وهو أنه رسول كسائر الرسل الماضين الذين أرسلهم الله بدعوة التوحيد إلى قومهم، فجاهدوا في سبيلها ما استطاعوا، وأما أمه فهي صديقة، تصدق دائمًا في قولها، ويُصَدِّق فعلها قولها، هذه هي حقيقتهما، وهي مرتبة عالية في البشرية، بل أعلى درجات البشرية، أما الألوهية فهي لله وحده لا شريك له فيها.

ويجادلهم بطريقة منطقية واضحة: إن عيسى وأمه يمارسان أمام أعين الناس جميعًا عملًا من أعمال البشر، وهو الأكل ولا يستطيعان الاستغناء عنه وإذا كفا عنه ماتا كسائر البشر، بل إن هذا الطعام يخلف فضلات لابد من خروجها من الجسم وإذا حبست فيه مات الإنسان – تعفف القرآن عن ذكر

هذا – فكيف يكون إلهًا من يحتاج جسمه إلى الطعام، وإلى إخراج فضلات من جسمه؟

إن الإله غنى عن كل الاحتياجات، فهذا هو معنى الغنى الكامل، ثم ويُعَجِّب الله نبيه من غياب هذا المنطق الواضح عنهم، فالله يبين لهم الأدلة الناصعة على بشريتهما، ولكن الكافرين ينصبرفون عن هذه الأدلة، ويظلون سادرين في شركهم.

ثم يسألهم الله سؤالًا استنكاريًا عن جدوى عبادتهم للمسيح فهو لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا لأنه بشر مثلهم، فكيف يعبدونه وأمه ويشركانهما في ملكه، بينما الله سميع يسمع دعاءهم مهما خفي، ويعلم أحوالهم فيهيئ لهم ما فيه صلاحهم.

ملاحظات:

١ – عبادة المسيح واعتباره هو الله، أو شريكًا لله وأن الآلهة ثلاثة لم تظهر إلا في مرحلة متأخرة عندما تأثرت المسيحية بعبادة الرومان المتعددة الآلهة وميل الوثنيين إلى عبادة المحسوس المجسد سواء أكان بشرًا أم صنمًا، أما في حياة عيسى والحواريين، فكان المؤمنون يعتبرون عيسى رسولًا من عند الله الواحد، وأما الكافرون به من اليهود فكانوا يعتبرونه كاذبًا وابن سفاح.

٢– من الثلاثة في قوله تعالى: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾؟ يفهم من آيات القرآن أن الثلاثة هم الله – تعالى علوًا كبيرًا عن الشرك – وعيسى وأمه بدليل قوله تعالى

فيما بعد: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وعندما فند دعوى التثليث، أثبت البشرية لعيسى وأمه مريم، وذلك يدل على أنها المعنية بأنها الثالثة، ولعل هذا كان إيمان الْمُثَلِّثِينَ في أول الأمر، ولكن المجامع المسيحية التي اجتمعت بعد ذلك، وجعلت عقيدة التثليث هي أساس العقيدة المسيحية، جعلت الأقانيم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس.

٣- في الآية الأخيرة من هذه الآيات توجيه عام لجميع البشر، وهو أن يعتقدوا اعتقادًا جازمًا أن النافع هو الله، وأن الضار هو الله، وأنه ليس لأحدج من البشر مهما علت منزلته عند الله أن يكون له تأثير على حياة أي فرد نفعًا أو ضرًا، وعلى المؤمن أن يتجه بكليته إلى الله يطلب منه ما يشاء، من خير ويحتمي به مما يخاف من ضر، فهو قريب من كل من يدعوه يسمع ويعلم.

ولكي أجمع المتشابهات معًا أقفز إلى آخر سورة المائدة حيث يقف الخلق جميعًا بين يدي الله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨، ٨٩) يوم يقف الخلائق جميعًا خاشعين خاضعين قد عنت وجوههم للحي القيوم، يوم الحشر، يوم الحساب، فيسأل الله عيسى - بعد أن يعدد له ما أنعم الله به عليه من نعم.

يسأله أمام الجميع - ومنهم من كان يعبده - أأنت طلبت من الناس أن يعبدوك وأمك من دون الله؟ فيرد عيسى خاشعًا: تنزهت ذاتك العلية عن مثل هذا القول، فليس لي أن أقول للناس غير الحقيقة الواحدة المطلوب مني

قولها وهي عبادة الله وحده، وإن كنت قلتها - وحاشاي - فقد علمت قولي، فأنت تعلم ما في نفسي لأنك الله العليم القادر، ولا يمكن أن أعلم ما في نفسك؛ لأني بشر مخلوق عبد لك، ولم أقل لهم إلا الذي أمرتني بقوله: وهو أن يعبدوا الله ربي وربهم، وكنت مطلعًا على أحوالهم طوال حياتي معهم، فلما توفيتني كنت أنت الذي تراقب أفعالهم، فأنت على كل شيء مطلع.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة: ١١٦، ١١٧).

وتأخذ عيسى الرأفة التي طبعه عليها الله فيقول لله في خشوع: إن عذبت هؤلاء المنحرفين عن الحق فليسوا إلا عبادك، وأنت مالك أمرهم تفعل بهم ما تشاء، وإن غفرت لهم ذنوبهم لجهلهم، ولالتباس الأمر عليهم فلن يستطع أحد أن يمنعك، فأنت القادر على كل شيء، الغالب على كل أمر، الحكيم في كل ما يفعل (فنحن نلمس في هذا القول رحمة عيسى بأتباعه، وكأنه رجاء إلى الله أن يغفر لهم، فلم يكن موقفهم مكابرة أو عنادًا، وإنما هو سوء تقدير منهم).

يقول الله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨)

ثم يلتفت الله إلى عيسى – وهو أكثر الرسل اختلافًا في أمره، وافتتان الناس به – مذكرًا إياه بنعمة الله عليه التي تتمثل في تأييده بروح القدس – جبريل – وفي منحة معجزة الكلام في المهد، ليبرئ أمه من كل تهمة، ويثبت قدرة الله، وفي الكهولة يبلغ الناس رسالة ربهم إليهم، وفي تعليمه الكتابة، وسداد الرأي في الأمور، وتعليمه ما في التوراة من مبادئ وتعاليم وإيتائه الإنجيل، وفي تمكينه من تشكيل صور للطير كهيئة الطير الحقيقية بإذن الله، ثم ينفخ فيها فتصير طيرًا بإذن الله، وفي إبرائه الأكمة – الذي ولد أعمى – والأبرص بإذن الله، وفي إحيائه الموتى بإذن الله، وآخر هذه النعم أنه وقاه شر إيذاء بني إسرائيل له، عندما جاءهم بهذه المعجزات، فلم يصدقه الكافرون منهم وقالوا إنها من أمور السحر الظاهرة الواضحة.

يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١١٠).

تتفق المعجزات الواردة في هذه الصورة مع المعجزات الواردة في سورة آل عمران، وتضيف إليها كف أذى بني إسرائيل عنه، ولكنها لم تتناول معجزة

وردت في سورة آل عمران، وهي إخبارهم بما يدخرون في بيوتهم مما لا يطلعون الناس عليه، وبما يأكلون من طعام.

وقد ورد ذكر المعجزات في سورة آل عمران إخبارًا بأحداث ستحدث مستقبلًا دليلًا على صدق نبوة عيسى، وجاء ذكرها في سورة المائدة إخبارًا عن ماض حدثت فيه هذه المعجزات تذكيرًا بنعمة الله على عيسى.

ثم تنتقل الآيات إلى ذكر الحواريين، فيذكر الله أنه أوحى إليهم أن يؤمنوا به وبرسوله عيسى بن مريم، فلم يترددوا في الاستجابة بل أعلنوا إيمانهم وأشهدوا الله على إسلامهم وجوههم لله، وإذعانهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١)

ما المراد بوحي الله إلى الحواريين؟ ربما يكون المراد أن الله ألقى في قلوبهم التصديق بعيسى ورسالته، فآمنوا به، وربما يكون المراد بالوحي دعوة عيسى لهم إلى الإيمان فآمنوا كما جاء في سورة آل عمران: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ٥٢) ولا مانع أن يحدث الأمران.

وهكذا تتفق السورتان: آل عمران والمائدة في ذكر إيمان الحواريين وإن اختلف التعبير عن الأمر في السورتين كما رأينا.

ولكن سورة المائدة تنفرد بذكر شأن من شئون الحواريين لم يذكر في آية

سورة أخرى، هو طلبهم أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء وقد جعلت المائدة اسمًا للسورة - فقد سأل الحواريون عيسى سؤالًا غريبًا: هل يستطع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ دهش عيسى أولًا لصيغة السؤال الذي لا يليق في جانب الله، فالله على كل شيء قدير، ثانيًا: لمضمون السؤال وهو أن ينزل الله عليهم مائدة حافلة بألوان الطعام والشراب من السماء، لذلك أجابهم: اتقوا الله واخشوا غضبه عليكم من جراء مثل هذا السؤال، وذلك إن كان الإيمان قد دخل قلوبكم حقًا، فيجيبونه قائلين: إنهم يريدون أن يأكلوا منها. لعلهم يريدون أن يتذوقوا طعام السماء - وأن تطمئن قلوبهم، ويزداد إيمانهم بالله، ويتأكدوا من صدق رسالة عيسى إليهم، ويشهدوا أمام قومهم بوقوع هذه المعجزة أمامهم.

لم يجد عيسى جدوى في مجادلتهم، فاتجه ضارعًا إلى ربه وربهم أن ينزل عليهم مائدة من السماء تصير معلمًا من معالم النبوة، ومناسبة يحتفلون بذكرى نزولها، ويعتبرونها عيدًا لهم، ولكل من يأتي بعدهم، ومعجزة منك إليَّ وارزقنا بفضلك فإنك خير من يرزق خلقه.

يستجيب الله دعاءه، ويعده بأنه سينزل عليهم هذه المائدة ولكن من يكفر بعد نزولها فسيستحق أشد العذاب (وهذا أمر طبيعي فالذي يكفر بعد رؤية هذا الدليل المحسوس الملموس فهو مكابر معاند) يستحق عذابًا لم يعذبه الله أحدًا من خلقه من قبله، ولن يعذب بمثله أحدًا من بعده.

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

(المائدة: ١١٢- ١١٥).

قد يعجب المرء لأمر هؤلاء الحواريين، كيف بعد إيمانهم الذي أعلنوه صادقين عندما طلب عيسى أنصارًا معه إلى الله، وإشهادهم الله على إسلامهم إليه، كيف بهم يطلبون من عيسى أمرًا مثل هذا لتطمئن قلوبهم، ويتأكدوا من صدقه، ويطلبونه بمثل هذه الصيغة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾؟ أرى أن سر هذا الإلحاح في طلب المعجزات والبراهين أمر طبيعي، فالنفس البشرية لا تطمئن إلا إلى الأمور المحسوسة التي يرونها بأعينهم، ويلمسونها بأيديهم، ولذلك يسعون إلى طلبها حتى يصلوا إلى مرحلة اليقين الكامل في إيمانهم، وقد مرت علينا نماذج حتى من الأنبياء، فإبراهيم يطلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى ليطمئن قلبه، وموسى يطلب من الله أن يجعله ينظر إليه، وقومه قالوا لموسى: أرنا الله جهرة، وزكريا يطلب من الله أن يجعل له آية تدل على صدق ما وعد به من الولد، وهكذا وليس هذا عن ضعف إيمان، أو مكابرة

ولكن سعيًا إلى اليقين، وما ذلك إلا لأن الأوامر التي تصدر عن الله تصدر عن طريق الوحي وهو إما بسماع صوت، أو بإلهام، أو برؤيا، وقد يظن الموحى إليه للحظات نادرة أن الشيطان يتلعب به، ولكنه لا يلبث أن يعرف الحقيقة.

وأما أتباع الأنبياء، فهم يتلقون المعرفة عن طريق النبي وهو بشر مثلهم، ومع إيمانهم بصدقه في كل ما يقول، فهم يريدون أن يستيقنوا.

هذه طبيعة البشر، ولذلك يستعمل القرآن أحيانًا لفظ الظن - وهو رجحان حدوث الأمر - في مواضع اليقين، وربما والله أعلم - ليفيد أن غلبة الظن في الغيبيات تكفى لإيمان المؤمن وتعتبر في مرتبة اليقين، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في قصة قتال جالوت: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾

(البقرة: ٢٤٩).

أعرف أن العلماء يفسرون الظن في مثل هذه الآيات باليقين، ولكنه خاطر خطر لي في فهم مثل هذه الآيات، والله أعلم.

وأما صيغة السؤال: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾؟ ففيه خطآن: الأول: السؤال عن استطاعة الله، والآخر: إضافة ضمير الخطاب المفرد - المقصود به عيسى - إلى رب دون إضافة الضمير «نا» الذي يشملهم مع عيسى، فالجواب في رأيي أنهم لم يقصدوا التحدي، ولا اعتبار الله رب عيسى وحده، وإنما هو مستواهم العقلي فهم صباغون أو صيادوا أسماك.

في سورة الصف:

وقد نزلت قبل سورة المائدة، ولكني قدمت المائدة لأنها تناولت أحداثًا كثيرة تتصل بعيسى، بينما سورة الصف تناولت أحداثًا أقل، فعيسى يبلغ بني إسرائيل أنه رسول لهم من عند الله، وأنه لم يجيء ليبطل حكم التوراة، بل جاء مصدقًا لما فيها، ثم ينهي إليهم أمرًا آخر، أمرًا لم يذكر في أية سورة أخرى، وهو البشرى بمجيء رسول يأتي من بعد عيسى، ويحدد لهم اسمه، فاسمه «أحمد» رسولنا ﷺ الذي جاء بعده بحوالي ستمائة عام، ثم أظهر لهم المعجزات التي أمده الله بها دليلًا على صدقه، فاتهموه بأن ما جاء به سحر بين ظاهر.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف: ٦).

يعلق الله على موقف بني إسرائيل هذا بأنه أشد الظلم، فليس هناك ظلم أشد من افتراء الكذب على الله، وادعاء أن ما جاء به رسوله سحر بينما هو يدعوهم إلى الدين الحق إلى أن يسلموا وجوههم لله وينقادوا له، لذلك لا يهديهم الله أبدًا لأن الله لا يهدي القوم الظالمين.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الصف: ٧).

ثم يذكر الله في آخر السورة موقفًا للحواريين – سبق ذكره في آل عمران – وجاء ذلك في سياق دعوة المؤمنين بمحمدﷺ أن يكونوا أنصار الله ومؤيديه، كما فعل الحواريون مع عيسى عندما سأل المحيطين به من بني إسرائيل من يؤيدني في دعوتي إلى الله، فبادر الحواريون بالإجابة: نحن نؤيدك ونحن أنصار الله، وكانت النتيجة إيمان طائفة من بني إسرائيل بعيسى عبد الله ورسوله بسبب جهاد الحواريين، وظلت طائفة على كفرها، أو كفرت بادعائها أن عيسى ابن الله، أو شريكه، فأيد الله المؤمنين على أعدائهم، وجعلهم المنتصرين الغالبين.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾(الصف: ١٤)

فهذا المشهد – مع أنه ذكر في سورة آل عمران – فإنه فيه إضافة جديدة هي انقسام بني إسرائيل طائفتين: طائفة مؤمنة، وأخرى كافرة وأن الله نصر المؤمنين على الكافرين.

في سورة الزخرف:

وهي سورة مكية وكان حقها أن تقدم لنزولها قبل السور الأربعة السابقة ولكني آثرت تأخيرها لأنه ليس فيها إلا لمحة عابرة عن عيسى، والسياق كله جدال مع مشركي قريش، فعندما أنزل الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٨)

وكان يعيش بينهم نصارى يعتبرون عيسى إلهًا لهم ضجوا ضاحكين مهللين، وظنوا أنهم وضعوا الرسول ﷺ في مأزق فقد سألوه: هل كل ما يعبد من دون الله حصب جهنم؟ قال نعم، قالوا: فالملائكة يعبدون من دون الله، وعيسى بن مريم يعبده النصارى، أفهؤلاء جميعًا في جهنم؟ فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠١)

كي تنقطع حجة أي مجادل معاند على أن التعبير القرآني لا يحتم دخول عيسى أو غيره من المعبودين العقلاء تحت هذا الحكم، فقد يكون المراد بـ «ما» هنا معناها الأصلي أي لغير العاقل فلا يدخل فيهم عيسى، وقالوا لرسولنا ﷺ: أآلهتنا خير أم هو؟ أي إن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينًا[1].

ثم يعلق الله على قولهم هذا بأنهم لم يقولوه إلا حبًا في الجدال، فهم قوم قد طبعوا على ذلك، ثم يبين الله سبحانه حقيقة عيسى وهي أنه عبد من عباد الله من بني إسرائيل أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله قدوة ومثلًا أعلى لبني إسرائيل، يتأسون به، فإذا انحرف بعضهم وعبدوه فلا ذنب لعيسى في هذا.

ولو شاء الله لأنزل ملائكة في الأرض يكونون خلفاء له، فلا يعصونه في أمر ويفعلون ما يؤمرون، هذا أمر هين على الله فعله.

---

(١) انظر تفسير الزمخشري لهذه الآيات في الكشاف.

ثم يعود الله إلى عيسى فيبين أن نزوله آخر الزمان يكون علامة لقرب يوم القيامة، وإن هذا اليوم آت لا ريب فيه، فلا يتشككن أحد فيه ثم يدعو الرسول ﷺ مشركي مكة أن يتبعوا طريقته فهي الطريقة المستقيمة الواضحة، وألا يتبعوا الشيطان فيصدهم عنها، فالشيطان عدو مبين للإنسان منذ وجد.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1]

(الزخرف: ٥٧- ٦٢).

ثم تتناول الآيات موقف بني إسرائيل من عيسى لما جاءهم بآيات الله البينات، ومعجزاته الباهرات، بين لهم هدف رسالته وهو أمران: أحدهما: أنه أتاهم بالحكمة التي تنير طريقهم، وتسدد أمورهم وأحكامهم في كل شيء، والآخر: أنه جاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه، وهو خلافاتهم في أمور الدين مما أنزل في التوراة ودعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وأن يؤمنوا بأن الله هو رب عيسى، وربهم، وعليهم أن يعبدوه حق عبادته، وإن هذا الاعتقاد هو الطريق الحق الذي لا التواء فيه.

---

(١) يصدون: يضحكون.

ومع هذه الدعوة المستقيمة التي لا التواء فيها، الواضحة التي لا غموض فيها اختلفت جماعات بني إسرائيل زمن عيسى، فبعضهم آمن به، وبعضهم حاربه، وحاول قتله، وبعد عيسى بعضهم ظل على اعتقاده أنه عبد الله ورسوله، وبعضهم قال: إنه الله أو ابن الله، فهم بذلك ظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة فحقت عليهم كلمة العذاب يوم القيامة، وعذابه عذاب أليم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف: ٦٣- ٦٤).

ونلاحظ أن هذه السورة تناولت مسيرة عيسى من زاوية مختلفة وهي الجدال الذي كان محتدمًا في الجزيرة العربية أيام مبعث الرسول ﷺ، وإبان دعوته الكفار إلى نبذ عبادة غير الله، ونفي القرآن أن تكون عبادة بعض النصارى لعيسى سببًا في تعذيبه، أو الحط من قدره.

وتشترك آيات هذه السورة مع سورة مريم وسورة آل عمران في أن من أهداف رسالة عيسى بيان ما يختلف فيه بنو إسرائيل من أحكام التوراة، وتوضيح الحكم الإلهي الصحيح.

كما تشترك السور الثلاث في الإقرار بربوبية الله لعيسى وبني إسرائيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ مريم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ آل عمران، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ الزخرف، وهذا التكرار

لترسيخ هذه الفكرة في عقول الناس كي لا يضلوا؛ لعلم الله سبحانه بانحراف بعض الناس فيما بعد إلى تأليه عيسى.

كما تشترك السور الثلاث في ختم هذا الإقرار بعبارة «هذا صراط مستقيم».

وبهذه السورة تنتهي قصة عيسى في القرآن الكريم، وبانتهائها تنتهي قصص الأنبياء في القرآن الكريم، وتبقى مسيرة محمد ﷺ، وأرجو أن يعينني الله لأفرد لها كتابًا خاصًا.

إحصائية:

ذكر الله في القرآن خمسة وعشرين رسولًا، أورد لستة عشر منهم سيرًا مستقلة، وهم: آدم، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، يوسف، شعيب، موسى، داود، سليمان، إلياس، أيوب، يونس، زكريا ، عيسى، وذكر أربعة مشاركين لنبي آخر في بعض عمله، أو في سير أحداث سيرته وهم: إسماعيل، ويعقوب، وهارون، ويحيى.

وأشاد بذكر نبي بوصفه بالتصديق والنبوة، وبذكر مكانته العلية عند الله وهو إدريس، يقول الله عنه:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٦، ٥٧) ولم يذكر شيئًا من سيرته.

وورد اسم إسحاق مقرونًا بالبشرى التي بشر الله بها أباه إبراهيم، وذكر

اسمًا رسولين دون إضافة أي شيء إليهما، وهما: اليسع، وذو الكفل، وأما الرسول الخامس والعشرون وهو محمد ﷺ فسيرته تستحق أن يفرد لها كتاب.

ومن بين الرسل الستة عشر ستة رسل اقتصرت سيرتهم في القرآن على جهادهم في سبيل الدعوة، وذكر ما لا قوة من عنت من قومهم، وإهلاك الله المكذبين من قومهم، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وإلياس.

وثلاثة رسل ذكر في سيرتهم - إلى جانب جهادهم في سبيل الدعوة - أحداث أخرى وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى.

وسبعة رسل لم يتعرض القرآن لجهادهم في سبيل دعوة قومهم إلى الإيمان بالله، وإنما ركز على جوانب أخرى بينتها في قصصهم وهم: آدم، ويوسف، وداود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويونس.

والآن إلى قصص غير الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم.



ثانيًا: قصص غير الأنبياء

تناول القرآن الكريم سرد بعض القصص التي لا تختص بنبي من الأنبياء، وإنما تعبر عن معنى من معاني الفضيلة، أو معنى من معاني الرذيلة ولذلك لم يهتم القرآن بذكر أسماء أبطال هذه القصص - إذا استثنينا ثلاث قصص فقط ذكر اسم أبطالها وهم: قارون، ولقمان، وذو القرنين.

وإذا أمعنا النظر في هذه القصص الاثنتي عشرة التي وردت في القرآن نجد أن بعضها يتشابه في مدلوله مع بعض القصص الأخرى لذلك سأقرن القصص المتشابهة بعضها ببعض، وأضعها تحت عنوان يعبر عن معناها.

فهناك قصص تندرج تحت معنى التضحية والاستشهاد في سبيل الدين مثل قصتي أصحاب الأخدود، وأصحاب القرية، وقصص تندرج تحت معنى الاغترار بالمال، وبطر النعمة، وهي قصص قارون، وسبأ، وأصحاب الجنة، وصاحب الجنتين، وقصتان تتناولان قضية البعث وإمكان حدوثه، وهما قصة أصحاب الكهف وقصة الرجل الذي مر على القرية الخاوية على عروشها.

تبقى أربع قصص تستقل بمعنى وحدها وهي: الارتداد عن الدين في قصة

الذي انسلخ عن آيات ربه، والحكمة في قصة لقمان، والحسد في قصة وبنه آدم، والعلم والقوة في قصة ذي القرنين.

(أ) قصص التضحية والاستشهاد في سبيل الدين:

١- قصة أصحاب الأخدود:

وقد وردت هذه القصة في سورة البروج (٢٧) وذكرت بإيجاز شديد فقد بدأت السورة بالقسم بالسماء ذات البروج الاثنتي عشرة المعروفة، واليوم الموعود وهو يوم القيامة، وبمن يشهده من الخلائق، وما يشهد فيه من العجائب - وجواب القسم هو: قتل أصحاب الأخدود، أي لعنوا، وتعبير «قتل فلان» معهود في الذم واللعن كما قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (عبس: ١٧)، فالله يؤكد بالقسم أن هؤلاء القوم ملعونون، ومن هم؟ إنهم أصحاب الأخدود (والأخدود شق طويل في الأرض، وقد شقه هؤلاء القوم) وملئوه نارًا متقدة ذات لهب وجلسوا حوله يلقون فيه المؤمنين، ويشهدون تعذيبهم فيه، وما ذنب هؤلاء المؤمنين؟ ليس لهم ذنب في رأي هؤلاء الكفار - إلا إيمانهم بالله العزيز - الغالب - الحميد - المستحق لكل حمد وثناء - الذي له ملك السماوات والأرض، يسيطر على كل شيء فيهما، وهو عالم بكل شيء، يشهد كل ما يجرى في ملكوته، ثم يتوعد هؤلاء الكاذبين الذين يعذبون المؤمنين، ويصرفونهم عنه بالقوة إذا استمروا على عملهم الإجرامي ولم يتوبوا عنه بأنه سيعذبهم بنفس عذابهم

الذي عذبوا المؤمنين به، فيدخلهم نار جهنم، يعذبون بنارها المحرقة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾(البروج: ١ – ١٠)

فهذه الآيات موجزة أشد الإيجاز، فلم تبين من هم أصحاب الأخدود، ولا في أي زمان كانوا، لأن هدفها أمر واحد هو تثبيت قلوب المؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ، وقد كان يعذبهم كفار مكة أشد عذاب، فيبين الله لهم أن المؤمنين قبلهم عذبوا وصبروا، وأن معذبيهم قد أعد الله لهم عذاب جهنم، وعذاب الحريق بها، وأما هم فلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾(البروج: ١١).

ونلاحظ كثرة الصفات التي تدل على القدرة بعد لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البروج: ٧، ٨)، وذلك ليؤكد قدرته على الانتقام من هؤلاء الظالمين، كما نلاحظ هذه الجملة الاعتراضية – ثم لم يتوبوا – التي تدل على أن الله يفسح لهؤلاء الظالمين في مغفرته إذا تابوا ليحثهم على العودة إلى الإيمان والعمل

الصالح، فالله لا يعذب عباده حبًا في تعذيبهم، بل هو حريص أن يعودوا إليه جميعًا مهما سبق من ظلمهم، وسيقبلهم في توبته؛ لأنه يحب التوابين كما قال.

وقد يلقى الضوء على قصة أصحاب الأخدود أن نذكر المناسبة التي حدثت فيها هذه الحادثة، فقد ذكرت كتب التفسير[١] أنه روى عن النبي ﷺ قال: «كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم إليه غلامًا ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه، فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس فأخذ حجرًا فقال: (اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها) فقتلها فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمة والأبرص ويشفى من الأدواء وعَمِيَ جليس الملك فأبرأه فأبصر الملك، فقال من رد إليك بصرك، فقال ربي، فغضب فعذبه، فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فَقُدَّ بالمنشار، وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليُطْرَحَ من ذروته، فدعا فرجف الجبل بالقوم فطاحوا ونجاء، فذهب به إلى قرقود[٢] فلجوا به ليغرقوا، فدعا فانكفأتا بهم السفينة فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي، وتقول باسم الله رب الغلام، وترميني به، فرماه فوقع في صدغه فوضع عليه يده ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل

---

(١) انظر تفسير الزمخشري والقرطبي وغيرهما في تفسير هذه الآيات.

(٢) قرقود: سفينة صغيرة.

للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديد في أفواه السكك، وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرح فيها».

فهذا الحديث يكشف سبب شق هذه الأخاديد الملتهبة، وإلقاء الناس فيها، وإقبال الناس عليها مضحين بأرواحهم غير آبهين بالعذاب في سبيل حماية عقيدتهم، وهكذا الإيمان لا يدخل قلبًا، ويترسخ فيه إلا هان أمام المؤمن كل عذاب في هذه الدنيا مهما بلغت شدته، وهذا هو الإيمان الصادق، أما المؤمن الذي ينكص على عقبيه أمام أول محنة، فإيمانه منقوص.

والمحن للمؤمن هي المختبر الذي يختبر فيه إيمانه، ولذا نجد المعنى اللغوي الأول «لفتن» اختبر الذهب بالنار والله سبحانه ينبه المؤمنين إلى أن تعرضهم للفتنة عن دينهم أمر وارد.

يقول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

(العنكبوت: ٢، ٣).

٢- أصحاب القرية:

وهذا مثل آخر ضربة الله لطغيان الطغاة واستكبارهم على الحق، واستعلائهم على الله، كما ضربه لثبات المؤمن على الحق، وصبره على التعذيب والموت، وقد ورد هذا المثل في سورة «يس» (٤١).

يأمر الله رسوله أن يضرب للمشركين من أهل مكة المكذبين بدعوته مثلًا هذا المثل هو أصحاب القرية، ما هذه القرية ومن أصحابها؟ لم يهتم القرآن بذكره؛ لأن المثل مضروب للعظمة والعبرة، فلا قيمة لتحديد أماكن أو أشخاص – هذه القرية أرسل الله إلى أصحابها رسولين فكذبوهما – كعادة الطغاة – فأيد الله الرسولين برسول ثالث، وقال هؤلاء الثلاثة لأهل القرية: إننا رسل الله إليكم، فكان جوابهم التكذيب، فالله – في اعتقادهم الجاهل – لا يرسل بشرًا يتكلمون باسمه، وهؤلاء المدعون للرسالة ما هم إلا بشرًا يتكلمون باسمه، وهؤلاء المدعون للرسالة ما هم إلا بشرًا مثلهم، وبعد أن ينفوا أنهم رسل الله، ينفون أن الله أنزل شيئًا على أحد خلقه، وأن هؤلاء الناس ليسوا إلا كاذبين، فلا يملك الرسل إلا إن يؤكدوا لهم أنهم رسل الله إليهم، والله يعلم هذه الحقيقة المؤكدة، وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالته بطريقة واضحة لا لبس فيها.

ضاق صدر الكفار بإلحاح الرسل، ولا يملك الكفار حجة يقارعونهم بها فيلجئون إلى حجة العاجز، وهو ذمهم وتهديدهم، فيقولون لهم: لقد تشاءمنا بكم، وإن لم تكفوا عن أقوالكم هذه نرجمكم بالحجارة حتى الموت أو يصيبكم عذاب أليم منا، قال لهم الرسل: إن تشاؤمكم لا محل له؛ لأن الخير والشر يصيبان الإنسان بسبب ما قدمت يداه من خير أو شر – فطائركم – أي مصدر ما يصيبكم – معكم أنتم ولسنا سببًا فيه، ثم ما هذا التعذيب الذي تهددوننا به – من رجم وعذاب أليم؟ أكل هذا لأننا ذكرناكم بما يجب عليكم

تلقاء خالقكم من إيمان به وحده؟ لا، بل أنتم قو مجاوزون لكل حد في ضلالكم وطغيانكم.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (يس: ١٣ - ١٩).

سمع بهذا الخبر - خبر مجيء الرسل وتكذيب أهل القرية لهم - رجل يعيش في أبعد أطراف القرية عن مجتمع القوم ولعله كان قد تأمل ما جاء به الرسل، وصدق به قلبه، فلما عرف لجاجة قومه وتكذيبهم للرسل رأى من واجبه أن يعظهم - مما كلفه ذلك من مشقة الانتقال إليهم، وتعرضه لتكذيبهم وإيذائهم، ولكن المؤمن الصادق لا يأبه لمثل هذه الأمور، ذهب إليهم، ودعاهم إلى اتباع الرسل فيما جاءوا به، وبرهن لهم على صدق هؤلاء الرسل بأنهم لا يطلبون منهم أجرًا على دعوتهم، ثم إن سيرتهم فيهم تبين طريقتهم المثلى التي يتبعونها في سلوكهم فما الذي يحملهم على الكذب عليهم، وهم لن ينالوا منهم أجرًا، وطريقتهم في الحياة حميدة.

ثم يعلن أمام القوم إيمانه بهذه الدعوة ويبدو أن أحدًا عارضه في إيمانهم

مبينًا له سفه رأيه – وهذا أمر طبيعي – أو قد يكون أراد أن يقطع عليهم طريق الاعتراض، فسألهم سؤالًا تعجبيًا، ولماذا لا أعبد الذي خلقني، وركب فيَّ فطرة سليمة تدعوني إلى الإيمان به، ومرجعنا جميعًا إليه ليحاسبنا على إيماننا أو كفرنا، ولا مفر لنا جميعًا من هذه المواجهة، ثم يعرض أمامهم البديل للإيمان عرضًا يجعل كل ذي عقل ينفر منه، يقول لهم: إذا لم أؤمن بالله الواحد أفأتخذ من دونه آلهة مثلما فعلتم؟ وماذا تملك لي هذه الآلهة، هل تمنع عني عذاب الله إذا أوقع بي العذاب؟ لا، فهي لا تملك شفاعة عنده، ولا تستطيع أن تتدخل لتنقذني.

ثم يصدر الحكم الذي يصدمهم لأنه ينطبق عليهم، وهو إن فعل ذلك واتخذ آلهة من دون الرحمن فهو في ضلال عن الحق بين ظاهر – وكلهم يتخذون آلهة – ثم يعلنها مدوية أمامهم ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ (يس: ٢٥) فاسمعوها، لقد سمعوا، ولكنه يريد أن يؤكد إيمانه، وأن يدخل صوته كل أُذن.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ (يس: ٢٠– ٢٥).

وكعادة القرآن في الإيجاز، وحذف بعض المشاهد، والتركيز على بعض، يترك مشهد التعذيب الذي صبه الكفار عليه إلى أن مات، وينتقل إلى الجزاء العظيم الذي أعد له بعد استشهاده، فيقال له: جزاؤك الجنة وما فيها من متاع فادخلها، فيكون أول ما يخطر بباله تمنيه أن يعلم قومه الكرامة التي أكرمه الله بها، فقد غفر له ذنوبه التي ارتكبها قبل إيمانه، وجعله من المكرمين الذين ينالون رضا الله وفضله.

وماذا كان مصير قومه الكافرين؟ يشير الله إليه في آيتين قصيرتين، فبين أولًا أنهم أحقر من أن يعبأ الله بهم فينزل عليهم جنودًا من الملائكة تحاربهم، وما كان الله ليفعل ذلك مع أي قوم من الكافرين، وإنما العقاب الصارم وقع بهم نتيجة صيحة واحدة مرعبة خروا بعدها جثثًا هامدة.

يقول الله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ (يس: ٢٦ - ٢٩).

ملاحظات:

١ - أوضحت الآيات كلها مثل المكذبين المعاندين، وهو مثل متكرر في كل العصور ومع كل الرسل، لا يستند إلى منطق أو حجة، فكل ما يقولونه أنتم بشر مثلنا، أنتم كذابون، نحن نتشاءم بكم، ثم التهديد بالقتل والتعذيب.

وأما مثل المؤمن الصادق فموقفه يدعو إلى الإعجاب الشديد، فعندما آمن

عرف أن واجبه ألا يكتفي بإيمانه، ويقبع في بيته، فهذا إيمان سلبي لا يبنى عقيدة ولا يحمي دينًا، وإنما واجبه أن يقوم من فوره فيدعو الآخرين إلى مثل ما آمن به مهما كلفه ذلك من مشاق، أقلها قطع الطريق الطويل إلى مجتمع القوم فهو يسكن في أطراف المدينة، ولكن الأشق مواجهة القوم بغير ما يعتقدون، ولكنه فعل.

بدأ أولًا بالدعوة إلى اتباع الرسل؛ لأنه لا غرض لهم إلا دين الله فهؤلاء الرسل لم يطلبوا أجرًا على دعوتهم، وسلوكهم - في حياتهم طيب - ثم ينتقل إلى عرض دوافعه إلى الإيمان ثم يعلن موقفه صريحًا واضحًا لا ينافق ولا يجامل، هذا مثل المؤمن الحق.

٢ - درس آخر وهو أن الله لا يتخلى عمن يدعو إلى سبيله، ويضحى من أجل ذلك - ولو بدا أنه تخلى عنه في الدنيا حينما تمكن الطغاة فقتلوه - فالجزاء المعد له في الآخرة عظيم، حتى إنه ليود لو رآه قاتلوه ليكون حسرة عليهم، وزيادة في سروره.

٣ - الإيمان الحق لا ينبغي له أن يستتر بل لابد أن يعلن، ففي الإعلان عنه انتشار له.

٤ - عبر القرآن عن المجتمع الذي عاش فيه هؤلاء الناس مرة بالقرية، ومرة بالمدينة، ولا تناقض في هذا، فالمعنى اللغوي لكلتيهما واحد، وهما مقابلات للبدو والبادية، ولم يكن التقسيم الحضاري الذي شاع في عصرنا عن القرية والمدينة معروفًا من قبل.

(ب) الاستعلاء بالمال والبطر:

١- قصة قارون:

وهي أبرز مثل على الاستعلاء بالمال، والاغترار به، وبطر نعمة الله فيه، وقد وردت في سورة القصص التي تناولت استعلاء فرعون بالملك والسلطان، وبغيه على موسى، حتى أغرقه الله وجنده، فختمت السورة باستعلاء من نوع آخر هو الاستعلاء بالمال، وبنهاية مشابهة (نهاية فرعون وهي خسف الأرض به.

وقد ورد ذكر قارون في سورتين أخريين من القرآن هما سورة غافر التي ذكرت أن الله أرسل موسى إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه واتهموه بالسحر.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾(غافر: ٢٣، ٢٤).

وفي سورة العنكبوت التي جاء فيها: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٩) وقد وردت هذه الآية في سياق عرض نماذج من المكذبين للرسل وإهلاك الله إياهم.

ولكن هذه الآيات تقدم لنا قارون بتعريف آخر، فهو من قوم موسى، أي من بني إسرائيل.

ويقول بعض المفسرين[1]: إنه كان ابن عمه، فهو إذن كان من المشايعين لفرعون، المتسلطين على بني إسرائيل، ولعله ممن كانت تعنيهم الآية في سورة يونس: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ (يونس: ٨٣).

والقصة هنا لا تركز على إيمان قارون، أو دعوة موسى له، واستكباره على الدعوة، وإنما تركز على غناه، وعلى نظرته إلى الغنى، ولكنها قبل الحديث عن غناه تشير – في جملة مقتضبة – إلى تسلطه على بني إسرائيل، وظلمه لهم، يدفعه إلى ذلك اغتراره بماله وجاهه عند فرعون.

ثم تذكر الآيات الغنى الفاحش، والثراء العريض الذي يتمتع به قارون، فقد أعطاه الله أموالًا هائلة من الذهب والفضة والماشية حتى أن مفاتيح هذه الكنوز تعيا بحملها المجموعة القوية من الرجال، فما بالنا بالكنوز ذاتها؟

وكان غناه العريض يدعوه إلى الاستعلاء والتكبر والبطر، فكان الصالحون من قومه يعظونه قائلين: لا تبطر بسبب ما أنت فيه من نعمة فإن الله لا يحب البطرين، واتخذ من هذا الغنى الذي وهبه الله إياك وسيلة لإرضائه، بإطعام الجائع، وكسوة العريان، ومساعدة المحتاج، تحظ بالثواب العظيم في الآخرة، ولن يمنعك هذا من الاستمتاع بطيبات الحياة التي أحلها الله لك، وأحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك، ولا تحاول الإفساد في الأرض

(١) انظر تفسير القرطبي.

باستغلال أموالك استغلالًا سيئًا بنشر في الأرض الظلم والرذيلة والفساد فإن الله لا يحب المفسدين.

فيجيبهم قارون بعنجهية واستعلاء: إن هذا المال حصلت عليه بعلمي وبجدي واجتهادي، ولا فضل لأحد عليَّ في اكتسابه..

يعقب الله على قوله - قبل إتمام القصة - ساخرًا مهددًا، ألم يصل إلى علمه ما فعله الله بالطغاة السابقين ممن اغتروا بقوتهم وجاههم وأموالهم وكانوا أشد من قارون قوة، وأكثر جمعًا، لقد أهلكهم - دون أن يسألهم عن خطاياهم، ويدعهم يجادلون فيها - فهم أحقر عند الله من أن يسألهم لأنهم مجرمون وكذلك سيفعل بقارون.

يقول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[1] (القصص: ٧٦، ٧٨).

لم يحدد الله في هذه الآيات الوقت الذي حدثت فيه هذه القصة، وهل

---

(١) المراد بالفرح هنا: البطر بنعمة الله.

كانت في زمن فرعون، أو بعد هلاك فرعون؟ يغلب على ظني أنها حدثت في زمن فرعون؛ لأن هذه الكنوز الهائلة، والمواكب الفخمة، لا يمكن أن توجد في التيه بعد خروج بني إسرائيل من مصر، بل مكانها المناسب «مصر» بحضارتها وعمرانها.

ويبدو أن قارون – مع مشايعته لفرعون، وتسلطه على قومه – كان ينافق موسى وقومه، فيظهر إيمانه لهم بعيدًا عن أعين فرعون، يدل على ذلك النصائح التي قدمها له قومه فهي نصائح لا تقال لكافر يتحدى بكفره.

ثم تذكر الآيات مظهرًا من مظاهر عظمة قارون، ووقعها على المشاهدين، فقد خرج ذات يوم في موكبه، وهو موكب فخم مهيب بدت في مظاهر الثراء بطريقة تبهر الناظرين، وقد عبر القرآن عن عظمة هذا الموكب وثرائه بكلمة واحدة هي «زينته» وكيف تكون زينة من لديه كل هذه الأموال لابد أن تكون شيئًا يجل عن الوصف.

شهد الناس هذا الموكب، فبهر به الذين يقيسون الأمور بمقاييس مادية، ويرون متاع الحياة الدنيا هو المتاع الحق، وملأت الحسرة قلوبهم أن حرموا مثل كل هذه المشاعر في عبارات: ليته كان لنا مثل أموال قارون وجاهه إن نصيبه من عز الحياة ونعيمها عظيم.

سمع الذين أبصرت عيونهم الحقيقة، وامتلأت قلوبهم بالرضا والإيمان، وانكشفت لهم زيف الحياة وماديتها – سمعوا هذه التمنيات والتعليقات،

فالتفتوا إلى أصحابها داعين عليهم بالهلاك لفساد أحكامهم، وعمى بصائرهم عن حقائق الوجود، وقالوا لهم: إن ما أعده الله من ثواب عظيم في الآخرة لمن آمن به وعمل صالحًا، خير من هذه المظاهر الزائفة، والمشاهد الخادعة، لكن لا يصل إلى هذه المرتبة العليا إلا الذين صبروا على مشقة التكاليف، ومتطلبات العبادة، الذين جاهدوا أنفسهم، وصبروا على الحرمان من الشهوات، والمتع الفاسدة.

ثم جاءت اللحظة الفاصلة، جاءت نهاية الباطل والطغيان والاستعلاء على الناس بالمال والجاه، جاءت نهاية قارون، لقد خسف الله به وبداره وأمواله الأرض، فلم ينفعه ماله ولا جاهه ولا رجاله، ولم يجد من يحميه من بطش الله، وينصره من غوائل الهلاك، وأني له ذلك؟ وهل توجد قوة على ظهر الأرض مهما عظمت تقف أمام إرادة الله؟

تحول الموقف الآن، وتفتحت العيون على الحقيقة الناصعة: إن كل متاع الحياة عرض زائل، هبة ريح تقتلعه من مكانها مهما كان راسخًا، رجة الأرض كفيلة بأن تبتلع القصور الباذخة، والحصون الشامخة، وانطلقت أصوات الذين بهروا بعظمة قارون وجاهه تعبر عن دهشة وعجب، وتحولت التمنيات بأن يكون لهم نصيب من جاه قارون إلى حمد الله أنه لم يستجب لهذه التمنيات كي لا يكون لهم مثل نهايته، وعرفوا الحقيقة وهي أن الله يوسع الرزق لمن يشاء لحكمة يعلمها، وكذلك يضيق الرزق على من يشاء لحكمة

يعلمها، وأدركوا أن الكفر مهما بلغ سلطانه، والكافر مهما اشتدت سطوته محكوم عليه بالخسران والخذلان.

ثم يختتم الله هذه القصة بالحقيقة التي ينبغي أن يعيها كل مؤمن؛ وهي أن الدار الآخرة لا يفوز بها إلا المتواضعون لله، الذين لا يستكبرون في الأرض ولا يفسدون، والعاقبة لن تكون إلا للمتقين الذين يخافون الله ويخشون عذابه، فلا ينحرفون عن طريقه.

يقول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الآيات: ٧٩- ٨٣).

وتنتهي قصة قارون كما ينبغي أن تنتهي قصة كل مستعل بماله وجاهه على الأرض وعلى الناس، وأقف قصيرة أسجل فيها ما جاش بنفسي من خواطر حول هذه القصة.

١ـ الأمر بالمعروف واجب كل مؤمن، فلا ينبغي لمن عمر الإيمان قلبه

أن يرى أمامه فسادًا، فلا يقول رأيه، وينصح المفسد بالقول اللين، والكلمة الطيبة دون تعال أو استفزاز، وينبغي أن تكون النصيحة مشفوعة بما يحمل على قبولها، فالذين نصحوا قارون كانوا يذكرون له: إن الله لا يحب هذا العمل، ولما طالبوه بالإحسان شفعوه بإحسان الله إليه، ولما طالبوه بالعمل للآخرة، لم يحرموا عليه استمتاعه بالدنيا، بل طالبوه بأن يستمتع بحقه المشروع من الحياة.

٢ـ ينبغي للإنسان العاقل ألا يغتر بالمظاهر المادية، ويجعلها تعميه عن الحقيقة الأزلية: إن متاع الحياة الدنيا مهما طال فهو إلى زوال، ولكن النعيم الباقي هو نعيم الآخرة، وليس معنى هذا ألا يتطلع الإنسان إلى متع الحياة المشروعة بل عليه أن يعمل من أجل الحصول عليها، ولكن لا تذهب نفسه حسرات عليها إذا لم تتحقق له، وليعلم أن ما يراه من مظاهر الرفاهية والنعيم التي يعيش فيها الأغنياء لا تحقق لهم السعادة التي يظنها المحرومون، فهذه المظاهر قد ألفها الأغنياء، واعتادوها، بل كثيرًا ما يملونها، وتضيق صدورهم بحياتهم كلها، ويحاولون أحيانًا التخلص منها سأمًا ومللًا.

٣ـ كلمة أخيرة لكل من وهبه الله مالًا وجاهًا، عليه أن يعلم أن هذا فضل الله عليه، وهو ابتلاء منه ليختبر عبده أيشكر أم يكفر، والله يبتلي بالخير كما يبتلي بالشر.

يقول تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، فلا يقولن

أحد: كسبت هذا المال بجدى واجتهادي وعبقريتي الاقتصادية، فلم يكسب ماله أو جاهه إلا بتوفيق الله، ولو تخلى عنه هذا التوفيق لحظة لذهب كل ما يملك، والحياة حافلة بالمواقف المتغيرة، فكم سمعنا عن غنى افتقر، وذي جاه ذهب جاهه، وملك زال عنه ملكه.

٢- ملك الجنتين وصاحبه:

وهذه قصة أخرى مشابهة لقصة قارون، وإن كان الثراء فيها أقل، والمال أصغر حجمًا بكثير، ولكن الاستعلاء بالمال، والاغترار به واحد في القصتين، وقد وردت هذه القصة في سورة الكهف، ولم يسم الله أشخاصها فهي مثل ورمز لقيمتين من قيم الحياة كما سنرى.

يطلب الله من رسوله أن يضرب للناس مثلًا يتمثل في رجلين وهب الله أحدهما حديقتين تحفلان بالأعناب، ويحيط بهما النخيل، ويتوسطهما أنواع الزروع، وهما حديقتان مثمرتان، لا تتخلف أي منهما عن الإثمار في أية سنة، ولا تنقص غلة أي منهما عما تغله في الأعوام السابقة، وكان الماء يتفجر بينهما في صورة نهر متدفق.

نظر صاحب الجنتين إلى جنتيه بإعجاب وزهو وغرور، وكان له صاحب لم يهبه الله مثلما وهب هذا الغنى، فكلمه باستعلاء مقارنًا بين حاليهما ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ ولم يكتف بذلك بل باهاه بكثرة أهله وأعوانه.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ

وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾(الكهف: ٣٢، ٣٤)

ودخل الرجل جنته مملوءًا كبرًا وعجبًا، واصطحب معه صاحبه – ليشهده على صدق مباهاته – وكان ظالمًا لنفسه لعدم اعترافه بواهب الخير له نظر حوله فرأى الثمار اليانعة، وقطوف الأعناب الدانية، وألوان البلح الزاهية، فازداد غرورًا، والتفت إلى صاحبه قائلًا: إني لا أظن أن ثمار هذه الجنة يمكن أن تفنى أبدًا، وتعالى غروره حتى ركبه شيطان الكفر فقال: وإني لا أظن يوم القيامة سيجيء.

أراد بذلك أن ينفي أن يحاسب على ما يفعله في دنياه، أو يستمتع به في حياته – ثم عاوده بصيص من إيمان فقال: وحتى لو قامت القيامة فسيكون جزائي عند الله أعظم من نصيبي في الدنيا -- وكأنه يقيس حظوظ الآخرة بحظوظ الدنيا.

دهش صاحبه لأقواله الكافرة هذه، فصاح فيه: أكفرت بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة، ثم صيرك رجلًا سويًا، لكنني أنا أومن بالله ربي ولا أشرك به أحدًا من مخلوقاته، ثم يوبخه على أقواله السابقة بذكر الألفاظ التي كان ينبغي له أن يقولها حينما يدخل جنته، وهي ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ التي تفيد إيمانه بأن ما يتمتع به من هذه الجنتين هو بمشيئة الله، وأنه لا أحد يملك أي قدر من القوة إلا مستمدًا من قوة الله سبحانه.

ثم يحذره من الاستمرار في الكفر، فيخبره أن الحظوظ في الدنيا متقلبة لا تثبت على حال. وإن كان هو الآن أي صاحبه - أقل منه في المال والولد، فقد يتغير حظه فيعطيه الله حديقة مثمرة خيرًا من حديقته. ثم يتغير حظه - أي الغنى - فيرسل الله على جنته صواعق تهلكهما وتحيل أرضهما أرضًا ملساء تنزلق عليها الأقدام، ولا تصلح للزراعة، أو يغور ماء النهر الذي يرويهما، فلا يستطيع صاحبهما حيلة في جلب الماء إليهما - فوسائل الغنى والفقر عند الله كثيرة يصيب بها من يشاء.

يقول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[1] (الآيات: ٣٥ - ٤١).

ثم جاءت النهاية - نهاية كل مغرور بماله، مستعل بغناه - هلك الثمر، أحاط به الهلاك من كل ناحية لم يترك له منهما ثمرة، فوجئ بمنظر الدمار الذي حاق بجنتيه صباحًا فملأه الندم والحسرة، وأصبح يقلب كفيه بحركات

---

(١) حسبانًا: صواعق.

لا إرادية تعبر عن الندم والحسرة على ضياع ماله الذي أنفقه عليها، وينظر إلى جنتيه، وقد سقطت أعلى أشجارهما على أسافلها فتحطمت جميعًا، وأحسن بالندم على تمرده على خالقه، وتمنى لو لم يشرك مع الله أحدًا، لا مالًا ولا غيره.

ولم يكن له جماعة قوية تحميه من غضب الله عليه، وما كان ينبغي له أن ينتصر ضد إرادة الله.

يقول الله لتعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (الآيتان: ٤٢، ٤٣).

ثم يختم الله القصة بذكر أن السلطة والقدرة كلها لله يوم القيامة فليس لأحد سلطان ينتصر به، فهو يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة وهكذا يقف في فيه كل ظالم جبار منبوذًا مخذولًا، ويكون ثواب الله هو الأخلد والأبقى والأعظم عاقبة.

يقول الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾(الآية: ٤٤).

١- ولنقف لحظة نقارن بين هذه القصة وقصة قارون نجد أوجه شبه وأوجه اختلاف، فهما يتشابهان في أن الشخصية الرئيسية في كل منهما تستعلي بمالها، وتغتر، وتظن أنه باق لا يزول، وفي أن النهاية في كل منها الدمار والهلاك وفي كل منهما مؤمنون يقولون كلمة الحق ولا يبالون.

ويختلفان في ذكر اسم قارون في القصة الأولى وعدم ذكر اسم صاحب الجنتين، وفي أن ثراء قارون جاوز كل حد في سعته وضخامته حتى أصبح يضرب مثلًا لكل ثراء فاحش، وأمام صاحب الجنتين فثراؤه محدود بهما، وفي أن قارون لم يباه بالقول، وإنما أفعاله وزينته تنبئ بهذا كما أن قارون خسف الله به الأرض، فلم يملك أن ينبس ببنت شفة، وأما صاحب الجنتين فحاق الدمار بماله، وأما هو فلم يهلك، بل شعر بخطيئته وندم على أنه أشرك بالله، وأخيرًا كان واعظ قارون من قومه وأما صاحب الجنتين فواعظه صاحبه.

٢ ـ لم تصرح الآيات بأن صاحب الجنتين كان يشرك مع الله إلهًا آخر، ولكن ظهرت علامات تدل على كفره كإنكاره الساعة، وزعمه أنه لو كان هناك بعث فسيكون حظه من ثواب الله عظيمًا، فلعل هذا هو المقصود بشركة الذي ندم عليه بعد خسارته الفادحة، ولقد فهم صاحبه من كلامه معنى الشرك فأعلن أنه لا يمكن أن يشرك بالله أحدًا.

٣ ـ إن في نصيحة صاحبه له منا ما يدل على إيمان عميق، وشجاعة في قول الحق، فلم يبال رضا صاحبه أو غضبه بل أعلنها صريحة محذرًا صاحبه الغنى من عاقبة غروره بالمال، وقد صدقت نبوءته، وهذا ما ينبغي لكل مؤمن، فلا تمنعه صداقة أو طمع في منصب أو جاه أو خوف من ضياع سلطة أن يجهر بكلمة الحق.

٣- قصة سبأ:

وهذه قصة قوم - لا فرد - بطروا نعمة الله عليهم، ولم يؤدوا حقها في الشكر، فكان مصيرهم ما سأذكره، وقد وردت قصتهم في سورة سبأ (٥٨).

وسبأ قوم عاشوا في جنوبي اليمن، وكان لملكتهم قصة مشهورة مع سيدنا سليمان انتهت بإسلامها كما مر، وواضح أن هذه القصة بعد وفاتها.

وتبدأ القصة بذكر الخصب والرخاء اللذين كانت تستمتع بهما، هذه المملكة حتى عبر الله عن ذلك بقوله: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية» أي علامة ظاهرة تدل على قدرة الله سبحانه فيما منحه لهم من وفرة، وقد تمثل هذا الخصب في كثرة الحدائق المثمرة التي تحيط بهم عن يمين وشمال، فأينما يمموا وجوههم وجدوا خيرًا ورخاء ويذكر المفسرون أنهم عرفوا الطريق لتوفير المياه، وحسن استغلالها فبنوا السدود التي تحجز المياه وراءها، ليستعملوها قدر حاجتهم، وكان لهم سد مأرب المشهور، لذلك ازدهرت زراعاتهم، وتلا ذلك ازدهار تجارتهم، ورقى حضارتهم، وكان واقع الحال يقول لهم: كلوا من هذا الرزق الوفير الذي حباكم الله به، واشكروا له فضله، فبلدتكم بلدة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وربكم رب غفور يتجاوز عن هفواتكم ما دمتم قائمين على شكره، مقرين بربوبيته.

فهل استجابوا لذلك؟ هل قدروا نعمة الله عليهم؟ وأتوها حقها من الشكر؟ كلا، بل بطروا نعمة الله عليهم، وأعرضوا عن عبادته، فأرسل الله عليهم سيلًا شديد الشراسة والقوة، فدمر سدودهم، وكل منشآتهم العمرانية،

فانهارت زراعاتهم، وتحولت جنتاهم اللتان كانتا تغصان بأفضل الأشجار، وأينع الثمار إلى جنتين فقيرتين لا شجر فيهما إلا شر الأشجار من الخمط وهو شجر ذو أشواك، والأثل وهو نوع من الشجر لا ثمر فيه، وشيء قليل من شجر النبق، وقد فعل الله بهم هذا مجازاة لهم على كفرهم بنعمة الله، ويطرهم بما منحوا من ثراء، وقد جرت عادة الله أنه لا يجازي بالشر إلا من كفر نعمته.

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾(سبأ: ١٥ - ١٧).

استمر القوم في بطرهم بنعمة الله بعد هذه الكارثة، وكان الله جعل بينهم وبين القرى المباركة في أرض الشام مثل بيت المقدس، وغيرها من الأماكن المقدسة، قرى متتابعة متصلة، بحيث لا تبعد قرية بأكثر من مسيرة يوم أو نصف يوم، لا يخرجون من قرية إلا ويدخلون في قرية يستريحون فيها، ويبيتون فيها، وكان سيرهم فيها آمنًا لاتصال العمران، سواء أكان سيرهم فيها ليلًا أم نهارًا، فلم يعجبهم هذا، وأرادوا أن تكون المسافات متباعدة بين القرى بعضها وبعض، كي يتلذذوا بالمغامرة، والرحلات الطويلة المجهدة، ويتباهوا بذكر ما لا قوة في أسفارهم من مخاطر.

وهكذا الإنسان يمل الراحة، ولا يصبر على التعب، وما أشبه هؤلاء ببني

إسرائيل عندما لم يصبروا على المن والسلوى، فطلبوا العدس والبصل وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (عبس: ١٧) فدعوا الله أن يباعد المسافات بينهم وبين مقاصدهم، فظلموا بذلك أنفسهم، إذ كفروا نعمة ربهم عليهم، فاستحقوا عقابه ففرق جمعهم، وشتت شملهم، فذهبت كل قبيلة إلى مكان بعيد، وصار يضرب بهم المثل في التفرق والتشتت: يقال (تفرقوا أيدي سبأ) وفيما أصاب هؤلاء القوم عظة وعبرة لكل مؤمن يصبر على المكاره مهما اشتدت، ويشكر الله شكرًا كثيرًا على نعمائه.

وقد كان بطر هؤلاء القوم النعمة تصديقًا لظن إبليس فيهم، وفي غيرهم من ذرية آدم إذ قال فيهم لله سبحانه – وهو يرفض السجود لآدم – ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧)، فاتبعه أكثرهم وظلت فئة قليلة مستمسكة بدين الله، وهؤلاء لا يمكن لإبليس أن يغويهم، فقد عصمهم الله منه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ (الإسراء: ٦٥)، أي قدرة على إغوائهم، لإسلامهم وجوههم لله، وإخلاصهم قلوبهم لعبادته، وليس في مقدور إبليس تجاه البشر عمومًا السيطرة على أكثرهم إلا لتنفيذ حكمة الله في اختبار البشر ليعلم المؤمن بالآخرة ممن يتشكك فيها، فالله سبحانه حفيظ على كل شيء، ولا يحدث أمر خارج نطاق قدرته.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً

وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (سبأ: ١٨ - ٢١).

وتنتهي بذلك قصة (سبأ) قصة المجتمع الذي بطر نعمة ربه، فحق عليه كله العقاب، ونفهم من هذه القصة بعض الإشارات الربانية.

١ ـ إن الله سبحانه إذا أنعم على مجتمع من المجتمعات بالخير الوفير يطلب منهم شكر النعمة في مقابل ذلك بالعمل الصالح والاستقامة، فإذا تحقق منهم ذلك زادهم الله من خيره، وإذا لم يؤدوا واجب الشكر غضب الله عليهم.

٢ ـ إن الفئة القليلة المؤمنة عليها واجب النصح والوعظ للكثرة، ولن ينفعها الإيمان السلبي المنفرد عن المجتمع إذا حلت نقمة الله على المجتمع فالله تعالى يقول: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: ٢٥)

للإيمان الحق أثر عظيم في تقدم المجتمعات ورقيها؛ لأن الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، والحرص على أداء الواجب، والاستقامة في السلوك، فإذا استشعر كل فرد في المجتمع هذه المعاني، وعمل وفقًا لها، يزدهر المجتمع

ويرقى، وأما الكفر أو الإيمان القائم على الشعارات وكفى، ولا يكون له أي تأثير في العمل فيدفعان إلى الفساد والتراخي والأنانية والترف الفاجر، وإذا شاعت هذه المعاني في مجتمع دمرته تدميرًا، وهذا ما حدث لأهل سبأ، فإعراضهم عن الله، وانصرافهم عن واجبات الإيمان دفعاهم إلى التراخي، وعدم الحرص على دوافع التقدم، فأهملوا السدود، فلما جاء السيل اكتسح أمامه كل شيء، وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ (الإسراء: ١٦) شاهد على ذلك.

٤- أصحاب الجنة:

وهؤلاء جماعة - يقول المفسرون[١] إنهم ثلاثة إخوة - بطروا أيضًا نعمة ربهم، وأرادوا أن يأكلوا حق الفقراء في مالهم كما سنرى.

وقد وردت هذه القصة في سورة القلم، وهي السورة الثانية من حيث ترتيب النزول، وإن كان ليس بالضرورة أن تكون كل آياتها نزلت دفعة واحدة بل الغالب إنها نزلت في أوقات متفرقة، وربما متباعدة، ولكن المؤكد أنها نزلت في مكة، يشير إلى ذلك الضمير في «بلوناهم» فهو يشير إلى أهل مكة، فالله تعالى يبدأ القصة مخبرًا أنه اختبر أهل مكة بالرخاء الذي كانوا يعيشون به، ليرى أيشكرون فيؤمنون بما أنزل على محمدﷺ، أم يكفرون فيحاربونه ويعاندونه - كما فعلوا - ويشبه هذا الابتلاء، أو الاختبار - اختبار الله لأصحاب الجنة أي الحديقة المثمرة المزهرة.

---

(١) انظر القرطبي وغيره.

يقول المفسرون: إنهم ورثوا عن أبيهم هذه الحديقة الغنية، وكان أبوهم يؤدي حق الله فيها، ولكنهم خالفوه في ذلك، وقرروا حرمان المساكين منها - فأقسموا ليقطعنها في الصباح الباكر - قبل أن يستيقظ الفقراء، ويذهبوا لأخذ حقهم كما اعتادوا ولم يستثنوا في قولهم - اختلفت المفسرون في معنى يستثنون: فقال معظمهم إنهم لم يقولوا إن شاء الله عقب قسمهم (وقولها يعني صدق إيمانهم بالله، فهم لا يفعلون شيئًا إلا بمشيئة، وأما عدم قول هذه العبارة فيعني أن إرادتهم هي النافذة ولا مانع لها فأراهم الله عكس ما اعتقدوا)، وقال آخرون: يستثنون أي يسبحون الله. وقال رأى ثالث: لم يستثنوا أحدًا من المساكين من الحرمان - وأيًا ما كان المعنى فقد ذهبوا بنية مؤكدة على المنع.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ (القلم: ١٧: ١٨).

ولكن كان لله تدبير آخر فقد أرسل على هذه الجنة آفة مهلكة ليلًا وهم نائمون، فأحرقتها كلها وتركتها سوداء كالليل المظلم، لا ورق، ولا ثمر، ولا زهر بل سواد في سواد، والإخوة لا يدرون شيئًا عن ذلك.

استيقظ الإخوة من نومهم مبكرين طبقًا لاتفاقهم، وأخذ ينادي بعضهم بعضًا: هلموا إلى زراعتكم لتجنوا ثمارها، إن كنتم جادين في ذلك، واستجابوا جميعًا وساروا لا يتحدثون إلا همسًا كي لا يشعر المساكين بنيتهم في الحصاد،

فيبادروا بالمجيء إليهم، وكان كل حديثهم يدور حول تأكيد منع المساكين من دخول الحديقة.

يقول الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾[1] (القلم: ١٩ - ٢٤).

ذهبوا، ولديهم نية قاطعة، وشعور بالقدرة على تنفيذ نيتهم، ولكنهم رأوا غريبًا، أرضًا سوداء محترقة، لا شجر فيها، ولا ثمر، ولا زهر، ولأول وهلة خامرهم شعور أنهم تاهوا عن حديقتهم، ولكن سرعان ما أيقنوا أنها جنتهم، وأنه قد كتب عليهم الحرمان من ثمارها بسبب ما أصابها من هلاك، وهنا يدرك خيرهم أنهم أخطئوا في جنب الله عندما ساءت نيتهم، وقرروا حرمان المساكين ولم يخطر على بالهم ذكر الله، فيلومهم قائلًا: ألم أطلب منكم تسبيح الله، والعمل بما يوجبه هذا التسبيح، من أداء حق الفقراء، فبادروا - بعد إدراكهم خطأهم - إلى تسبيح الله مقرين بظلمهم لقصدهم حرمان المساكين من حقهم، ثم أخذ بعضهم يلوم بعضًا على هذه النية الفاسدة، واعترفوا بأنهم كانوا طاغين: أي مجاوزين الحد في عصيان الله، وأخذوا يدعون على أنفسهم بالويل، أي الهلاك، ورجعوا إلى إيمانهم مؤملين أن يبدلهم الله خيرًا منها فهم راغبون فضله، منيبون إليه.

---

(١) كالصريم: من معانيه: الليل المظلم.

يقول الله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[1] (القلم: ٢٥ - ٣٢).

على الرغم من أن هذه القصة تندرج تحت معنى بطر النعمة، فإنها تختلف عن القصص السابقة في أن أصحابها أدركوا خطيئتهم سريعًا فبادروا إلى تسبيح الله والرجوع إليه، والتأميل في خيره، وتعويضه إياهم - فهم مثل للمؤمن الخاطئ الذي قال الله في شأنه وشأن غيره من المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٥، ١٣٦) وإذن فأصحاب الجنة انفردوا عن قارون وقوم سبأ وصاحب الجنتين بالتوبة، والرجوع إلى الله، وإن كان صاحب الجنتين أبدى ندمه لأنه أشرك مع الله غيره، ولكنه لم يصرح بالتوبة، والرغبة إلى الله كما فعل أصحاب الجنة.

تهدينا هذه القصة إلى واجب المؤمن نحو ربه، وهو أن يعتقد في قرارة نفسه أنه لن يتم أمر إلا بإرادة الله – مهما بالغ المرء في الجد والاجتهاد في إنقاذ هذا

---

(١) أوسطهم: خيرهم.

الأمر فلن يتم إلا بمشيئة الله، وعليه أن يعبر بلسانه عند العزم على أي أمر، والحديث عن ذلك قائلًا: (إن شاء الله) وقد نهى الله نبيه محمدًا ﷺ عن أن يقول للشيء إنه سيفعله غدًا بغير أن يعلقه على مشيئة الله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣، ٢٤)

كما تهدينا إلى الاعتراف بالذنب، وعدم المكابرة والإصرار، فكل ابن أدم خطاء وخير الخطائين التوابون، كما يقول الرسول ﷺ وكذلك تهدينا إلى أن الإنفاق في سبيل الله، وإيتاء المساكين حقهم يبارك الله في المال ويحفظه.

(ج) قضية البعث:

١- أصحاب الكهف:

وقد سميت السورة التي وردت فيها هذه القصة باسم «الكهف» وقد بدأت القصة بتوجيه الرسول ﷺ إلى أنه إذا كانت قصة أصحاب الكهف والرقيم - أي اللوح كتب عليه أسماء أصحاب الكهف - عجيبة، فهي ليست بأعجب العجائب مما خلقه الله فعجائب مخلوقاته لا حصر لها، ثم تبدأ الآيات بذكر خلاصة أو ملخص للقصة أولًا، نعرف منه أن مجموعة من الشباب لجئوا إلى الكهف ونعرف أنهم مؤمنون، لأنهم حينما دخلوا الكهف دعوا الله طالبين أن يرحمهم برحمته ويهيئ لهم السداد والرشاد في كل أمورهم، فألقى الله عليهم النوم سنين طويلة، ثم أيقظهم من نومهم الطويل ليدور الجدل والنقاش حول المدة التي ناموها، ويظهر أي المتجادلين في أمر نومهم أدق في إحصائه من الآخر.

يقول الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ (الكهف: ٩- ١٢).

بعد هذا الإجمال يبدأ التفصيل، والله يخبرنا في بداية التفصيل بأنه سيقص نبأهم بالحق المؤكد الذي يقطع كل شك في أمرهم، ثم يحدد طبيعتهم فهم فتية – أي شباب فيهم قوة وحيوية – وقد آمنوا بالله، فزادهم الله هدى وإيمانًا ويقينًا، وثبت قلوبهم على الاعتقاد الحق فلم يتزلزل هذا الاعتقاد حينما واجهوا المجتمع الكافر بالحقيقة المؤكدة، وهي أن الله ربهم هو رب جميع السموات والأرضين، وأنهم لن يؤمنوا بإله غيره لأنهم لو فعلوا فقد تجاوزوا الحد في الافتراء على الله والحق، كما أعلنوا بطلان اعتقاد قومهم في عبادتهم آلهة من دون الله، لا يستطيعون ذكر أي برهان على أحقيتها بالألوهية، فهل هناك ظلم أعظم من ظلم هؤلاء الذين يختلفون الأكاذيب على الله؟

بعد هذه المواجهة قرروا اعتزال قومهم، واعتزال كل ما يعبدون من دون الله، وقالوا: فلنذهب إلى الكهف، ولنختف فيه إلى أن يهدأ الطلب علينا، وسيظلنا ربنا برحمته، وييسر لنا أسباب الرزق، والإقامة المريحة في هذا الكهف:

يقول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ

وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ (الكهف: ١٣ – ١٦).

دخل الفتية الكهف، وأخذت الآيات تصورهم وهم نيام في الكهف (وكعادة القرآن لم يذكر ذهابهم إلى الكهف ودخولهم فيه، وماذا بعد دخولهم، بل صورهم في أثناء نومهم الطويل) فتذكر أن الشمس لا تؤذيهم؛ فهي عندما تطلع تميل عن الكهف نحو اليمين، وإذا غربت تبتعد عنهم جهة الشمال، وهم ينامون في فجوة وسط الكهف، هذه الظروف المحيطة بهم، والمريحة لهم من دلائل قدرة الله، ورضاه عن هؤلاء الفتية؛ لأنهم اهتدوا إلى عبادته فهداهم الله، وقد جرت سنته أن من يهديه الله فهو المهتدى حقًا الذي لن يستطيع أي مضل إضلاله، وأما من يسير في طريق الضلال فسيتخلى الله عنه ولن يجد بعد ذلك هاديًا يهديه، أو مرشدًا يرشده.

ثم تعود الآيات إلى تصوير حالهم – وهو نائمون – فتقول: إن الله يمكنهم من التقلب يمنة ويسرى كل لا تأكل الأرض أجسادهم، وكلبهم رابض لدى مدخل الكهف، وقد بسط ذراعيه، وبدت هيئته كأنه يحرسهم، ولو نظر أي إنسان هو الكهف لامتلأ قلبه رعبًا، وولى مدبرًا فزعًا من المنظر الذي رآه

(وكأن الله يلقى في قلوب من يتجه نحو الكهف الرعب كي لا يحاول متطفل أن يدخل الكهف ويفزع من فيه).

يقول الله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (الكهف: ١٧، ١٨).

وكما أنمناهم هذا النوم الطويل، أيقظناهم، فأخذوا يتساءلون بينهم – وقد أحسوا أنهم ناموا نومة طويلة ولكنهم لا يدرون مدته – قال أحدهم: كم تظنون مدة نومنا؟ أجابه آخر: لعلنا نمنا يومًا أو جزءًا من يوم، وكأن الآخرين لم يتأكدوا من هذا الظن، فهم يشعرون أنهم ناموا طويلًا طويلًا، ولكن لا يدرون كم يومًا، وكانوا جائعين، فأضربوا عن هذا التساؤل، وطلبوا البحث فيما هو أهم فقالوا: ربنا أعلم بالمدة التي مكثناها نائمين، فلتبحثوا في أمر طعامنا، ابعثوا أحدكم ببعض النقود الفضية إلى المدينة، فليبحث عن أجود طعام يجده يحضر لنا منه ما يكفينا وليكن حذرًا في طلبه متلطفًا في بحثه، وليبذل كل جهد في التخفي كي لا يشعر بنا أحد؛ لأن القوم الكافرين لو اهتدوا إلى مخبئنا فلن يكون أمامنا إلا أمران: إما أن يرجمونا فنهلك، وإما أن يضطرونا إلى الرجوع إلى دينهم الوثني، وهذه هي الخيبة التي لن يعقبها فلاح أبدًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف: ١٩، ٢٠).

لم يذكر القرآن ما حدث للرسول الذي ذهب لإحضار الطعام كعادته في الإيجاز، والتركيز على بعض المشاهد، وإغفال أخرى وتركها لفهم القارئ ولكن الذي لا شك فيه أن الرجل حينما خرج من الكهف واتجه إلى المدينة راعه التغير الذي رآه، فالوجوه غريبة، والمعالم مختلفة، والأحوال متباينة، فلما أبرز نقوده وهي مضروبة في عهد ملك هلك منذ قرون بدأ شك أهل المدينة، واضطر إلى أن يقص عليهم قصته، ولعلهم شكوا في صدقه، فصحبهم إلى الكهف، وهكذا اطلع الناس عليهم، فكما أنامهم الله وأيقظهم بعد منامهم هيأ للناس وسيلة معرفة قصتهم ليتحقق الهدف الأساسي من هذه الحادثة، وهو إقامة الدليل العملي للناس على صحة البعث، فهؤلاء فتية ناموا مئات السنين، ثم أيقظهم الله من نومهم، وما النوم إلا موتة صغرى، فالقادر على إيقاظ هؤلاء الناس قادر على بعث البشر بعد موتهم، وهكذا علم الناس أن الساعة لا شك فيها، وأن وعد الله حق لا مراء ففيه، ماذا شاهد الناس الذين صحبوا الرسول إلى الكهف لم يحدثنا القرآن عن هذا، ربما رأوا

الفتية إيقاظًا – وهذا هو الأرجح – ثم ماتوا جميعًا بعد ذلك، ولكن القرآن يحدثنا – عن الجدل الذي دار بين القوم بعد موتهم، فهم يريدون تخليد ذكراهم، قال بعضهم: ابنوا بنيانًا أمام كهفهم – كما تفعل الأمم اليوم فتقيم نصبًا تذكاريًا – والله أعلم بحالهم وشأنهم، وقال ذوو الرأي فيهم لنقيمن عليهم مسجدًا نصلي فيه، ونعبد الله فيه ذاكرين قدرته التي تجلت في هذه الحادثة.

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

(الكهف: ٢١).

انطوت صفحة أصحاب الكهف، ولكن لم ينطو الجدال بشأنهم على مر السنين، وتعاقب الأجيال، فهم مختلفون في عدتهم، يقول بعضهم: إنهم ثلاثة وكلبهم الرابع، وبعضهم يقول بل خمسة وكلبهم السادس، وهذا كله ظن وتخمين ورجم بالغيب، ويقول آخرون: إنهم سبعة وكلبهم الثامن، يأمر الله رسوله أن يخبر الناس إن الذي يعلم عددهم الحقيقي هو الله، وهو لا يريد أن يطلعهم عليهم فليست له قيمة كبيرة في العبرة من القصة – فليكن عددهم ما يكون فلن يغير من الأمر شيئًا، وهو أنهم ناموا مئات السنين ثم أيقظهم الله وهذه هي القدرة، والعبرة من القصة – ثم يبين الله أن الذي يعلم العدد

الحقيقي قلة من الناس - لعلهم المعاصرون لهم ومن أطلعه الله على ذلك - ثم يطلب الله من رسوله إذا جادل أن يكون جداله في شأن هؤلاء الناس جدال العالم المتمكن من الأمر، فالله هو الذي قصه عليه بالحق، وألا يسأل أحدًا من الناس في شأنهم، فليس هناك أحد يعرف عنهم أكثر مما عرف الرسول ﷺ، ويطلب منهم كذلك ألا يحدد وقت شيء يفعله دون أن يقرن ذلك بقوله: إن شاء الله، فإذا نسى فليذكر الله عندما يتذكر، وليطلب من الله أن يهديه إلى ما هو الأرشد والأصلح في أمور دينه ودنياه (يقول المفسرون: إن سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾(الكهف: ٢٣) أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف من المشركين قال لهم: غدًا أجيبكم، فتأخر الوحي خمسة عشر يومًا[١].

يقول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[٢](الكهف: ٢٢ - ٢٤).

لم يحدد الله أصحاب الكهف لأن التحديد لن يؤثر كثيرًا في هدف القصة - كما قلت - ويذكر بعض المفسرين أن عددهم سبعة؛ لأن الله لما ذكر القول

---

(١) انظر صفوة التفاسير.

(٢) مراء ظاهرًا: غالبًا متيكنًا.

الأول والثاني أردفه بقوله: (رجمًا بالغيب) ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقر قائله ثم نبه الرسول ﷺ إلى الأفضل والأكمل وهو رد العلم إلى علام الغيوب[1].

وكما اختلف الناس في عددهم اختلفوا في مدة نومهم، ولكن الله يحدد المدة لأنها أساسية في هدف القصة وهو - صحة البعث - فأخبر أنهم ظلوا نيامًا في كهفهم ثلاثمائة سنة، وزادوا عليها تسعًا، ثم يؤكد الله أنه هو وحده الذي يعلم علم اليقين مدة لبثهم في الكهف؛ لأنه - وحده - هو الذي يعلم كل مغيب في السموات أو في الأرض فما أبصره بكل موجود، وما أسمعه لكل مسموع، لا يغيب عن علمه شيء من المحسوسات مهما خفى، وهو الناصر والمعين لكل خلقه، إذا تخلى عن بعضهم فلن يجدوا لهم ناصرًا أو هاديًا من دونه، وهو القادر الغني عن سواه ولا يقبل أن يشاركه في حكمه أحد.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٢٥، ٢٦).

وتنتهي قصة أصحاب الكهف، وقد كان الهدف الجلي منها كما أخبر القرآن - إثبات صحة البعث (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها).

---

(١) انظر صفوة التفاسير.

وهذه بعض خواطر حول هذه القصة:

١- لقد بدأت القصة بذكر «أصحاب الكهف» معرفة، وهذا يدل على أن شأنهم كان معروفًا ومتداولًا في مكة أيام الرسول ﷺ، وكانوا يعتبرونها عجبًا من العجب.

٢- من الممكن اعتبار هذه القصة من قصص التضحية من أجل الدين، فهؤلاء فتية من شباب قومهم نفوسهم متفتحة للحياة، وهدف أمثالهم الاستمتاع بلذائذها ولكنهم تأملوا كنه الحياة، وفكروا في حكمتها، ولم يعجبهم اعتقاد قومهم الفاسد، فقرروا اعتزالهم، وفي هذا ما فيه من التضحية؛ فقد حكموا على أنفسهم بالخمول، إن لم يكن بالاضطهاد ثم الموت، ولكنهم لم يبالوا ذلك لأن إيمانهم كان أقوى من كل شيء في الحياة. إن الإيمان إذا دخل نفسًا عمرها، فكان ظلام الكهف أمام نفوسهم ضوءًا، وضيقه كان – مع إيمانهم – براحًا فسيحًا.

٣- ينبغي على المؤمن أن يرد العلم في كل شيء إلى الله، فهؤلاء الفتية حينما استيقظوا من نومهم وتساءلوا عن مدة لبثهم ردوا العلم في ذلك إلى الله ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ والله يأمر رسوله بذلك في موقف آخر: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ (الكهف: ٢٢)، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ (الكهف: ٢٦) ورد العلم إلى الله فيما لا سبيل إلى التيقن منه يريح النفس، ويبعدها عن الجدل العقيم فتنصرف إلى ما هو أهم، أما إذا كان من

الممكن التيقن منه فعلى المؤمن أن يبحث ويتحرى إذا كان في العلم إقامة عدل أو التوصل إلى فائدة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (الحجرات: ٦). ويقول: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

٤ - الهداية الحقة هي هداية الله، ومن يهتد بهذه الهداية فهو المهتدى حقًا؛ لأن طريق الله مستقيم واضح، والسير في هذا الطريق يقتضي إسلام الوجه لله، وإخلاص القلب لعبادته وحده لا شريك له: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ (لقمان: ٢٢) ولذلك لا يستطيع أحد أن يصرفه عن هذا الطريق، وأما الذي يبتعد عن هذا الطريق - وهو واضح أمامه - ويتبع غير سبيل المؤمنين فهو الضال الذي لن يجد له هاديًا ولا نصيرًا، لأن الهداية والنصر والحماية لها مصدر واحد هو الله.

٥ - ينبغي للمؤمن أن يجعل مشيئة الله فوق مشيئته، فلا يعتزم عملًا إلا أن يقول في حديثه عن هذا الاعتزام: «إن شاء الله»، وقد تحدثت عن هذا في قصة «أصحاب الجنة».

٢- قصة الرجل الذي مر على قرية خاوية على عروشها:

وقد وردت هذه القصة في سورة البقرة، وقد وردت بين قصتين تتناولان قضية الحياة والموت، الأولى تتحدث عن الجدال الذي دار بين ملك كافر وإبراهيم، وزعم الملك الكافر أنه قادر على الإحياء والإماتة، والقصة

الأخرى طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وقد ذكرت القصتين في الحديث عن إبراهيم عليه السلام.

وهذه القصة مثل ذكره الله يثبت به قدرته المطلقة على إحياء الموتى. فهذا رجل – لم يذكر الله اسمه لعدم أهميته في هدف القصة – مر على قرية – لم يعينها الله لنفس السبب – فرأى القرية مخربة تمامًا فكأنها شجرة تساقط أعلاها على أسفلها فهلكا معًا.

دهش للخراب الذي حاق بالقرية، وللفناء الذي دمر كل حياة فيها، وخرب كل جمال، وهو رجل مؤمن بالله فيسأل نفسه كيف يعيد الله الحياة لكل هذا الموت (وهو لم يشك في قدرة الله على إحيائها، وإلا كان قد سأل: هل يستطيع الله إحياء هذه القرية؟ وإنما كان يتعجب ويتساءل عن الطريقة التي يعيد الله بها إليها الحياة) فأراه الله ذلك بطريقة عملية، أماته الله ثم بعثه من موته، وسأله: كم تظنك، مكثت ميتًا (أو نائمًا: سيان فالقرآن يعتبر النوم موتًا، يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) أجاب: يومًا أو بعض يوم – فقد كان غائبًا عن الحس فلم يدركم كم نام – وكان الرجل جاء إلى القرية ممتطيًا حمارًا ومعه طعامه وتركها بجانبه ثم نام (أو مات) فأخبره الله بل مكثت في نومك مائة عام، وطلب منه أن ينظر إلى الطعام والشراب اللذين كانا معه فوجدهما على حالهما لم يتغيرا، فازداد عجبه، كيف تمضي مائة عام، ويبقى طعامه وشرابه كما

أحضرهما؟ فيطلب الله منه أن ينظر إلى حماره، فلم ير إلا هيكلًا عظيمًا لحمار قد دب فيه البلى، فلما رأى الله سبحانه سيطرة الدهشة والعجب عليه، قال له قد فعلنا ذلك لتكون معجزة للناس، تدل على كمال قدرة الله، وطلاقة هذه القدرة ثم طلب منه أخيرًا أن ينظر إلى هذه العظام النخرة، وكيف يركب بعضها فوق بعض، ثم يكسوها باللحم فتعود كما كانت، وأخذ الرجل ينظر إلى معجزة إحياء الموتى وهي تحدث أمام عينيه. فلما تمت واستوى الحمار قائمًا، لم يتمالك الرجل نفسه أن قال: إني أعلم علمًا يقينًا أن الله قادر على كل شيء، وأن إفناء القرية أو إحياءها أمر يسير عليه.

يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] (البقرة: ٢٥٩).

تبدو في هذه الآية معجزات ثلاث: الأولى إماتة الرجل مائة عام، ثم بعثه، والثانية: بقاء الطعام والشراب مائة عام دون أن يتغيرا، والثالثة: إعادة الحمار إلى الحياة والرجل يشاهد ما يحدث لحظة لحظة.

---

(١) يتسنه: لم يتغير، ننشزها: نركب بعضها فوق بعض.

يَردُ على الخاطر سؤال: **ما سر ترك الطعام والشراب دون تغير بينما الحمار تحول إلى عظام نخرة؟**

الجواب: - والله أعلم - أن الله يريد إظهار طلاقة قدرته، فهو قادر أن يفعل الشيء ونقيضه في نفس الوقت، يستطيع أن يسلب الزمن قدرته في إحداث التغيير في بعض الأشياء، ويترك للزمن تأثيره الطبيعي في أشياء أخرى وهما متجاوران في مكان واحد، ومعنى ذلك أن الفاعل لكفل شيء هو الله، وما الزمان إلا وسيلة في يده لإحداث ما يريد.

يذهب المفسرون إلى أن الرجل هو عزير أحد أنبياء اليهود، ولكن تحديد شخص الرجل لا أهمية له في أهداف القصة - كما قلت - ولكن الأمر المؤكد أنه رجل مؤمن بالله الواحد بدليل أنه لم يسأل عن قدرة الله في إحياء القرية، بل سأل عن الكيفية فقط، كما أنه قال تعقيبًا على معجزة إحياء الحمار: «أعلم أن الله على كل شيء قدير»، ولم يقل: «إن الله ...» وكلمة «أعلم» توحي أن علمه بقدرة الله أمر متأصل فيه.

(د) ذو القرنين (العلم والقوة والإيمان):

وردت قصة ذي القرنين في سورة الكهف (٦٩).

سئل الرسول ﷺ عن سيرة ذي القرنين، فطلب الله منه أن يجيب السائلين بأنه سيقص عليهم طرفًا من شأنه، فهو رجل مكن الله له في الأرض بالقوة والسلطان، وجعله حاكمًا عليها، وأعطاه من كل وسائل العلم والقوة ما ييسر

له كل ما يريد في حكمه وسلطانه فسلك طريقه الذي يسره الله له متجهًا نحو الغرب حتى وصل إلى مكان لا يرى السائر بعد شيئًا من الأرض، ورأى الشمس تغرب أمامه، عند عين ماء اختلط بها الطين والعشب حتى صارت سوداء وصار يخيل للناظر أن الشمس تسقط في هذه العين – كما نتخيل ذلك عندما نقف على شاطئ البحر والشمس غاربة فنظن أنها تسقط في الماء – ووجد في هذا المكان جماعة الناس يعيشون فيه، فضمهم إلى سلطانه، وترك الله له حرية التصرف في شأنهم، فله أن يعذبهم وله أن يحسن إليهم، فاختار أن يعاقب الظالمين منهم بما يستحقونه، مع علمه وإعلانه لهم أن هذا العقاب الدنيوي ليس نهاية عذابهم، بل سيرجعون إلى الله في اليوم الآخر فيعذبهم عذابًا فظيعًا جزاء ما قدمت أيديهم من سوء، وأما المؤمن بالله الذي يدفعه إيمانه إلى العمل الصالح، والسير الحسن في تعامله مع الناس فسيكون له أحسن الجزاء عند ذي القرنين، وسييسر له أموره في الحياة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾.

(الكهف: ٨٣ – ٨٨)

واصل ذو القرنين سيره متجهًا هذه المرة نحو الشرق حيث تطلع الشمس، لما وصل إلى أقصى مكان في الشرق حيث لا متجه بعده لمتجه وحيث يخيل للسائر أنه وصل إلى مطلع الشمس، وجد أناسًا عراة لا يسترهم من الشمس ساتر (وربما كانوا يعيشون في صحراء واسعة لا يحميهم من الشمس شيء) فسار معهم نفس السيرة التي سارها مع أهل المغرب، وهذا الحاكم الواسع الملك، الكثير العدد والعدة، قد اطلع الله على كل ما لديه، وأحاط علمه بكل شيء عنده.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾

(الكهف: ٨٩ - ٩١).

استمر ذو القرنين في سيره - ولم تحدد الآيات هذه المرة اتجاهه - بل ذكرت أنه وصل إلى سدين يعيش بينهما جماعة من الناس - وهذان السدان قد يكونان جبلين أو سدين صناعيين - وهؤلاء الناس متخلفون حضاريًا، لهم لغة غريبة، لا يستطيعون أن يحسنوا التعبير بها عما في أنفسهم، ومع ذلك فقد فهم ذو القرنين ما يريدون قوله، فخلف السدين قبيلتان مفسدتان تعرفان بيأجوج ومأجوج يطلعون عليهم بين الحين والحين فيستولون على كل ما لديهم من مقومات الحياة، وهم أعجز من أن يصدوا هجماتهم، وعرضوا على ذي القرنين أن يدفعوا له بعض المال لكي يقيم بينهم وبين هؤلاء

المفسدين - يأجوج ومأجوج - سدًا يحول بينهم وبين هجمات هؤلاء المفسدين، فرفض ذو القرنين أن يأخذ منهم مالًا؛ لأن ما أعطاه الله من سلطان وجاه ومال يغنيه عن أموالهم، ولكنه طلب منهم أن يعينوه بقوتهم العضلية ليقيم لهم ردمًا منيعًا، وبين لهم الأشياء التي عليهم أن يعدوها له ليبدأ العمل، وهي قطع الحديد، فأحضروها له فأخذ يكومها بين السدين، حتى بلغت في ارتفاعها ارتفاعهما ثم ألقى عليها النار، وطلب من القوم أن ينفخوا في الحديد والنار، فأخذوا ينفخون حتى تحول الحديد إلى نار، فطلب منهم أن يصهروا له النحاس، ثم يأتوه بذائبه، فأتوه بما أمر فألقى النحاس المذاب على الحديد فزاد تماسكه وصلابته، وأصبح سدًا منيعًا لا تقدر يأجوج ومأجوج على تسلقه ولا على نقبه، فأخبرهم ذو القرنين أنه لا فضل له فيما فعل، بل هي رحمة الله بهؤلاء القوم مكنته من أن يفعل ما فعل، ولكن هذا السد المنيع سيزول يومًا عندما يجيء وعد الله بزواله لحكمة يعلمها، ووعد الله - دائمًا - حق لا يتخلف.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٧﴾﴾[1]

(الكهف: ٩٢ – ٩٨)

وتنتهي قصة ذي القرنين ولكنها تثير في النفس الكثير من الخواطر بـ:

١- لقد جمع ذو القرنين بين العلم والقوة والإيمان، يتمثل العلم في معرفته بالدنيا ومسالكها وشعابها، وتدبير أمر الجيوش، وسياسة الأمم، وفي إقامة السدود، وتتمثل القوة في فتوحاته التي شملت الدنيا بأسرها من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق.

وأما الإيمان فالإشارات كثيرة في الآيات إليه في ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ فهذا الرجل مؤمن بالله معترف بفضله ورحمته، مؤمن بالبعث، يخاطبه الله تاركًا له حرية التصرف في شأن من يسوسهم.

وهذا يسلمنا إلى سؤال: ما المقصود بقول الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾؟ هل هو وحي أوحاه الله إليه؟ أو إلهام نفسي أنشأه الله في صدره؟

الآية تحتمل الأمرين، وإذا قيل إن الوحي لا يكون إلا إلى الأنبياء، فهل ذو القرنين نبي؟ أقول لا مانع من ذلك فرسل الله وأنبياؤه لا يحصيهم عد، وقد قال القرآن: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ

(١) خرجًا: مبلغًا من المال، زبر: قطع، الصدفين: الجبلين، قطرا: النحاس المذاب.

عَلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٤)، ذلك فالله أوحى إلى أناس لم يكونوا أنبياء ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصص: ٧) ويكون المراد بالوحي هنا الإلهام النفسي.

٢- يقول بعض المفسرين: إن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني؛ لأنهم وجدوا أن وصف ذي القرنين ينطبق عليه، فقد ملك معظم الأرض كما كان له تاج له قرنان ولكني لا أظن ذلك، فالإسكندر المقدوني كان وثنيًا كما يؤكد المؤرخون، وقد جاء إلى مصر، وذهب إلى زيارة إلهها آمون في واحة سيوة، وأعلنه كهنة آمون ابنًا للإله، واعتز هو بهذا اللقب.

والحق في شأن ذي القرنين أنه رجل صالح مؤمن قوي، ولم يشأ الله أن يحدده في هذه القصة، كشأن الله فيما يقص علينا من عبر.

٣- وكثر الجدل أيضًا في شأن يأجوج ومأجوج، وهل هما باقيان إلى الآن خلف السد، وسيخرجان قبل قيام الساعة بقليل بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ (الأنبياء: ٩٦، ٩٧).

ودون الدخول في تفصيلات كثيرة حول هذه الآراء أذكر رأيي المتواضع في ذلك وهو اجتهاد مني في فهم الآيات قد يكون خطأ أو صوابًا والله أعلم. هذا الرأي أن يأجوج ومأجوج قبيلتان مفسدتان استطاع السد أن يمنع شرهما عن القوم الذين لجئوا إلى ذي القرنين ليقيم لهم السد، وأن السد بقى ما شاء

الله أن يبقى، وعاش يأجوج ومأجوج ما شاء الله لهما يعيشا، ثم جاء وعد الله بانهيار السد فانهار – فليس من المحتم أن يكون المراد بوعد ربي هو قيام الساعة – وعاشت يأجوج ومأجوج في الأرض فسادًا فقد يكونون المغول أو التتار الذين خربوا العالم، وأزالوا عاصمة الخلافة الإسلامية، وقد يكونون غيرهم من الأمم المفسدة في الأرض الذين سجل التاريخ مظالمهم، ثم هلكوا كما هلك غيرهم من المفسدين.

وأما قول الله تعالى في سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ﴾ الآيات فأرى – والله أعلم – أن لفظي يأجوج ومأجوج استعارة لكل مفسد في الأرض؛ فكأن الله يشبه الأمم التي ستنشر الفساد في الأرض وتكون علامة على قيام الساعة بيأجوج ومأجوج، وأن من علامات الساعة انتشار الفساد في الأرض، ولم لا تكون أمريكا مثلًا يأجوج، ومأجوج؟ فهي تشيع فسادًا في الأرض أضعاف أضعاف ما فعل يأجوج ومأجوج، وقد يُقَرِّبُ هذا الفهم ما نقوله أحيانًا عن الأمم المفسدة: لقد فعل التتار كذا، أو خرب التتار كذا، نقصد هذه الأمة.

يقول المرحوم سيد قطب عن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ (الكهف: ٩٨) (هذا النص لا يحدد زمنًا، ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ هجمة التتار وانساحوا في الأرض، ودمروا المماليك

تدميرًا)[١].

ويقول عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ (وهذا النص كذلك لا يحدد زمانًا معينًا لخروج يأجوج ومأجوج؛ فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ (القمر: ١) والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضة قصيرة»[٢].

٤- ينبغي للمؤمن أن يتذكر دائمًا فضل الله وأنعامه، ويؤدي زكاة هذا الإنعام، فمن أعطاه الله القوة يساعد بقوته الضعفاء، ومن أعطاه الله العلم يسخره لخير الإنسانية، ومن أعطاه الله الحكم والسلطان يشيع العدل بين الرعية كما فعل ذو القرنين مع كل من ساسهم.

٥- عندما طلب القوم الضعاف من ذي القرنين أن يقيم لهم سدًا، ورفض أخذ مالهم طلب منهم أن يعينوه بقوة - وكان في استطاعته الاستغناء عن عونهم أيضًا ولكنه أراد أن يشركهم معه في العمل، لكي يشعروا بقيمتهم - من ناحية - فتزداد ثقتهم - من ناحية - فتزداد ثقتهم بأنفسهم ولكي يكونوا أكثر حرصًا في صيانة ما بنوا - من ناحية أخرى - لأنهم بذلوا فيه جهدهم.

---

(١) انظر «في ظلال القرآن» عند تفسير هذه الآية من سورة الكهف.

(٢) في ظلال القرآن عند تفسير هذه الآية.

(هـ) لقمان (العلم والحكمة):

وقد وردت قصته في سورة سماها الله باسمه: سورة لقمان (٥٧) وسيرته سيرة رجل صالح لم يذكر الله إلا اسمه، فلم يعرفنا بأصله أو زمنه أو علمه، واختلفت الأقوال فيه، ولكن لا يقين في أي منها، فلنكتف بما ذكره القرآن.

ونقول كما قال – إنه رجل أتاه الله الحكمة – ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا – وقد اهتم القرآن بذكر مواعظه لابنه، ولم يهتم بأمر آخر من سيرته، وذلك لأن مواعظه هذه تركز على أساس العقيدة وهو التوحيد، وتتحدث عن إحاطة علم الله بكل شيء، ثم تتناول جماع الفضائل الإنسانية التي أمر بها الإسلام.

وقد بدأت الآيات ببيان أن الله أعطى لقمان الحكمة، والحكمة هي الإصابة والسداد في الرأي، والنطق بما يوافق الحق، وقد ذكر الله أنه آتى بعض أنبيائه الحكمة مثل داود وسليمان، وهذه الهبة العظيمة التي منحها الله لقمان تستوجب منه شكرًا عليها، لذلك أمره الله أن يشكره، ثم استطرد الله من هذا الأمر إلى بيان أن شكر العبد لربه يكون نفعه لنفسه؛ لأن يستجلب له رضا الله، وزيادة نعمائه، وأما الذي يجحد نعمة الله عليه فله عقابه من الله، وفي الحالين فالله سبحانه لن ينفعه الشكر ولن يضره الكفر، فهو غني بذاته عن كل خلقه، مستوجب للحمد لذاته.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: ١٢).

ثم تأخذ الآيات في ذكر مواعظ لقمان لابنه، وأول موعظة يعظه بها هي عدم الإشراك بالله – وقد بدأ بها؛ لأن كل ما يأتي بعدها لن يفيد شيئًا إذا لم تتحقق الموعظة الأولى – ومعنى عدم الإشراك بالله أن العبد يفرد الله وحده بالعبادة وأن يكون الله محورًا لاهتمام العبد، فلا يشاركه مخلوق كائنًا من كان ملكًا أو بشرًا أو حجرًا أو معنى من معاني الحياة الزائلة كالمال والجاه وغيرهما.

ثم يعلل لقمان لابنه الحكمة في هذا النهي، وهي أن الشرك ظلم عظيم، ظلم للنفس، وظلم للخالق، وظلم للحقيقة، ويستطرد الله من ذكر وصية لقمان إلى تقرير معنى من المعاني النبيلة، فقد أوصى الله الإنسان بالإحسان إلى الوالدين، وكأن الله يريد أن يقول إن الإحسان إلى الوالدين أعظم من أن يكون وصية أب لابنه، بل الله نفسه يوصى الإنسان بذلك – فإن كان الله هو المنعم الأول على الإنسان بخلقه، فالوالدان كانا السبب في وجوده، ثم ذكر بعض المعاناة التي تعانيها الأم في حمل وليدها وإرضاعها؛ فقد حملته جنينًا في بطنها، وقد سبب لها الحمل ضعفًا في صحتها يتزايد كلما كبر الجنين في بطنها، كما أرضعته مدة عامين يشاركهما في غذائها، ويسرى دمها في دمه، هذا يقتضي من الإنسان الشكر العظيم أولًا لله سبحانه وتعالى الذي خلقه، وذلك بأن يفرده بالعبادة، ويأتمر بأوامره، وينتهي عن نواهيه، وثانيًا لوالديه ببرهما وطاعتهما وفعل كل أمر يرضيهما، ثم يؤكد الله هذه الوصية ببيان أن

مصير الخلق جميعًا إليه، وسيحاسب كلًا على ما قدمت يداه من شرك بالله أو توحيد، ومن بر بالوالدين أو عقوق.

ولكن الله يستثنى حالًا واحدًا، على الإنسان أن يعصى أبويه فيها وهي إذا حاولا أن يكرهاه على الإشراك بالله، ولو بذلا كل جهد في سبيل ذلك في هذه الحالة وحدها يرفض طلبهما (ويمكن أن نقيس على ذلك جميع الكبائر التي نهى الله عنها) على ألا ينسى، وهو يفعل ذلك عدم الإساءة إليهما بالقول أو بالفعل، بل عليه أن يعاملهما بالمعروف طوال حياتهما، وليتبع في إيمانه بالله وتوحيده وطاعته الطريق الذي سلكه المؤمنون المنيبون إلى الله، الملتزمون بعبادته، وفي نهاية الأمر فالجميع مرجعهم إلى الله، وسيخبرهم بكل ما عملوا، ويحاسبهم عليه.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

(لقمان: ١٣-- ١٥).

ثم يرجع الكلام إلى وصايا لقمان لابنه، فبعد وصيته الأولى التي تضمنت أعظم أمر في الوجود، وهو عدم الإشراك بالله، وبعد تقرير الله جسامة أمر

الشرك حتى طلب من الابن أن يعصى أبويه – إذا حملاه على الشرك، بعد ذلك يعظم لقمان أمر الخطيئة لابنه، ويبين له أنه لا يمكن أن يفلت من عقابها؛ لأن الله مطلع على كل صغيرة وكبيرة، فلو كانت المعصية في وزن حبة الخردل – وهي أصغر شيء يعرفه الإنسان – وكانت في باطن صخرة، أو مختفية في أي مكان في السماء والأرض، يعلمها الله ويحاسب عليها، فالله لطيف يعلم ما دق من الأمور، عليهم ببواطن الأمور.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ (لقمان: ١٦).

بعد تقرير هذه الحقائق الأساسية من جسامة الشرك، والإحسان إلى الوالدين، وإحاطة علم الله بكل شيء يأخذ لقمان في ذكر الوصايا التي تعتبر كالتطبيق العملي للحقائق السابقة، فيأمره بإقامة الصلاة، أي أدائها على أحسن وجه، وأن يأمر بالأعمال الطيبة التي تحقق رضا الله وسعاد المجتمع وهي معروفة لدى الناس بذلك، وأن ينهى كل من يحاول ارتكاب ما يغضب الله، ويفسد المجتمع مما ينكره الناس من أمور، ويدعوه إلى الصبر على ما يصيبه من مكروه في الحياة نتيجة أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو أي سبب آخر، فهذا أمر يفرضه الدين، وتتطلبه الرجولة والكرامة.

ثم ينهاه عن أمور منفرة ينبغي أن يبتعد عنها فلا يصعر خده للناس – وهذا كناية عن الكبر – ولا يختال في مشيئة ويتكبر فالله لا يحب من يفعل ذلك من

كل معجب بنفسه، مغرور بما عنده، ثم يأمره بأشياء محببة لدى الله والناس، وذلك أن يعتدل في مشيته، فيبعد بها عن كل مظنة الكبر، ويخفض من صوته، فالصوت الخفيض يدل على ثقة بالنفس، وحسن أدب في الكلام أو الجدال، ثم يصور الله صورة منفرة لعلو الصوت، فيشبهه بنهيق الحمار، وهو صوت منكر، ينفر منه كل من يسمعه.

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٧ – ١٩).

وتنتهي وصايا لقمان، وهي كل ما نعرفه عن سيرته، ونلاحظ أن الآيات ركزت على الجانب المتصل بالعقيدة، وأفاضت فيه، فدعت إلى تجنب الشرك وبينت إحاطة الله علمًا بكل شيء في الكون مهما صغر.

وقد بدأت الوصايا بعد ذلك بالصلاة؛ لأنها المظهر الذي يعبر عن إيمان الإنسان وتجنبه الشرك، وهي الصلة التي تربط بين العبد وربه، وهي التي تنهي العبد عن الفحشاء والمنكر، ثم أردفها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمؤمن لا ينبغي أن يكون سلبيًا يكتفي بإصلاح نفسه، بل عليه أن يكون رقيبًا على غيره، يحثه على الصلاح، ويكفه عن الفساد، ويتحمل ما يصيبه في سبيل ذلك من ضرر.

يلي ذلك وصايا تحض الابن على حسن التعامل مع المجتمع الذي يعيش ففيه ليكون مقبولًا لديه، وبذلك يتقبل منه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر برضًا، فينهاه عن الكبر وهو أكثر ما ينفر الناس من أي إنسان ومظاهره كتصعير الخد أي إمالته، والمشية المختالة المتكبرة، ويأمره بعكس ذلك من الاعتدال في المشية، وخفض الصوت.

وهذه الوصايا هي ثمار الحكمة التي أعطاها الله لقمان، وهي تلخص السمات الأساسية للمؤمن الحق.

(و) الرجل الذي انسلخ من آيات الله (عدم الانتفاع بالعلم):

وقد وردت قصته في سورة الأعراف في سياق ذكر مفاسد بني إسرائيل. فلعله واحد منهم، وقصته مناقضة لقصة لقمان، فلقمان آتاه الله الحكمة، فعمل بها وعلمها الناس، وهذا رجل لم يحدد الله اسمه، ولكنه ذكر أنه أعطاه علمًا من عنده آتاه آيات من كتبه ولكنه لم ينتفع بها بل انسلخ مما آتاه الله كما تنسلخ الحية من جلدها بل أسوأ؛ لأن الحية تنسلخ من جلدها لتبدل به غيره، أما هو فقد انسلخ من علمه وظل عاريًا ينظر إليه العارفون فيحتقرونه، لأنهم عرفوا سبب انسلاخه، وهو رغبته في إرضاء سلطان ليبسط حمايته عليه، أو بلوغ منصب يستعلى به على الناس، أو حصوله على مال يرضى به شهواته، هذا المنسلخ عن آيات الله كان صيدًا ثمينًا للشيطان، فمثل هذا هو من سلطة الله عليه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ

مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ (الحجر: ٤٢)، وهذا الرجل قد غوى وانحرف عن منهج الله، ولو أن هذا الرجل عمل بما علمه الله، لرفعه الله إلى مستوى علمه، ولكنه التصق بالأرض وشهواتها وسار وفق ما يمليه عليه هواه مهما بعد عن الحق، فما أشبهه بالكلب الذي لا يكف عن اللهاث، فإن طردته جرى وهو يلهث، وإن تركته وقف مكانه وهو يلهث، واللهاث منظر منفر من الكلب، وهو يدل على حاجة الكلب لشيء يريده، هذا المثل الكلبي هو مثل لكل مكذب بآيات الله مع علمه بصدقها، فقص هذه القصة وغيرها يا محمد على من يكذبونك لعلهم يتفكرون ويتعظون فيكفون عن تكذيبهم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

(الأعراف: ١٧٥، ١٧٦)

من هذا الرجل الذي فعل ذلك وطلب الله من رسوله أن يتلو قصته على مكذبيه؟ اختلف المفسرون في أمره اختلافًا لا يفيد يقينًا، فلنعتبره مثلًا لمجموعة من العلماء الذين وهبهم الله علمًا يعرفون من خلاله مبادئ الدين الصحيحة فتاجروا بها، واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، فهذا عالم يسخر علمه للسلطان، ليرفع درجته فيحل له الحرام، وذلك عالم اتخذ علمه ذريعة

لإضلال الناس ليحقق مغانم دنيوية إلى غير أولئك ممن حفلت بهم المجتمعات قديمًا وحديثًا هؤلاء هم العلماء الكلبيون أتباع الشيطان مهما بدا عليهم سيَم العلماء فمأواهم جهنم وبئس المصير.

(ز) قصة ابنَي آدم (الحسد):

وقد وردت هذه القصة في سورة المائدة، وجاءت مقدمة لذكر عقوبة القتل والحرابة. يدعو الله ورسوله ﷺ أن يتلو على الناس مسلمهم وكافرهم خبر بني أدم، وهو خبر حق لا كذب فيه، وقد حدثت قصتهما عندما ذهبا ليقربا قربانًا إلى الله لسبب من الأسباب لم يذكره الله، فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، ففار الجسد والحقد في نفس المرفوض قربانه على أخيه فورة، بلغت حد اعتزامه قتل أخيه، وأعلنه بذلك إعلانًا مؤكدًا، قال: لأقتلنك، فأجابه أخوه بهدوء: وما ذنبي لكي تقتلني؟ إذا كان الله قد تقبل مني فما ذلك إلا لأني من الذين يتقون الله، والله يتقبل من المتقين، ولم يتقبل منك لأنه اطلع على ضميرك، فعلم ما يشتمل عليه من كفر، ولئن مددت إلى يدك محاولًا قتلي، فلن أمد إليك يدجي محاولًا قتلك، لأني أخاف خالق الخلق جميعهم، ومالكهم وربهم، إني سأتركك ترتكب جريمتك فيقع الوزر الذي كان سيحل بي لو قتلتك، ووزرك الذي ستحمله بسبب قتلك لي على كاهلك، ويكون مصيرك النار خالدًا فيها أبدًا، فهذا هو جزاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب الجريمة وظلموا من قتلوه بحرمانه من الحياة.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧، ٢٨).

ماذا كان رد الأخ الحاقد على هذا الكلام المسالم الوديع الناصح؟ كان ردًا عمليًا أملته نفس أعماها الحسد والحقد، قتل الأخ أخاه فخسر بذلك كل شيء: خسر نفسه في الدنيا لفقد الأخ الذي كان يمكن أن يكون نصيرًا له في الشدة، وخسر نفسه في الآخرة لما سيلقاه من عذاب أليم فيها.

وقد جابهت الأخ القاتل مشكلة لم يدر لها حلًا، فقد ظلت جثة أخيه أمامه لا يدري ما يفعل بها، وبدأت أمارات التحلل تظهر أمام عينيه، ووقف أمامها حائرًا حتى بعث الله غرابًا أخذ يحفر في الأرض ليبين للقاتل الطريقة التي يمكن أن يدفن بها أخاه، وربما دفن الغراب غرابًا وجده ميتًا، أو قتل غرابًا رآه ثم حفر له ودفنه، وأيًا ما كان الأمر فهو غراب مرسل من الله ليرشد القاتل كيف يدفن أخاه وليظهر أمامه عجزه.

دعا القاتل على نفسه بالهلاك لعجزه أن يفعل مثل ما فعل الغراب، فيحفر لأخيه ويدفنه، وشعر من أجل ذلك بالندم.

يقول الله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ

﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (المائدة: ٣٠، ٣١).

ثم اختتم الله هذه القصة ببيان شناعة جريمة قتل النفس، فيذكر أن الذي يقتل نفسًا – بغير أن يكون ذلك القتل قصاصًا، أو نتيجة إفساد في الأرض، وترويع الآمنين وإثارة الفزع في النفوس – فكأنه قتل الناس جميعًا لفظاعة الجريمة وبشاعتها، وكذلك الذي يعمل لإنقاذ حياة الإنسان بدفاعه عنه ثوابه ثواب من أنقذ البشرية جمعاء، فالنفس الواحدة عند الله تساوي جميع نفوس الخلق، وقد جعل الله ذلك في شريعة بني إسرائيل (ربما بسبب شيوع القتل بينهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق) وقد أرسل الله إليهم رسله بالبينات الموضحة لخطورة قتل بغير حق) وقد أرسل الله إليهم رسله بالبينات الموضحة لخطورة قتل النفس بغير الحق، ولكن كثيرًا منهم لم يأبهوا لذلك، وتجاوزوا الحقد في إفسادهم في الأرض، وبغيهم على الناس.

يقول الله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ (المائدة: ٣٢).

وتنتهي هذه القصة وقد عرض الله فيها نموذجين من البشر: نموذجًا للمسالم الوديع الذي لا يبتغي إلا رضا الله، وتملأ قلبه التقوى، ونموذجًا

للإنسان الحاقد الحاسد، وقد رسمت الآيات النموذج الأول رسمًا يملأ نفس القارئ حبًا وإشفاقًا عليه، فهو – حينما يهدده أخوه بالقتل – لا يجيبه إلا بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فلا يثور، ولا يرد على التهديد بمثله، بل يجاوز ذلك إلى إعلان أخيه أنه لن يمد يده إليه بالقتل لو حاول هو بذلك، بل سيكل عقابه إلى الله، وأما الثاني فهو معتد أثيم، القتل عنده أسهل شيء، فعندما رأى قربانه لم يقبل لم يناقش ويسأل عن سبب رفض قربانه، أو يبد أسفه لذلك، بل سارع إلى إعلان اعتزامه قتل أخيه، ونفذ عزمه رغم وداعه أخيه ومسالمته.

وبعد: فمَن هذان الرجلان؟ لم يذكر الله اسميهما – كعادة القرآن في إغفال بعض الأسماء، حينما يكون الهدف من القصة غير محتاج إلى ذكرها – وللمفسرين آراء في ذلك، أكثرهم على أنهما ابنا آدم: قابيل، وهابيل. تنافسا على أخت لهما كل منهما يريد أن يتزوجها – وكانت شريعة آدم تبيح هذا للضرورة، ولكنها تشترط ألا يكونا توئما – وكانت أخت قابيل توئمًا له، فلم تكن من حقه، ولكنه أصر على زواجها وحرمان هابيل منها وهو أحق بها فتحاكما إلى القربان[1] فكان ما ذكر في الآيات..

ولكن القرآن لم يشر إلى هذا، ولو وجد في ذلك فائدة لفعل، فعلينا ألا نجزم بهذه القصة فقد تكون من أساطير الأولين، ويكفينا أن نجزم بأن الحادثة

---

(١) انظر تفسير القرطبي لهذه الآية.

وقعت كما رواها القرآن، وقد يكون سبب تقديم القربان هو العبادة فحسب، وكان أحدهما مخلصًا في عبادته، والآخر مراءٍ، فاعتبر رفض قربانه إهانة له، وليس في طبيعته الإحساس الديني فيسأل نفسه لماذا رفض قرباني، ويحاول أن يتوب من أخطائه، بل أخذته العزة بالإثم، ولم ير أمامه ما يصب عليه جام غضبه إلا أخاه فقتله.

واضح أن هذا القتل كان أول قتل على وجه الأرض، بل أول موت يصيب إنسانًا، بدليل حيرة القاتل أمام جثة المقتول، ولم يخطر بباله أمر الدفن لأنه لم يشاهده من قبل حتى دله الغراب على ما يفعل، وهذا يدحض مزاعم بعض المفسرين الذين قالوا: إن القاتل والمقتول كانا من بني إسرائيل، ولعلهما استندا في قولهما إلى الحكم الذي أصدره الله بعد قصة القتل.

في الآيات تعبيرات موحية تثير التأمل مثل قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ فالتعبير بقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ﴾ يبين كيف أن النفس حينما تنحدر مع شهواتها تسهل لصاحبها كل أمر صعب، وتزين له كل شيء قبيح، وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) وتأمل لفظ أخيه في هذا المقام الذي يوحي بالحب والإشفاق ولكنه لم يثر أي عاطفة لدى رجل فقد إنسانيته.

والتعبير عن جسد الإنسان بعد موته بلفظ «سوءة» يوحي بمدى ما سيحل بهذا الجسد من تحلل وتعفن ينفر أقرب الأقربين منه، ويحمل على التأمل في

أن الإنسان بنفسه أولًا وبروحه، وأن الجسد ما هو إلا ثوب سيبلى فلا يحق لصاحبه أن يبذل جهده في إشباع شهواته، وينسى تهذيب نفسه، وتنقيه روحه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المراجع

١ – تفسير ابن جرير الطبري، الطبري.
٢ – تفسير الكشاف، الزمخشري.
٣ – تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.
٤ – الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.
٥ – في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب.
٦ – صحيح البخاري، البخاري.
٧ – صحيح مسلم، مسلم.
٨ – قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار.



